

في الجاهلية وصدر الإسلام

تأليف

الدكتور محمود حسن أبو ناجي

أستاذ الأدب العربي المساعد بجامعة الملك عبد العزيز
كلية التربية - المدينة المنورة

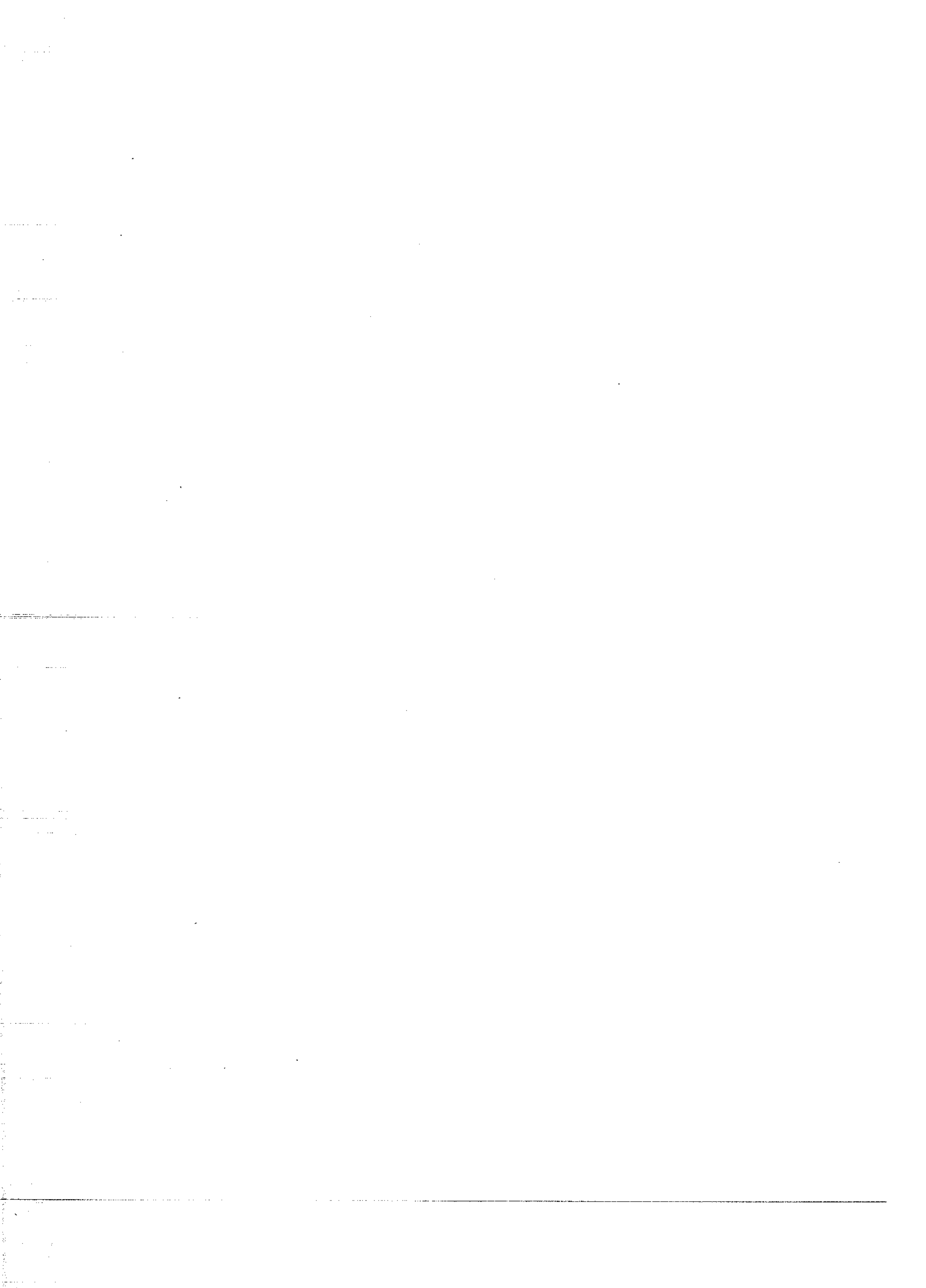
مؤسسة علوم القرآن

دمشق - بيروت

الطبعة الأولى
١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م

مؤسسة علوم القرآن
سوريا - دمشق - شارع مسلم البارودي - بناء خولي وصلاحي - ص.ب ٤٦٢٠ - تلفون ٢٢٥٨٧٧ - بيروت - ص.ب ١١٣/٥٢٨١





مقـــدّمة

الحمد لله الذي أنعم علينا بالإسلام ديناً قيماً ، كما أنعم علينا بالإسلام نظاماً شاملاً للحياة ، والذي دعا الى القوة المؤمنة الراشدة التي تحمي الحق ، وتذبّ عنه حيث قال : ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم ﴾[1] والذي غرس في نفوس المسلمين وعلمهم أن يفهموا أن كلمة الله هي العليا وأن المؤمنين هم الأعلون فقال : ﴿ ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين ﴾[2] .

والصلاة والسلام على إمام المجاهدين وسيد الغر المحجلين ، وفارس الأبطال الفرسان إلى يوم الدين وبعد :

فقد كنت أشد ما أكون شغفاً وأحرص ما أكون أملاً في أن أختار موضوعاً عن الفروسية والفرسان في الجاهلية وصدر الإسلام فأكرمني الله إكراماً عظيماً حيث منَّ علي أن أختار هذا الموضوع الذي يتناول أعلام الفرسان في الجاهلية ثم بيان الفتوح الإسلامية من أولئك الفرسان في صدر

---

(١) سورة الأنفال آية ٦٠ .

(٢) سورة آل عمران آية ٣٩ .

الإسلام فكان هذا الكتاب (شعراء العرب الفرسان في الجاهلية وصدر الإسلام) الذي حرصت فيه أن يكون ترجمة لأعلام الفرسان الأبطال في الجاهلية ، ثم دور الفرسان المسلمين في الفتوح الإسلامية الكبرى في صدر الإسلام وبيان بطولتهم وجهادهم في سبيل جعل كلمة الله هي العليا .

وقد جعلت هذا الكتاب في :

١ ـ تمهيد يتناول التعريف بالفروسية اعتماداً على معاجم اللغة العربية .

٢ ـ بيان مرابط الخيل في جزيرة العرب في العصر الحاضر ومدى صلتها بالماضي .

٣ ـ أما الفصل الأول فقد درست فيه بواعث الفروسية للفرسان ، وبيان خصائص هذه الفروسية العربية دون فصل بين الفرس والفارس ؛ وذلك للترابط الوثيق بين الفارس سيد الفرس وبين الفرس ذخر وعدة الفارس في الكرِّ والفرِّ .

٤ ـ أما الفصل الثاني فقد اخترت فيه أعلام الشعراء في العصر الجاهلي ، وبينت وقائعهم نصراً وهزيمة ، وشرحت بشيء من التفصيل أيام العرب في الجاهلية فيما بينهم داخل الجزيرة ، ثم بينهم كأمة وبين الأمم الخارجية كيوم ذي قار حيث أخذ العرب فيه حقهم من الفرس كما في الأثر .

٥ ـ أما الفصل الثالث فقد اخترت فيه أعلام الفرسان المسلمين ـ رضوان الله عليهم ـ وقد فصلت القول في فتوحات هؤلاء الشعراء الفرسان ، وتوسعت في ذكر بطولتهم ومدى إسهامهم في حرب أعدائهم ونصر الإسلام وقهر الأعداء ، من أول غزوة في الإسلام عندما مرثد بن أبي مرثد والزبير بن العوام هما اللذان يملكان فرسين في غزوة بدر حتى أشهر معارك الإسلام الفاصلة كمعارك اليرموك والقادسية والجسر والبويب وغيرها .

ثم تطرقت إلى المقارنة بين أهداف الحرب في الجاهلية وأهدافها في

الإسلام ، حيث ذكرت أن من أسباب الحرب في الجاهلية الشهرة وذيوع الصيت ، أو للشجاعة الذاتية ، أو للعصبية القبلية .

أما القتال في الإسلام فإنه يبتغي نشر الإسلام وتحقيق العدل وقهر الشرك ، وإقامة مبادىء الحق والحرية وتدمير كل طواغيت الأرض الذين يقفون حائلا أمام انتشار الإسلام . وقد تطرقت إلى ذكر هذه الأيام في الإسلام ، ثم ذكرت الانتصارات والهزائم التي حققها المسلمون من غزوة بدر إلى آخر الفتوح الإسلامية في صدر الإسلام ؛ أي من مشاركة الفارس المسلم مرثد بن أبي مرثد والزبير بن العوام والمقداد بن الأسود إلى المثنى بن حارثة الشيباني الذي كان له بعد الله فضل الانتصار على الفرس في معركة البويب من أيام القادسية .

وقد اعتمدت في ذكر هذه الأيام على المراجع العربية الأصيلة والموثوقة أمثال سيرة ابن هشام وكتب التفاسير وكتب الحديث وكتاب تاريخ الرسل والملوك لابن جرير الطبري ، والكامل في التاريخ لابن الأثير ، وكتاب فتوح البلدان للبلاذري وكتب السيرة عموما وكتب الأدب التي أفاضت بذكر بطولة الشعراء الفرسان .

وربما نسيت في خضم الكتابة عن أعلام الشعراء الفرسان فارساً ، فأنا أعتذر عن ذلك دون قصد مني ، حيث لا يستطيع الكاتب مهما أوتي من سعة الاطلاع وكثرة المراجع الإحاطة بكل أطراف موضوعه والتفصيل فيه ، وخاصة في فرسان العرب والإسلام في صدر الإسلام .

ولم أكتف بذكر الانتصارات أو الهزائم لهؤلاء الفرسان بل تطرقت إلى ذكر شيء من تراجم هؤلاء الفرسان ، اعتماداً على كتب التراجم مثل كتاب « الإصابة في تمييز الصحابة » وكتاب « أسد الغابة » وكتاب « الاستيعاب » لابن عبد البر « وطبقات ابن سعد » وغيرها من الكتب التي تعنى بحروب الإسلام ومما ألف في الحاضر .

أما الأهداف التي توخيتها من تأليف هذا الكتاب فهي :

أولاً :إنَّ حال المسلمين في الوقت الحاضر ليست على ما يرام لذا فينبغي أن يكون هناك جيل من الشباب المؤمن الذي يحتاج إليه هذا الدين لفهم مبادئه أولا ، وغرس عقائده في النفوس ، ثم التحرك لاستعادة المقدسات الإسلامية في كل ديار الأرض وأن الكلمة العليا هي كلمة الله وأن الدين الإسلامي هو خاتم الرسالات والأديان في كل زمان ومكان وأن المؤمنين هم الذين يستحقون بجدارة أن يكونوا سادة الدنيا وقائدي العالم كما كان أسلافهم في السابق ، وصدق الله العظيم حيث يقول في أكثر من آية تأكيدا لهذا المفهوم الكريم بعيدا عن مفاهيم غريبة عن الإسلام روحاً وشكلاً فيقول :

﴿ أشداء على الكفار رحماء بينهم ﴾[1] ، ويقول : ﴿ أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين ﴾[2] ، ويقول : ﴿ ولا تهنوا في ابتغاء القوم ﴾[3] ويقول : ﴿ قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ، ويشف صدور قوم مؤمنين ﴾[4] .

ثانياً : إنَّ الهدف الثاني من تأليف هذا الكتاب هو تعريف الجيل الإسلامي المعاصر بدور الصحابة الكرام رضوان الله عليهم بنشر الإسلام وحرب الكفر وبناء حضارة إسلامية راسخة في كل بقاع الدنيا ، حيث كان هدف هؤلاء الصحابة الكرام إما أن ينالوا الشهادة ، وإما أن ينتصروا على أعداء الله وتخفق راية الإسلام عالية في العالمين . وعليه فلا ينبغي أن يفرط هذا الجيل بضياع هذه الأمجاد والمكتسبات والانتصارات ، التي تحققت على دماء أولئك المجاهدين الأبرار .

---

(١) سورة الفتح آية ٢٩ .

(٢) سورة المائدة آية ٥٤ .

(٣) سورة النساء آية ١٠٤ .

(٤) سورة التوبة آية ١٤ .

ثالثاً : أما الهدف الثالث من تأليف هذا الكتاب فهو أن أوضح للمسلمين جميعا أن أسباب انتصار هؤلاء الأبرار في معارك الإسلام الفاصلة كان بسبب حبهم لله ورسوله ، والاستهانة بكل مغريات الحياة ، وعدم الغرور بعرض زائل من هذه الدنيا ، وما دام الحرص هو نصر الله فإن الله يهب هذا النصر عند صدق النيّات ورسوخ العزائم إلى هؤلاء المؤمنين : ﴿ إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ﴾[1] . وعلى هذا فلا بد أن تكون مناهج التربية والتعليم في العالم الإسلامي نابعة من تراثنا العريق من الكتاب والسنة : « وإني تركت فيكم مالا تضلوا بعده إن اعتصمتم بهما كتاب الله وسنتي »[1] . فلا بد من إعادة النظر في مناهجنا .

وإذا علمنا أن عدد المسلمين في كل من معاركهم الفاصلة لم يكن مساوياً لعدد المشركين ، علمنا أن النصر من الله يعطى عند الصدق في البلاء . لقد كان عدد المسلمين في القادسية سبعة آلاف وعدد الفرس كما تروي كتب التاريخ مائة ألف وانتصر هذا العدد القليل على أعداد الفرس الكثيرة ﴿ كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ﴾[3] .

رابعاً : أما الهدف الرابع من تأليف هذا الكتاب فهو أن أبين أن الشعراء الفرسان الذين آمنوا بالإسلام ديناً شاملاً قد جعل هؤلاء الفرسان شعرهم في خدمة العقيدة ، حيث تركوا ما كانوا عليه في الجاهلية من القتال في سبيل الشهرة أو الشجاعة ، إن قتالهم الآن هو لإعلاء كلمة الله والدعوة إلى التماسك ونبذ الخلاف ورصّ الصفوف . وترك هؤلاء الفرسان الشعراء كل خلق نهى الإسلام عنه وشاركوا بسيوفهم وسلاحهم وشعرهم في المعارك الإسلامية الخالدة أمثال أبي محجن الثقفي وعمرو بن معد يكرب ، وخالد بن الوليد وعمرو بن العاص وغيرهم . أي أن هؤلاء الشعراء الفرسان كانوا

---

(١) رواه مسلم / المعجم المفهرس للحديث ٥/٥٣٤ .

(٢) سورة البقرة آية ٢٤٩ .

ملتزمين بالخط الإسلامي سيرة واعتزازاً بمفاهيم الإسلام .

وبعد :

فإني قد ألفت هذا الكتاب الذي هو صورة من صور الماضي الأجلّ الذي نهتز له طرباً وإعجاباً ، ألفته رغبة مني في إثارة همم الشباب المؤمن في كل أقطار العالم الإسلامي ، وبعث العزائم وإحياء الغيرة الدينية في نفوس هؤلاء الشباب ، الذين هم عدة المستقبل ومناط الأمل وذخر الأجيال . فإن أحسنت في هذا التأليف فذاك قصدي ومبتغاي ، وإن كان غير ذلك فإن ذلك اجتهادي في النصح والبيان، حيث أوضحت بطولة من بطولات أعتزّ بها بهذا الماضي المشرف فقد كان آباؤنا وأجدادنا حراساً للعقيدة يموتون في الذود عن حياضها ويستهينون بكل مغريات الحياة لإعلائها ويكفي أن نذكر بعض الأحاديث التي تحث المسلمين على القوة الهادية الراشدة المؤمنة لحماية العقيدة .

فقد روى معاذ رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « من قاتل في سبيل الله من رجل مسلم فواق ناقة وجبت له الجنة ، من جرح جرحا في سبيل الله أو نكب نكبة فإنها تجيء يوم القيامة كأغزر ما كانت لونها الزعفران وريحها المسك »[1] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « من خير معاش الناس لهم رجل ممسك بعنان فرسه في سبيل الله يطير على متنه كلما سمع هيعة أو فزعة طار على متنه يبتغي القتل أو الموت مظانه أو رجل في غنيمة أو شعفة من هذه الشعاف في بطن واد من هذه الأودية يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة ويعبد ربه حتى يأتيه اليقين ليس من الناس إلا في خير »[2] .

---

(١) رواه أبو داود والترمذي ، (رياض الصالحين ٤٩٦) .

(٢) رواه مسلم (رياض الصالحين ٤٩٦) .

وعن عقبة رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ، ألا إن القوة الرمي ، ألا إن القوة الرمي ، ألا إن القوة الرمي »[1] .

فإننا نلمس هنا حرص الرسول ﷺ أن يكون شباب الإسلام ومقاتلوه أقوياء بالله ثم بالسلاح . يدافعون به عن الإسلام بعزيمة المجاهدين الأبرار ، وقوة المؤمنين الأخيار وثبات الفرسان الأوائل من الصحابة الكرام رضوان الله عليهم أجمعين .

﴿ ربنا لا تؤاخذنا إنْ نسينا أو أخطأنا ، ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ، ربنا ولا تحملنا مالا طاقة لنا به ، واعفُ عنا واغفْر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين ﴾[2] .

﴿ ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا ، وهب لنا من لدنك رحمة إنَّك أنت الوهاب ﴾[3] . ﴿ ربنا اجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ﴾[4] اللهم سدد على الحق خطانا واجعل عملنا خالصا لوجهك الكريم . إنك نعم المولى ونعم النصير وإنك على ما تشاء قدير ، والحمد لله رب العالمين وصلِّ اللهم وسلم على حبيبنا وسيدنا محمد رسول الله .

د . محمود حسن أبو ناجي

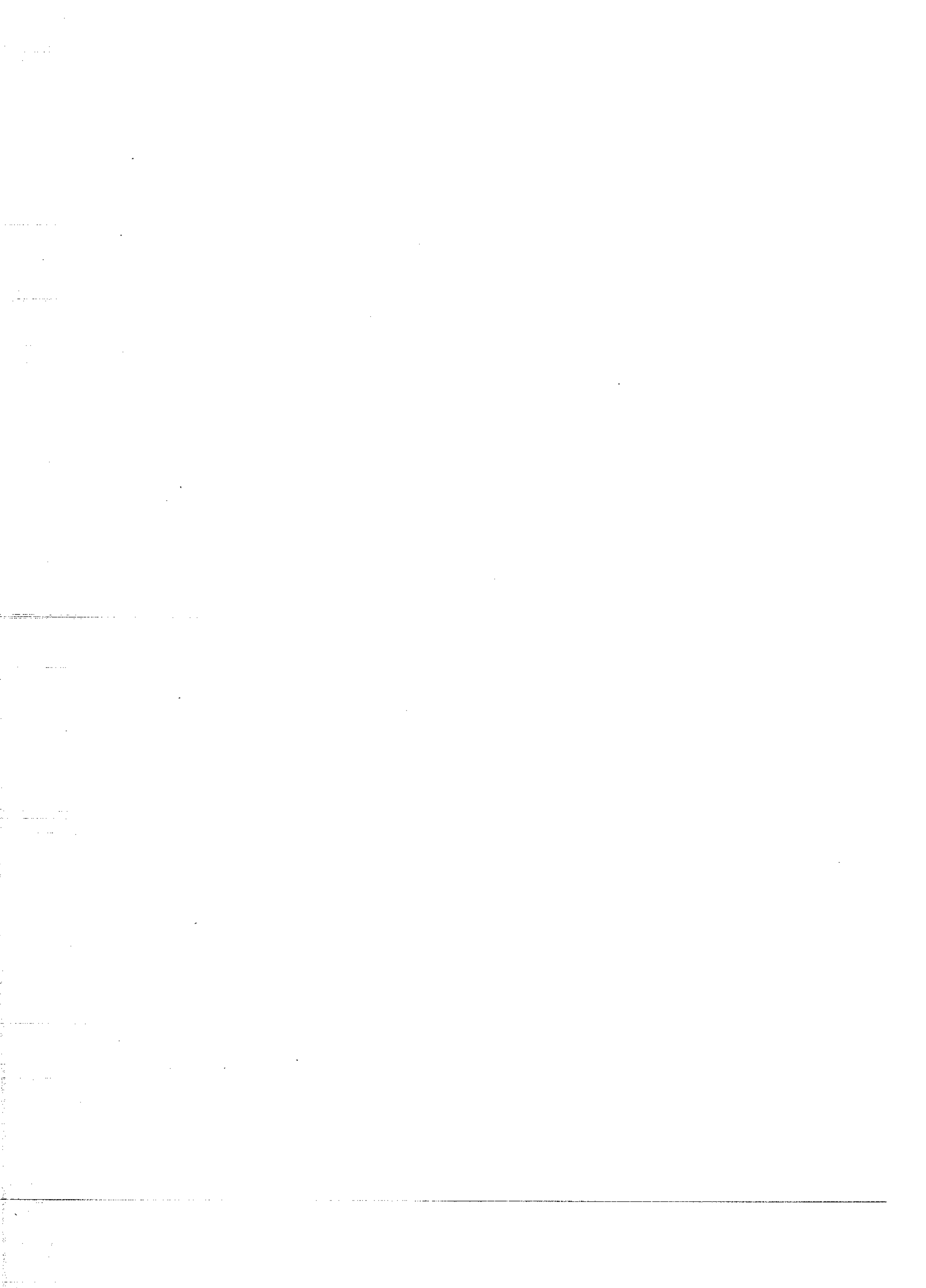
---

(١) رواه مسلم في صحيحه .

(٢) سورة البقرة آية ٢٨٦ .

(٣) سورة آل عمران آية ٨ .

(٤) سورة الزمر آية ١٨ .



الشعراء الفرسان في الجاهلية وصدر الإسلام

تمهيـــد

تعريف بالفروسية :

وردت للفروسية في معاجم اللغة العربية التعريفات الآتية :

أولاً : المصباح المنير [١] :

الفرس يقع على الذكر والأنثى فيقال هو الفرس وهي الفرس ، والفارس الراكب على الحافر فرسا كان أو بغلًا أو حماراً .

قال ابن السكيت يقال (مـرّ بنا فـارس على بغل وفـارس على حمار) . وفي التهذيب : فارس على الدابة بين الفروسية قال الشاعر :

وإني امــرؤ للخيـل عنــدي مـزيــة   على فـارس البرذون أو فـارس البغل

وجمع فارس فرسان وفوارس وهو جمع شاذ .

ثانياً : ترتيب القاموس [٢] :

الفراسة بالكسر اسم من التفرس وبالفتح الحذق بركوب الخيل وأمرها .

---

(١) المصباح المنير ـ الفيومي ـ تصحيح السقا ـ مطبعة البابي الحلبي جـ ١ ، ٢ .

(٢) ترتيب القاموس ـ الطاهر أحمد الزاوي جـ ٢ ـ عيسى البابي الحلبي .

ثالثاً : المعجم الوسيط[1] :

فرس فراسة وفروسة وفروسية : حذق أمر الخيل وأحكم ركوبها ، فهو فارس بالخيل ، والفارس : الماهر في ركوب الخيل وجمعها فوارس وفرسان ، والفرسان في الجيش المحاربون على ظهور الخيل ، والفرس واحد الخيل للذكر والأنثى وجمعها أفراس وفروس .

رابعا : المنجد :

فراسة وفروسة وفروسية : إذا كان حاذقا في ركوب الخيل .

الفارس وجمعها فرسان وفوارس : هم ركاب الفرس أو صاحب الفرس ، والفرس حيوان أهلي يقع على الذكر ، ويقال له أيضا الحصان كما يقع على الأنثى ويقال لها حجر وربما قالوا فيها فرسة (باب الفاء) .

خامسا : لسان العرب :

حرف السين فصل الفاء جـ ٧ ـ ٨ ص ٣٨ .

الفرس : واحد الخيل والجمع أفراس الذكر والأنثى فيه سواء .

والفارس : صاحب الفرس على إرادة النسب ، والجمع فرسان وفوارس وهو مثل ضوارب وحوائط في جمع ضارب وحائط .

والمصدر الفِراسة والفُروسة ، والفَراسة بالفتح مصدر قولك رجل فارس على الخيل ، ويقول الأصمعي : يقال فارس بين الفروسة والفراسة والفروسية وإذا كان فارسا بعينه ونظره فهو بين الفراسة بكسر الفاء ، ويقال إن فلانا ذو فراسة بذلك الأمر ، إذا كان عالماً به ويقال في الحديث الشريف :

« اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله » .

وقد فرس فلان بالضم يفرس فروسة وفراسة إذا حذق أمر الخيل ،

---

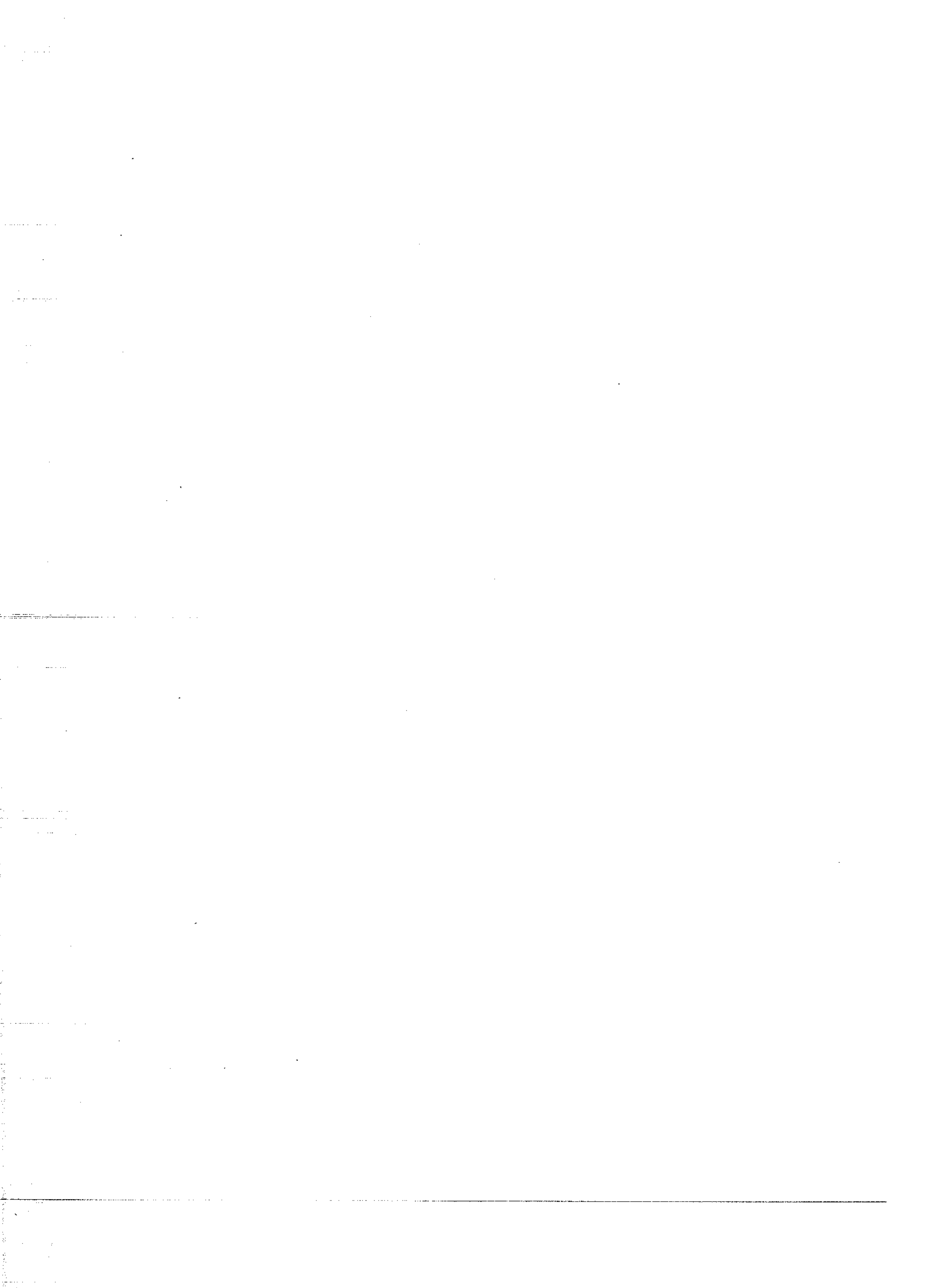
(١) المعجم الوسيط جـ ٢ حرف الفاء .

قال : وهو يتفرس : إذا كان يرى الناس أنه فارس على الخيل ، وفي الحديث عن رسول الله ﷺ : « أنا أفرس بالرجال » . يريد أبصر وأعرف ، يقال رجل فارس بين الفراسة والفروسة في الخيل وهو الثبات عليها ، والحذق بأمرها ، ورجل فارس بالأمر عالم بصير ، وفي الحديث الشريف : (علموا أولادكم العوم والفِراسة) والفراسة بالفتح العلم بركوب الخيل وركضها من الفروسية .

والفارس الحاذق بما يمارس من الأشياء كلها ، وسمي بها الرجل فارسا ويقول ابن الأعرابي : فارس في الناس بين الفراسة ، بكسر الفاء وفتحها وعلى الدابة بين الفروسية والفروسة لغة فيه والفراسة بالكسر الاسم من قولك تفرست فيه خيراً وتفرس فيه الشيء توسمه .

والاسم الفِراسة بالكسر ، وفي الحديث الشريف : « اتقوا فراسة المؤمن » .





أهم مرابط الخيل في الجزيرة العربية

حدثني من أثق به ، وأعول عليه في معرفة الخيل وأصولها ، ونظراً لاقتنائه خيارها وعتاقها والأصيلة النسب والشهرة منها ، الأخ الكريم والصديق الجليل والعالم الفاضل والفارس المغوار صاحب السمو الأمير محمد بن سعود الكبير آل سعود وهو الذي رافق جلالة المغفور له الملك عبد العزيز طيب الله ثراه حيث كان فارساً مقداماً من فرسان الملك عبد العزيز في توحيد الجزيرة العربية ؛ أن أهم مرابط الخيل في جزيرة العرب هي :

أولاً : مرابط الخيل في نجد :

١ ـ الخيول الحمدانيات السمريات :

وهذه الخيول تعد من أكبر بيوتات الخيل في نجد ، وكان مكانها في السابق عند قبيلة (الظفير) ، وهي الآن موجودة عند قبيلة حرب ، ويوجد منها في العراق وتسمى حمدانية ابن غراب ، ويوجد منها عند قبيلتي حرب ومطير ، وهي الآن توجد بكثرة لدى الحكومة السعودية .

٢ ـ خيول « كحيلات عجوز » وهي خيول أصيلة وفروعها :

أ ـ العافصية : نسبة إلى ابن عافص الذي يظن أنه من بني خالد .

ب ـ الكحيلة الحذلية : وهي خيول أصيلة مشهورة بالشجاعة والقوة ، ويتفرع من كحيلات عجوز فروع عديدة منتشرة في جزيرة العرب .

٣ ـ العبية الشراكية : ومكان هذه الخيول في قلب بلاد العرب في عنيزة ، حيث درجت إلى سبيع عند الصيفي ، ويتفرع من هذه الخيول الخبيزية .

٤ ـ الخيول الصقلاوية القدراوية : ويتفرع منها الخيول الوابرية ، وقد قيل إن أبا هذه الخيول غير أصيلة .

٥ ـ الخيول الشوافات ، وتوجد هذه الخيول عند آل منديل من بني خالد بالمنطقة الشرقية وتوجد كذلك في البحرين .

٦ ـ الصوتيات عند قبيلة حرب بنجد :

وتوجد من هذه الخيول أنواع أصيلة عديدة عند قبائل عجمان وآل مرة ، وقبائل أهل نجد كقيس وأسد وعنزة وسبيع والدواسر ، على أن هذه الخيول الأصيلة المذكورة هنا فروع للخيول السابقة من الحمدانيات السمريات والكحيلات والعبيات .

وقد سميت هذه الخيول بأسماء خاصة عند القبائل المنسوبة إليها ، مثل خيول ربلان التابعة لآل مرة ، ومثل كحيلة العجوز عند العجمان بنجد . وكان هناك أسماء لجياد يضرب بها المثل الأعلى في الشجاعة والإقدام مثل حصان حطيور وحصان شنينة وحصان دهيمان وهو حصان ابن منيخير .

وهناك خيول عربية عريقة النسب تنسب إلى أوطانها بغير أسمائها الأولى .

أما اسم فرس جلالة المغفور له الملك عبد العزيز آل سعود فهو منيفة ، وهو من أشجع الخيول العربية في الجزيرة العربية ، وقد قاد عليه معظم حروبه في توحيد هذه الجزيرة بعد شتاتها ، وكان أحمر اللون . وقد استخدم

الملك عبد العزيز عدة جيادٍ أخرى غير فرسه منيفة ، حيث كانت تعينه على الكر والفر في الحروب في أثناء توحيده لجزيرة العرب ، والقضاء على خصومه والانتصار عليهم .

٧ ـ الكروش : وهذه خيول أصيلة تنسب إلى نجد وصاحبها يسمى الغندور من بني خالد بالمنطقة الشرقية ، وقد آلت هذه الخيول إلى شيخ من شيوخ القبائل العربية يسمى الدويش .

خيول الخليج :

معظم الخيول التي توجد على أطراف الجزيرة العربية بالمنطقة ترجع إلى أصل نجدي ، وهذه الخيول هي :

أولاً : الحرقا ، وهي فرس ابن حميد بالخليج العربي شرقا .

ثانياً : الجلابيات ومربطها الأصيل في نجد ثم انتقلت إلى المنطقة الشرقية .

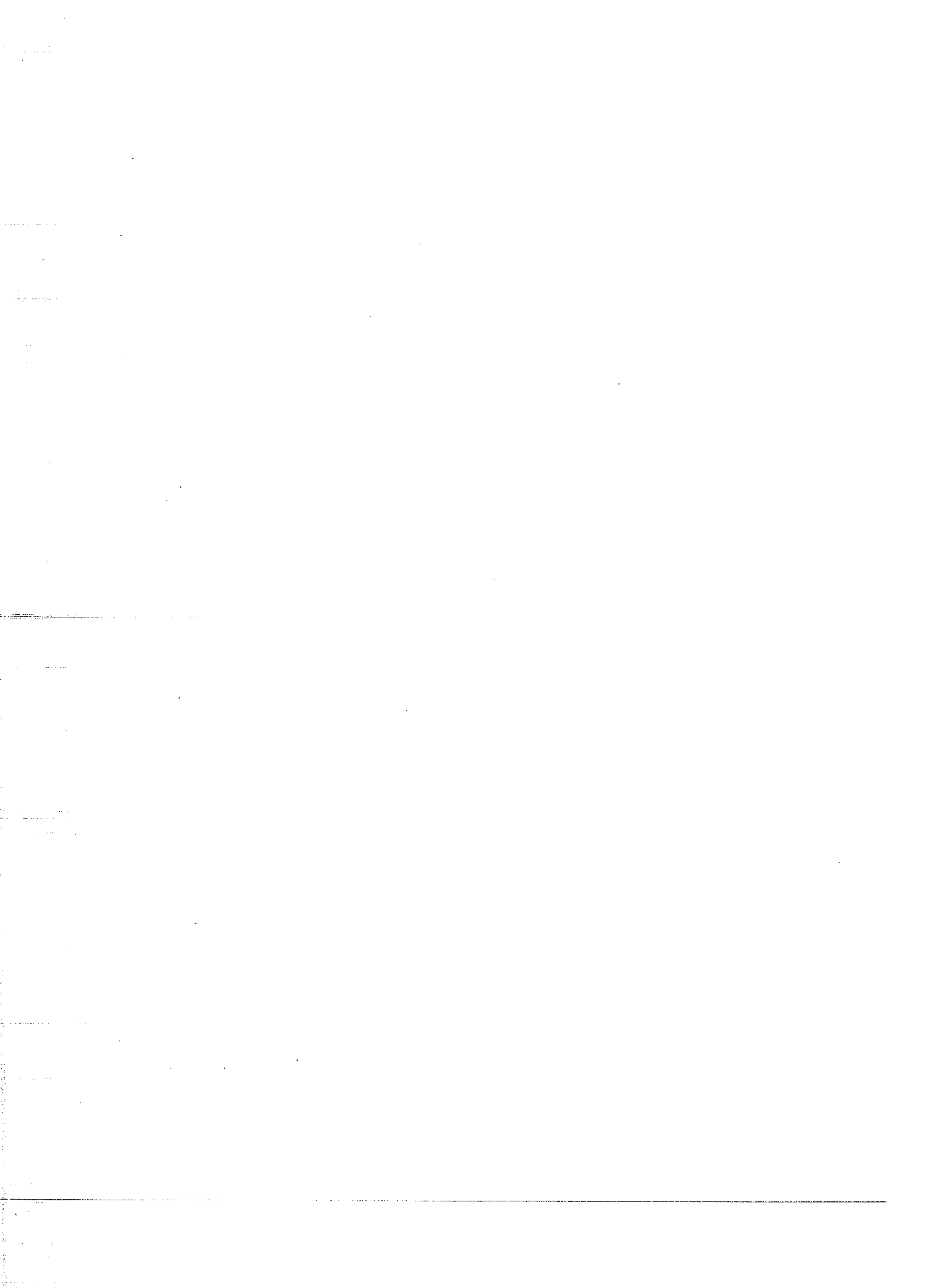
ثالثاً : خيول الجوازي ومربطها حالياً على الخليج ، وكان أصلها في نجد ، على أن هذه الخيول الأصيلة كانت سلاحا لا غنى عنه للعرب في حروبهم داخل الجزيرة العربية أو في خارجها .

وهناك روايات تؤكد أن الخيول الموجودة في العالم حالياً كان أصلها من الجزيرة العربية .

ويذكر علامة الجزيرة العربية الأستاذ حمد الجاسر أنه رأى بأمريكا خيولا شديدة الشبه والتقارب مع الخيول في الجزيرة العربية عند زيارته لولاية ميرلاند حيث شاهد جيادا عربية أصيلة أتت من بلاد العرب[١] .

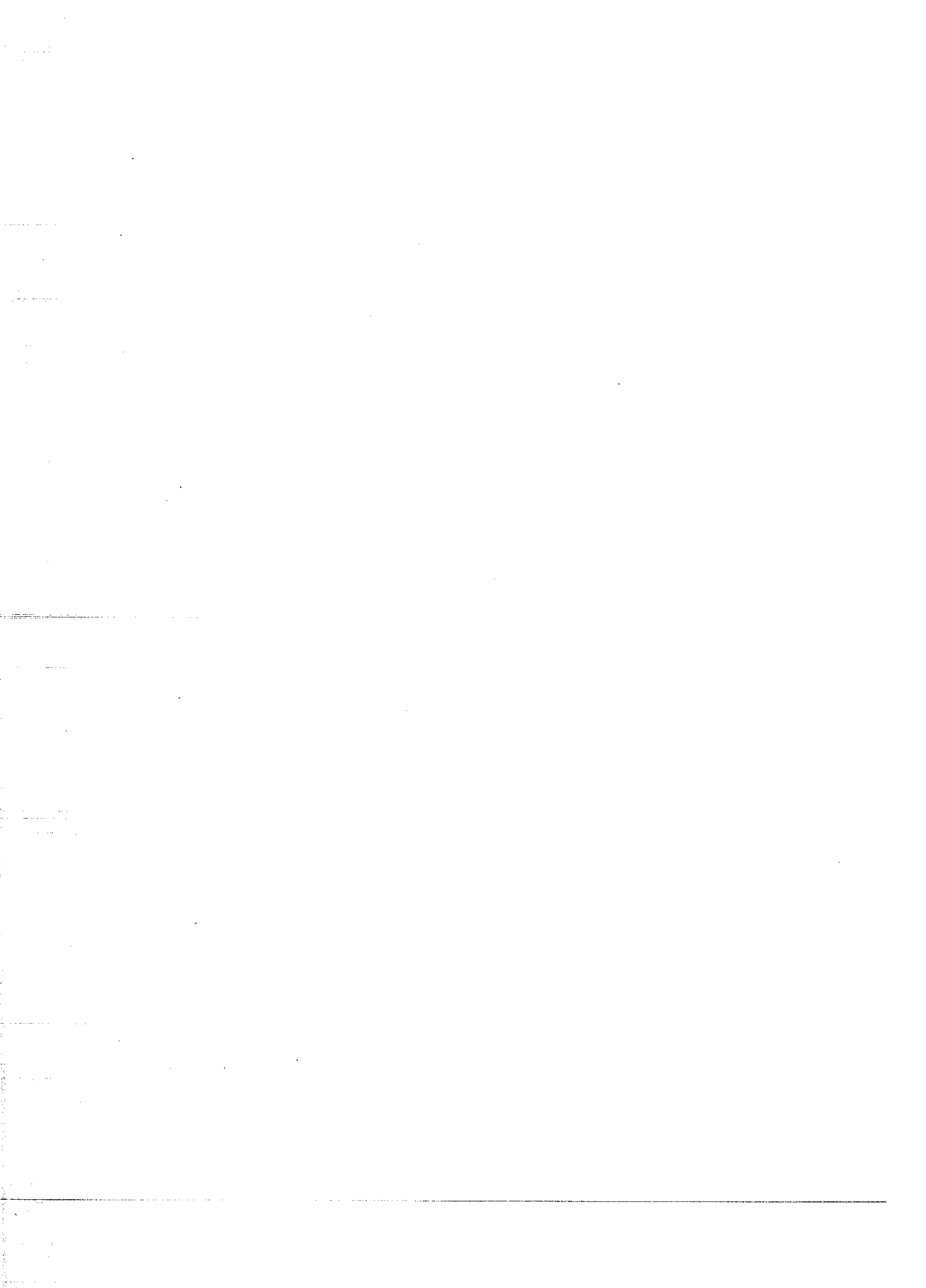
---

(١) مجلة الحرس الوطني العدد السادس عام ١٤٠١ هـ .



(الفصـل الأول)

الفروسية وخصائصها في العصر الجاهلي



الفروسية
بواعثها وخصائصها في العصر الجاهلي وصدر الإسلام

اقتضت ظروف الحياة القاسيةفي جزيرة العرب،والتي كان فيها الناس في حروب متواصلة بين قبائلهم العديدة ، أن يكون للبطولة والأبطال شأن عظيم ، ودور بارز ، وأهمية بالغة ، ذلك أن البطل في قبيلته كان يعد نسيجاً وحده ، حمايةً لشرف القبيلة المتأصل في نفوسهم ، ورداً لاعتداءات متكررة من قبائل أخرى ، لا تعرف إلا الغزو أو الاستعداد للغزو ، كل ذلك بحكم هذه الظروف التي فرضت على جزيرة العرب القاحلة الجدباء من أجل الاستيلاء على مواطن الكلأ والعشب والماء . وهكذا فالحروب لا تنقطع بتاتا بين هذه القبائل العربية ويصدق عليهم قول الشاعر :

وأحْيَاناً على بَكْرٍ أَخِينا   إذا مَا لَمْ نجدْ إلا أَخَانا

وكان لكل قبيلةنظراً لهذه الظروف فارس مغوار،به تحمي الذمار ويمنع العار ، وتسود الكرامة والعزة لهذه القبيلة وتهيمن أعراف معينة قسراً وعنوةً ؛ من حيث الأسر والفداء والمن . وكانت القبيلة القوية والمنتصرة تفتخر بأن لها الكلمة العليا ، وأن القبائل الأخرى ترهبها وتخشاها . . يقول عمرو بن كلثوم :

ونشـربُ إنْ وَرَدْنَـا المـاءَ صَـفْـواً ويشـربُ غيـرنـا كـدراً وطينـا[1]
إذا بـلغَ الـفـطامَ لـنـا رضيـعٌ تخـرُ لـه الجبـابرُ سـاجـدينـا
مـلأنـا الـبـرَّ حتى ضَـاقَ عَـنَـا ومـاء الـبـحـرِ نمـلأه سَفِـينـا

وكانوا لا يبالون إن كان موقفهم بجانب الحق أو الباطل ، بل كانوا يرون أن القوي هو الذي تخشى جوانبه يقول الشاعر :

تعدو الـذئـابُ على من لَا كِلابَ لـه وتتقي صـولـةَ المستـأسـدِ الضَـاري

ويقول زهير بن أبي سلمى في هذا المعنى :

ومن لا يـذدْ عن حـوضِـهِ بِسـلَاحِـهِ يهدمْ وَمْن لا يظلمِ النـاسَ يُظلمِ[2]

بل زاد الأمر لديهم عزة وأنفة ، أنهم لم يكونوا يملكون الأناة في اتخاذ القـرار العادل الحكيم لدخول الحرب وسرعان مـا يدخلون هـذه الحرب عند حدوث أتفه الأسباب وأقل البواعث ، يقول شاعرهم قريط بن أنيف :

قـومٌ إذا الشـرُّ أَبـدى نـاجـذيـه لهم طـاروا إليـه زرافـاتٍ ووحـدانـا[3]
لا يسـألـونَ أخـاهـم حِيَن يَنْـدُبُهم في النـائبـاتِ على مـا قَـالَ بُـرهَـانَـا

ومن هـذا المنطلق كـان للفارس المنزلة العـظيمة ، والمكانة البـارزة ، والدور المشرف ، وقاية للقبيلة من الأخطار . وكثيراً ما كانت القبيلة تلجأ إلى الفارس وتشـد رحالهـا إليه عنـد الخطوب . . يقـول الفارس الملحمي عنتـرة بن شداد العبسي :

(١) المعلقات السبع للزوزني ـ معلقة عمرو بن كثلوم ص ١١٨ .
(٢) المعلقات السبع للزوزني معلقة زهير بن أبي سلمى ص ٧٣ .
(٣) حماسة أبي تمام ص ٤ والأبيات لقريط بن أنيف .

هَلَّا سألتِ القومَ يا ابنةَ مالكٍ إنْ كَنتِ جاهلةً بما لم تَعْلمي[1]
يخبِرْكِ من شهدَ الوقيعةَ أَنني أغشى الوغَى وأعفُّ عند المغنمِ
ومدجج كَرِةَ الكماةُ نزالَهُ لا ممعنٍ هرباً ولا مستسلمِ
جادتْ يداي لـه بعاجلِ طِعنةٍ بمثقفٍ صدقِ الكُعوبِ مقوّمِ

ومن كل هذا الذي مر بنا نجد أن الفارس كان بمثابة الركن الركين ، والحصن الحصين في الذود عن القبيلة ورفع ذكرها ونشر فضائلها ، ومما يروى من أخبارعرب الجاهلية أنهم كانوا لا يفتخرون إلا بميلاد طفل أو ظهور شاعر .

وبالإضافة إلى عناية القبيلة بشأن الفارس كانت عنايتهم كذلك بالخيل حيث كانت الوسيلة الرئيسية في الحروب العربية ، وفي الغزو والظفر وكثيرا ما نجد ارتباط الفارس بالخيل ،وهذه الخنساء شاعرة الرثاء العربية تقول في رثاء أخيها صخر :

يَا لَهفَ نفسي على صَخْرٍ إذا ركبتْ خيلٌ لخيلٍ كأمثالِ اليعافيرِ[2]

وقد بين الله تعالى فضل الخيل ودورها العظيم بقوله : ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم ، وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم ، وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون ﴾[3] .

وقد امتدح رسولنا ﷺ الخيل ، وأوصى بالعناية بها فقال « الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة »[4].

---

(١) المعلقات السبع للزوزني ـ معلقة عنترة بن شداد ص ١٣٧ .
(٢) أشعار الجاهليين للأعلم ص ١١٨ .
(٣) سورة الأنفال آية (٦٠) .
(٤) متفق عليه . المعجم المفهرس للحديث ٢/١٠٥ .

وعن أنس رضي الله عنه قال : « لم يكن شيءً أحبَّ إلى رسول الله ﷺ بعد النساء من الخيل »[1] .

وهذا من أجل التقدير لهذا الحيوان الكريم في اتخاذه وسيلة مهمة من وسائل الحرب كراً وفراً .

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال ، قال رسول الله ﷺ (ما من فرس عربي إلا يؤذن له عند السحر بكلمات يدعو بهن : اللهم خولتني من خولتني من بني آدم وجعلتني له ، فاجعلني من أحب أهله وماله إليه »[2] .

وقد أقسم جل وعلا بالخيل في إحدى سور القرآن الكريم فقال تعالى : ﴿ والعاديات ضبحاً فالموريات قدحاً ، فالمغيرات صبحاً ﴾[3] فالقسم هنا تقدير من الله تعالى للخيل تعدو في سبيله والضبح صوت في أجوافها عند جريها ، والموريات توري النار بحوافرها عندما تصك الحجارة ، فالمغيرات صبحاً كانت المعارك تبدأ في الصباح الباكر ، فأثرن به نقعاً ، فالنقع الغبار تثيره الخيل عند عدوها ، ومن وجوه العناية بالخيل ارتباطها والعناية بها والحرص على سلالاتها الأصيلة ، وإيثارها بالزاد ، وفي ذلك فيما يرويه أبو وهب الجشمي . . قال : قال رسول الله ﷺ : « ارتبطوا الخيل وامسحوا بنواصيها وأنعالها وقلدوها ولا تقلدوها الأوتار »[4] . من هذه الأنوار الكريمة نرى بوضوح مدى حرص الإسلام على الخيل في ذلك العصر الذي كان فيه الفارس مع فرسه خير معوان على تحقيق النصر في المعارك . وقد نطق كثير من شعراء الجاهلية بهذا الظاهرة وذكروها في أشعارهم .

---

(١) رواه النسائي في سننه والمعجم المفهرس للحديث ٢/١٠٤ .

(٢) رواه النسائي في سننه وأحمد بن حنبل والبخاري . المعجم المفهرس للحديث ٥/١٠٣ .

(٣) سورة العاديات (الآيات ١ ، ٢ ، ٣) .

(٤) سنن أبي داود والنسائي ـ المعجم المفهرس للحديث ٢/١٠٤ .

يقول امرؤ القيس بن حجر الكندي :

الخيرُ ما طَلَعَتْ شمسٌ وما غربتْ — معلقٌ بنواصي الخيلِ معصوبُ[1]

ومن يطالع معلقة امرىء القيس فإنه يجد أن هذا الشاعر كان يتخذ فرسه رفيقاً له في أسفاره وغزواته في الغدو والرواح ـ يقول امرؤ القيس :

وقد أغتدى والطيرُ في وُكُناتِها — بمنجردٍ قيدِ الأوابدِ هَيْكَلِ[2]

وكان من مظاهر اعتزاز العرب بالفرسان والخيل أنهم تباهوا بهم في أنديتهم وفي أشعارهم وربما كان يعقرون ويذبحون على قبورهم بعد موتهم . وهذا حسان بن ثابت شاعر الرسول يشيد بذكر الفارس ربيعة بن مكدم ، الذي كان العرب يحبونه حيا وميتا ـ يقول حسان[3] :

نَفَرتْ قُلوصي من حجارةِ حرةٍ — بُنيتْ على طَلْقِ اليدين وَهُوبِ
لا تنفري ياناقُ عنه فإنَّهُ — شريَبُ خمرٍ مسعرٌ لحروبِ
لولا السفارُ وطولُ قفرِ مهمهٍ — لتركتها تحبو على العُرْقُوبِ

وكان ربيعة بن مكدم من بني فراس بن غنم بن كنانة ، وهي قبيلة من أنجد قبائل العرب ، كان الرجل منهم يعدل عشرة من غيرهم ، وفيهم يقول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه لأهل الكوفة : من فاز بكم فقد فاز بالسهم الأخيب أبدلكم الله من هو شر لكم وأبدلني بكم من هو خير منكم وودت والله أن لي بجميعكم وأنتم مائة ألف ثلاثمائة من بني فراس بن غنم[4] .

ومن مظاهر عناية العرب بالفرس أنهم لم يحتقروه ولم يزدروه بل أعطوه

---

(١) محاضرات الأدباء ٢/٦٣٥ .
(٢) معلقة امرىء القيس ـ المعلقات السبع .
(٣) العقد الفريد ١/١١٧ .
العقد الفريد ١/١١٦ .

حنانهم وبرهم بإيثار بالزاد وتقديمه على الأبناء . ومما يروى عن الرسول الله ﷺ أنه (مرغ فرسا له ثم جعل يمسحه بردائه ، فقيل له في ذلك . . فقال بت الباحة وجبريل يعاتبني في سياسة الخيل)[1] .

وهذا من أشكال العناية الفائقة بالفرس من حيث إظهاره بشكل حسن . ويقال كانت العرب لا تهنىء إلا بثلاث : إذا ولد للرجل ذكر قيل له ليهنك الفارس ، وإذا نبغ في الحي شاعر قيل ليهنك من يذب عن عرضك ، وإذا نتج مهر مثيل له ليهنك ما تطلب عليه الثار . وليس هناك أمة تعنى بالخيل وتحرص عليه عناية العرب بها ، ولم تكن أمة أشد عجبا بالخيل من العرب .

وفي هذا يقول الجاحظ : (لم تكن أمة قط أشد عجبا بالخيل ولا أعلم بها من العرب ، ولذلك أضيفت إليهم بكل لسان ونسبت إليهم بكل مكان فقالوا فرس عربي ولم يقولوا هندي ولا رومي ولا فارسي)[2] .

وقد استأثر الفرس بحب العرب حتى إنهم فضلوه على أعز ما يملكون ، فضلوه على نسائهم وأبنائهم . ومما يمكن أن يحكى أن الحجاج بن يوسف الثقفي عرض أفراسا وجواري بين يدي أعرابي ، وخيره بين فرس وجاريه ، فقال الأعرابي :

لصلصلةُ اللجامِ برأس طَرْفٍ ... أحبُّ إليَّ من أن تَنكِحيني[3]
أخافُ إذا حللنا في مضيقٍ ... وجدَّ الركضُ أنْ لا تَحمليني

---

(١) محاضرات الأدباء ـ الراغب الأصبهاني ٢ / ٦٣٥ .
(٢) نفس المصدر ٢ / ٦٣٦ .
(٣) محضرات الأدباء ٢ / ٦٣٤ .

« بعض خصائص الفروسية في العصر الجاهلي »

وجدت بعض خصائص معينة للفروسيـة التي كان يعتـز بها الفـارس في العصر الجاهلي ، والتي طبعت شخصيات هؤلاء الفرسان بطابـع معين واضح وهذه الخصائص هي :

أولاً : عدم الفرار من الميدان :

حـرص كل الفـرسان العـرب على عدم الفـرار من الميدان مهمـا كانت النتـائج ، واعتبـروا ذلك من دلائـل الشجـاعـة والإبـاء . من ذلـك مـا يقـولـه عمرو بن الإطنابة الخزرجي :

أَبَـتْ لـي عِـفَّـتِـي وأَبـى إبـائـي ... وأخـذيَ الحمدَ بـالثمنِ الـربيـحِ[1]

وإعـطائي على الـمعـسـورِ مَـالِي ... وضَـربي هـامـةَ البطلِ المُشيـحِ

وقَـولي كلمَّـا جشـأتْ وجـاشتْ ... مكـانـكِ تُحْمـدي أو تَستـريحي

لأدْفَـعَ عـن مكـارمَ صـالـحـاتٍ ... وأحمي بعـدُ عن عِـرْضٍ صَحِيـحِ

فالنفس العربية الأبية تأبى الفرار من الميـدان ، ويفتخر الفـارس بأنـه لا يواجه إلا الأبطال ، ويترك الجبنـاء غير القـادرين على المواجهـة ، ثم إن هذا الموقف الذي يتطلب الصبر والمجالدة فرصة لنيـل المديـح والذكـر الحسن . وقيل إن هذه الأبيات استشهد بهـا معاويـة بن أبي سفيان أثنـاء حربـه مع أميـر المؤمنين علي بن أبي طالب ، وحالت دون هربه من الميدان . وقد كان حب المـوت والاستهانـة بالحيـاة من أهم ما يعتـز بـه الفـارس يقول أعشى قيس بن ثعلبة :

أَبـا لمـوتِ خشَّتني عُبـادُ وإنَّـمـا ... رأيتُ مَنـايا النـاسِ يسعى دليلُهـا[2]

---

(١) حماسة البحتري الباب الأول ص ٩ .

(٢) نفس المصدر ص ٩ .

فمـا ميتـةٌ منهـا غيـرُ عـاجـزٍ بعارٍ إذا ما غـالت النفسَ غُولهُـا

وقـد ذم العرب الفـرار وعيروا بـه الهاربين من الميـدان لأن ذلـك دليـل الجبن والخوف ، وفي هذا المضمون يقول كعب بن مالك الأنصاري[1] :

ونحن أنـاسٌ لا نـرى القَتْـلُ سبـةً على أحـدٍ يحمي الـذمـارَ ويمنـعُ
ولكننـا نَقْـلي الفـرارَ ولا نـرى م الفـرارَ لمن يـرجـو العـواقبَ ينفـعُ

فالاعتزاز بالغ الذروه في هذه الأبيات ، وهي تظهر مدى حـرص العرب وكـذا الفرسـان بخاصـة على الثبات ، والفـرار شنـار وعـار يعجـل بـالنتـائـج الوخيمة ، والصراع والثبات رمز للبطولة الحقة . . . يقول عنترة[2] :

وَمُـدَجَّـجٍ كـره الـكمـاةُ نِـزَالَـهُ لا مـمعـنٍ هَـرَبَـاً ولا مُـسـتـسلمِ
فـطعـنتـهُ بـالـرمـحِ ثـم علوتُـهُ بمهنـدٍ صـافي الحـديـدةِ مُخْـذِمِ
بـطلٌ كـأن ثـابـه فـي سـرجـةٍ يحـذي نعـالَ السبتِ ليس بتـوأمِ
لمـا رأيتُ الـقـوم أقبـلَ جـمعـهُم يتـذامـرونَ كـررتُ غيـرَ مـذممِ
يـدعـون عنتـرَ والـرمـاحُ كـأنَّهـا أشـطانُ بئـرٍ فـي لـبـانِ الأدهـمِ

فاللقاء هنا لقاء أبطال وصراع أقران وعراك بين رجـال أشداء دون مبـالاة بالنتائج سلباً وإيجـاباً . ورغم أن بعض الفـرسان كـان يتنبأ بـوقوع هـزيمة في المعـركة إلا أنهم كـانوا ثـابتي الجأش شجعـاناً ، بـل ربما كـان وجـودهم في المعركة يزيد الجنود الآخرين حماسة وبسالة بالبقاء في سـاحة الـوغى ، تقول امرأة من عبد القيس[3] :

أَبَـوْا أن يفـروا والقَنـا في نُحورِهم ولم يبتغـوا من رهبـةِ المـوتِ سُلَّمـا
ولـو أنـهـم فـروا لـكـانـوا أَعِـزةً ولكن رأوا صبـراً على الموت أكـرَما

---

(١) المعلقات السبع للزوزني ص ١٥١ .
(٢) حماسة البحتري ص ٣٧ .
(٣) حماسة البحتري ص ٣٧ .

فالعزة والشرف جميعاً تتجلى في الثبات والصلابة وحسن المصابرة في الجلاد والطراد والعراك . وقد أكد رسول الله ﷺ هذا المعنى وحذر في حديث شريف من الفرار وعده من الكبائر حتى إن الله تعالى أمر المسلمين في حروبهم أن يثبوا ويواجهوا أعداءهم ببسالة فيقول : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الأدبار ، ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال أو متحيزاً إلى فئة ، فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير ﴾[1] .

وفي هذا المضمون يقول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه محذراً من الفرار[2] :

من أيّ يوميَّ من الموتِ أفر	أيوّمَ لَمْ يُقدرْ أم يوّم قُدِرْ

ثم يقول كذلك في موضع آخر[3] :

أعليَّ تقتحمُ الفوارسُ هكذا	عني وعنهم خبّروا أصحابي
اليومَ تمنعني الفرارَ حفيظتي	ومَهندٌ بالكفِ ليس بِنَابِ
إلى ابن عبدٍ حينَ شدَّ إليه	وحلفتُ فاستمعوا من الكذابِ
ألا أصرد ولا أَهللَ فالتقى	بطلان يضطربانِ كلَّ ضرابِ
فصددت حين تركته متجدلاً	كالجذع بين دكادك وروابي
وكففت عن أثوابه ولو أنني	كنت المجدل بزني أثوابي

من هذه الأبيات التي مرت نرى أن الفرسان العرب جاهلية وإسلاماً كانوا يمقتون الفرار ، ولا يرضونه بحال من الأحوال ، لأن الفرار من المعركة

---

(١) سورة الأنفال (آية ١٥ ، ١٦) .

(٢) حماسة البحتري ص ٣٧ .

(٣) نفس المصدر ص ٣٨ .

ذل وخسة وعار ، بل إنه سبة الدهر ودليل الغدر . ومما يروى أن الخليفة أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال لخالد بن الوليد : (احرص على الموت توهب لك الحياة) .

ثانياً : استعذاب الموت واستطابته عند الحرب :

من الخصائص البارزة للفرسان في الجاهلية وصدر الإسلام استعذاب الموت والترحيب به ، والرغبة فيه ـ لأن في ذلك رفعاً للحق ، ودفعاً للباطل ، وايماناً صادقاً ببذل الأرواح بكل بشاشة وكان الفرسان يتسابقون إلى الموت في ساخات الوغى غير مبالين بالنتائج فالموت والحياة عندهم سواء . وهذا شاعر جاهلي يتغنى في قصيدة له بحب الموت وبتعيير بعض القبائل الأخرى بكراهيتها له والنفور منه .

يقول السموأل بن عاديا :

وإنا لقومٌ ما نرى القتلَ سبةً ... إذا ما رأتهُ عامرٌ وسلولُ[1]

يقرب حبُّ الموتِ آجالَنا لنَا ... وتكرههُ آجالُهُم فتطولُ

وما ماتَ منا سيدٌ حتفَ أنفِه ... ولا طَلَّ منا حيثُ كان قتيلُ

تسيلُ على حدِّ الظُّباتِ نفوسُنا ... وليست على غيرِ الظُّباتِ تسيلُ

فإننا هنا أمام قيم رفيعة من الإباء عن الضيم ، وهذا يرجع في أصوله وجذوره إلى اعتزاز العرب بالقتل في الميدان ، وقد كان شعار (احرص على الموت توهب لك الحياة) حكمة لدى الكثير من الفرسان . وقد توارث السيادة فيما بعد الفرسان الصغار عن الكبار .

وتسود أشعار هؤلاء الفرسان قيم أخرى غير الشجاعة وهي الكرم وتعويض أهل القتلى بدفع الديات والشعور الجماعي الذي يشعر به الفرد أنهم

---

(١) حماسة أبي تمام ١/٢٩ .

لا يبكون عند حدوث المصائب على القتلى بل إن هؤلاء رمز للشرف والتضحية وقد ذكر هذه المعاني الشاعر الفارس بشامة بن حزن النهشلي حيث يقول [(١)] :

وليسَ يَهلكُ منا سيدٌ أبداً	إلا افْتَلينَا غُلاماً سيداً فينا
إنا لنرخِصُ يومَ الروعِ أَنفسَنا	ولو نُسامُ بها في الأَمنِ أُغلينا
بيضٌ مفارقُنا تَغلي مراجلنُا	نأسو بأَموالِنا آثارَ أَيدينا
لو كان في الأَلف منا واحدٌ فدعوا	مَنْ فارسٌ خالَهُمْ إياه يعنونا
إذا الكماه تنحّوا أن يصيبَهم	حدُّ الظباتِ وصلناها بأَيدينا
ولا تراهم وإنْ جلّت مصيبتُهم	مع البكاةِ على من ماتَ يبكونَا

فالجمال الأدبي الساحر والبيان البديع والذوق الشامخ في هذه الأبيات يظهر في أن هؤلاء الفرسان كانوا في ذروة الشجاعة وفي حب منقطع النظير للموت ، وقلما نجد هذا عند أمة من أمم الأرض ، ولا شك أن طبيعة البلاد التي نشأ عليها أولئك الفرسان العرب ، وما فطروا عليه من حب الحرية وعشق العزة القومية والرغبة الأصيلة في عدم سيطرة أحد عليهم كانت من أسباب هذه الخاصة الفريدة . حتى إن الفرسان المسلمين فيما بعد قد اعتدّوا بهذه الخاصة المحببة وهي الاستهانة بالموت وكراهية الحياة الذليلة ، كل ذلك من أجل تثبيت دعائم الحق والخير والعدل ، وهذا زعيم من زعماء الخوارج يقول في حث الخوارج على الموت لإحقاق حق وإبطال باطل ، وقد استلهم قطري بن الفجاءة هذا من القرآن الكريم حيث يقول الله تعالى : ﴿ أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة ﴾[(٢)] .

يقول قطري مستلهماً هذا المعنى الكريم :

---

(١) حماسة أبي تمام ١/ ٢٧ .

(٢) سورة النساء آية ٧٨

أقـولُ لهـا وقــد طـارَتْ شَعـاعـاً　　من الأبـطالِ ويحكِ لَنْ تُـراعي[1]
فـإنَّـك لـو سـألـتِ بـقـاءَ يـومٍ　　على الأجـلِ الذي لـك لَنْ تُطاعي
فصبـراً في مجـالِ المـوتِ صبـراً　　فمـا نيـلُ الخَلودِ بـمسـتـطـاعِ

فقطري بن الفجاءة يرى أن الحياة فانية لا بقاء لها ، ومن هنا كان الخوارج يتفانون ويستميتون في المعارك بشكل لا نجد مثله أبدا ، وصمدوا بكل شجاعة بصرف النظر عن مبادئهم الخاطئة في تكفير المسلمين ، وقتال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وغيرهم من خلفاء بني أمية وقوادهم قتالا لا هوادة فيه ولا رحمة .

وقد اتخذ الفارس الخيل رفيقا لا غنى عنه في خوض المعارك كرّاً وفرّاً ، حتى يبدو للقارىء أن الفارس وفرسه شيء واحد في تلازم لا انفصام بينهما بتاتا بل هما شيء واحد . . وهذا شاعر يفصل الحديث في هذا الأمر ، يقول وداك بن ثميل المازني[2] :

رويـدَ بني شيبـانَ بعضَ وعيـدِكم　　تـلاقـوا غـداً خَيلي على سَفْـوانِ
تـلاقـوا جيـاداً لا تحيـدُ عن الـوغَى　　إذا مـا غَـدت في المـأزق المتـداني
عليهـا الكمـاةُ الغـرُّ من آل مـازنٍ　　ليـوثُ طعـانٍ عـنـدَ كـلِّ طَعـانِ
تـلاقـوهم فتعـرفـوا كيفَ صَبـرُهم　　على مـا جَنَتْ فيهم يـدُ الحـدثـانِ

فإننا نرى هنا التلاحم بين الفارس المغوار والحصان الذي هو عدة القتال في الكرّ والفرّ واقتحام الصعاب عند اشتداد المعركة واصطدام القنا والتحام الأقران .

---

(١) حماسة أبي تمام ١ / ٢٤ .

(٢) حماسة أبي تمام ٤ / ١ .

ثالثاً : العصبية القبلية :

كانت العصبية القبلية أهم خاصية من خصائص الفروسية في العصر الجاهلي ، ذلك أن هناك التزاماً جبرياً من الفارس لحماية القبيلة والذود عنها حقا أو باطلاً ، وقد كان شعارهم في العصر الجاهلي (انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً) حتى جاء الإسلام وهذب هذه الحماسة غير المقيدة إلى حماسة إيجابية بناءة هادفة راشدة تتفق مع العقل والذوق الأصيل للإنسان ، ومما يروى لرسول الله ﷺ . . أنه قال[1] « انصر أخاك ظالما أو مظلوماً » .

وكانت أكثر الحروب تحدث في الجاهلية لأتفه الأسباب ، مما يزيد هذا الحروب ضراوة وعنفا بين القبائل ، ولا تهدأ الأحوال حتى يقتل شيوخ وأطفال وتسبى النساء ، وذلك لانعدام الأناة والتروي في اتخاذ القرار الحكيم في هذه الحروب . وسرعان ما يلبون نداء الحرب ظلما أو عدلا وربما كان هناك لوم من بعض أفراد القبيلة على من يرضى بالصلح ويقبل إيقاف نزيف الدماء ويرفض التسامح والعفو حتى يؤخذ الثأر . وهذا شاعر جاهلي يلوم قومه على قبول الصلح والدية ويدعو صراحة إلى العنف والصرامة والشدة في معاملة الخصوم . من ذلك ما تقوله كبشة بنت معدي كرب[2] :

وأَرسَلَ عبدُ اللّه إذ حانَ يومُه ... إلى قومِهِ ألا يعلو لهم دَمِي
ولا تأخذوا منهم إفالاً وأبكُراً ... وأنزل في بيتٍ بصعدة مُظْلِمِ

فنرى هنا رفضا لقبول الدية الممثلة في الإبل . . وقال ضرار بن الخطاب القرشي[3] :

---

(١) رواه الترمذي / المعجم المفرس لألفاظ الحديث ٦/٤٦١ ورواه البخاري نفس المصدر .

(٢) حماسة البحتري ١/٢٨ .

(٣) نفس المصدر ١/٢٩ .

أَرى ابني لؤي أَوشكا أَن يُسالما ... وقد سلكتْ أَبناؤُهم كلَّ مَسْلكِ

فإنَّ شقاءَ الظُلم ما قد جمعتما ... ومن يتق الأَقوام بالشرِ يُتْرَكِ

فإن أنتمَ لم تثأروا بأخيكِم ... فدكوا الذي أنتم عليه بمدَّكِ

ونجد هنا كذلك دعوة لأخذ الثأر ورفض السلام والصلح من الجانب الآخر ، وهم بهذا الرفض للصلح يرون أنهم أعزاء أقوياء لا يجرؤ أحد على الاعتداء عليهم مستقبلا ، وما قبول الصلح إلا دليل الخور والجبن يقول القتال الكلابي في هذا المعنى[١] :

إني لعمرُ أَبيهم لا أُصالحُهم ... حتى يصالحَ راعي الثلةِ الديبُ

أو تنجلي الخيلُ عن قتلى مصرّعةٍ ... كأنها خشبٌ بالقاعِ مسقَطوبُ

فالإصرار هنا متدفق من هذا الشاعر لأخذ الثأر تأديباً للمعتدين ، وإرهاباً لهم وأثباتا بأن وراء القتلى أبطالا يأخذون الثأر ، حتى إنه كان عندهم اعتقاد أن الميت إذا لم يؤخذ بثأره كانت تصيح على قبره هامة تدعو لأخذ ثأره ، من ذلك ما يقول شاعرهم :

يا عمرو إنْ لَمْ تدْع شَتْمي ومنقصتي ... أضرِبْك حتى تقولَ الهامةُ اسقوني

وتكررت هذه الدعوة برفض الصلح عند معظم القبائل العربية ، ولم نجد من يقبلها بغية وقف النزيف الدموي إلا القليل من العقلاء ، وشعارهم في ذلك كما يقول عبد الرحمن بن ربعي الفزاري[٢] .

لا صُلَحَ حتى تعثرَ الخيلُ بالقَنَا ... وتوقدَ نارُ الحربِ بالحَطَبِ الجَزْلِ

حتى إنهم كانوا يصرون على أن يكونوا هم البادئين بالقتال ، أما الذين يرضون بالهدنة والصلح فإنهم غير جديرين بالحياة ، ويتمنى أحد الشعراء أن

---

(١) حماسة البحتري ١/٣١ .

(٢) نفس المصدر ١/٣٣ .

يبدل الله هؤلاء الجبناء بقوم شجعان فوارس فيقول[1] :

فإنّ قَومي وإنْ كانوا ذوي عددٍ ... ليسوا من الشرِّ في شيءٍ وإنْ هَانَا

يَجزونَ من ظُلمِ أهلِ الظُّلمِ مغفرةً ... ومن إساءةٌ أهلِ السوء إحساناً

كأن ربّك لم يخْلق لخشيتِه ... سواهم من جميع الناس إنسانا

فليت لي بهم قوماً إذا رَكبوا ... شدوا الإغارة فرساناً وركبانا

أرأيت إلى هذه العصبية الممقوتة، التي تحيا بالإثارة واشتداد المعارك ونزول الدماء في حومة الوغى . فإن كان ثمة عقلاء من شيوخ القبائل يدعون إلى الحلم والصلح والأناة فإن الغضب من قوم يصب عليه ناراً حامية ، وقد كان فضل الله على هؤلاء العرب عظيماً إذ حول هذه الطاقات الكامنة المذخورة الموجهة للشر إلى قوى إصلاحيةٍ تدعو إلى دين الله بالحسام إن لم تُجدِ الحسنى وقد حرم الإسلام هذه العصبية . .

يقول الله تعالى في محكم التنزيل : ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾[2] ، فالتقوى والصلاح هي أساس التفاضل . ومما يروى عن الرسول ﷺ أنه قال : « ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب »[3] . ويروى عنه كذلك قوله ﷺ : « ليس منا من دعا إلى عصبية »[4]. ولكن عصبية الجاهليين كانت تجري في حياتهم مجرى الدماء في العروق لظروف الحياة القاسية من جهة ، ولشدة الأنفة والعزة القبلية المشينة في نفوسهم من جهة أخرى ، ولعدم وجود روادع من الدين من جهة ثالثة .

---

(١) حماسة أبي تمام ٤/١ .

(٢) سورة الحجرات آية ١٣ .

(٣) الجامع الصغير حديث رقم ٥٢٥١ .

(٤) رواه مسلم ـ المعجم المفهرس للحديث ٤/٣٣٦ .

وربما تأثير الشعر في نفوس أولئك العرب ووجود الفرسان الشجعان مما يزيد في هـذه العصبية القبليـة لأن العربي سـرعان مـا تأخـذه الحماسـة وتثيره العاطفة الحربية . . يقول أبو الغول الطهوي :

فَـدَتْ نفسي ومـا ملكتْ يميني فـوارسَ صـدقتْ فيهم ظُنـونَي[1]
فـوارسُ لا يـمـلونَ الـمـنـايَـا إذا دارتْ رحى الحـربِ الـزبـونِ
ولا يـجـزون مـن حـسـنٍ بـسـيءٍ ولا يـجـزون مـن غـلظٍ بـليـنِ
ولا يـرعـون أكـنـافَ الـهـويـنى إذا حـلوا ولا أرضَ الـهـدونِ

نلمس في هذه القطعة العاطفة المتأججة في تحريك الوجدان لدى أفراد القبيلة بتقدير هؤلاء الفرسان الشجعان الذين يـدافعون عن شـرف ومجد القبيلة ويلهبون المشاعر الغامرة بهذه المـوسيقى الحماسيـة والرنين القتـالي الجماعي بالاقتحام وعـدم قبول أيـة دعوة للسـلام أو المهادنـة حتى تؤخذ الأوتـار ويهزم الأعداء . والشعار العام لأفراد القبيلة عموما هو الذوبان في الشعور الجمـاعي للقبيلة وقد لخص دريد بن الصمة هذا الموقف بقوله :

وهـل أَنـا إلا من غـزيـةَ إن غـوتْ غـويتُ وإنْ تَـرْشُـدْ غـزيـةُ أَرشُـدِ[2]

ولكن الإسـلام حذر من هـذا الموقف ، وطلب من المسلمين أن يكـون لكـل منهم رأي سليم بصرف النـظر عن الآخرين . ولكن كـان من فضـل الله تعالى على البشرية أن اختار هؤلاء العرب الذين كانوا في تيـه وضلال وغـواية وشقـاء ، اختارهم لحمـل رسالـة الإسلام فيمـا بعد ، وتحـولت هذه العصبيـة القبليـة الكريهـة إلى كرم وسمـاحة ومـودة وإيثار ، واقـرأ إن شئت سيرة هؤلاء الفاتحين العظام في فتوحات الإسلام الكبرى ، في اليرموك والقادسية ونهـاوند والأندلس وصدق الله العـظيم الذي يقـول : ﴿ وكنتم على شفا حفـرة من النار

---

(١) الحماسة لأبي تمام ١/٧ .
(٢) الأغاني ص ٣٠٩ .

فأنقذكم منها ﴾[1] ويقول جلّ وعلا : ﴿ لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين ﴾[2] .

رابعاً : العناية الفائقة بالجواد :

يكاد يكون الفارس والجواد شيئاً واحداً لأن أحدهما لا يستغني عن الآخر ؛ لذلك أولاها الفرسان جل عنايتهم ، وبالغ تقديرهم الذي تمثل في حسن رعايتها من جهة ، ثم تحدثوا عن صفاتها الجسمية الحميدة من همة ونشاط وحيوية ثم ذكروا احتمالها للحروب والمشاق من جهة أخرى .

ومن مظاهر عنايتهم أنهم كانوا لا يفرطون بها بأن يتركوها في مكان بعيد يقول عامر بن الطفيل[3] :

مقرباتٌ كالهيمِ شعث النواصي قد رفعنا من خَصرها فاستدرتْ

بل بالغوا في إكرامها بأنهم كانوا يرضعونها اللبن . . يقول عوف بن عطية الشيمي[4] :

وأعددتُ للحربِ مِلبونةً تردُّ على سائسها الحِمَارا

والملبونة التي تشرب الحليب وهي تسبق الحمار الوحشي ، ومن مظاهر عنايتهم أنهم يطعمونها كأولادهم بل ربما جاع الأولاد وهي تطعم الزاد الطيب :

مفداةٌ مكرمةٌ علينا يجاعُ لها العيالُ ولا تجاعُ

---

(١) سورة آل عمران آية (١٠٢) .

(٢) سورة آل عمران آية (١٦٤) .

(٣) ديوانه ص ١٠٥ .

(٤) المفضليات ص ٣٧ .

ومن مظاهر الحديث عن شجاعتها ونشاطها قول سلامة بن جندل السعدي[1] :

وكرنا خيلنَا أَدراجَها رَجَعا ... كُسَّى السنابك من بدءٍ وتعقيبِ

والعاديات أُسابقُ الدماءَ بها ... كأن أعناقها أنصابُ ترجيبِ

يحاضر الجونُ محضراً جحافلها ... ويسبق الألف عفواً غير مضروبِ

ويقول طفيل الغنوي[2] :

وفينا رباطَ الخيلِ كلَّ مطهمٍ ... رجيلٌ كسرحان الغضا المتأوبُ

إذا هبطتْ سهلاً كأن غياره ... بجانبه الأقصى دَواخن تنضبُ

وفي نفس المضمون السابق ذكر زهير هرم بن سنان وتعرض لذكر الخيل التي هي عدة وجمال الفارس كراً وفراً[3] :

القائد الخيلَ منكوباً دوابُرها ... منها الشنونُ ومنها الزاهقُ الزهمُ[4]

قد عوليت فهي مرفوعُ جواشنُها ... على قوائم عوجٍ لحمُها زيمُ

تنبذ أفلاءَها في كل منزلةٍ ... تنبخ أعينها العقبانَ والرخمُ

فهنا وصف للخيل بديع من حيث السرعة والشكل العام ، ويصدق على هذا الشعر قول الرسول ﷺ في مدح إناث الخيل حيث يقول فيما يروى عنه : « بطونها كنز ، وظهورها حرز »[5] .

وقد ذكرت من قبل أن الفارس والفرس شيئان متلازمان إذ لا فرق

---

(١) شعر الحرب ص ١٩٩ .

(٢) شعر الحرب ص ١٢١ .

(٣) العقد الثمين القصيدة رقم ١٧ ابتداء من البيت ١٥ ص ٩٨ .

(٤) الشنون : بين السمين والمهزول . الزاهق : السمين ، الجواشن : الصدور ، وأفلاءها : أولادها .

(٥) العقد الفريد ٢/٤١٩ .

بينهما في حومة الوغى فهما كتلتان شديدتا الالتحام ـ يقول علقمة بن شيبان[1] :

ولقد شهدتُ الخيلَ يومَ طِرادِها ... فطعنتُ تحت كنانة المتمطرِ
ولقد رأيت الخيلَ شلن عليكم ... شولَ المخاضِ أبتْ على المتغبرِ

فالشاعر هنا يقصد بالخيل فرسانها وأصحابها وهم ذوو الحماسة والإقدام وكما تستخدم الخيل في الكر والفر والهجوم فإنها كذلك وسيلة النجاة من براثين الموت والهلاك والهزيمة وفي هذا يقول زيد الخير الطائي[2] :

أعلقمُ لا تكفر جوادَك بعدمَا ... نَجا بِكَ من بين المنايا الحواضرِ
ونجاك يوم الروع إذ حضر الوغى ... مسخ كفتخاءِ الجناحينِ كاسرٍ

فإن هذا الجواد قد كان سبباً في نجاة فارسه من الهلاك وفي نفس الغرض يقول النجاشي الحارثي[3] :

ونجّى ابنَ حربٍ سابحُ ذو علالةٍ ... أجشُّ هزيمٌ والرماحُ دَواني
من الأعوجيات الطوالِ كأنّه ... على شرفِ التقريبِ شاة إران
شديدَ على فأسِ اللجام شكيمة ... يفرجُ عنه الربوَ بالعسلانِ
كأنَّ عقاباً كاسراً تحتَ سرجِه ... تحاولُ قربَ الوكرِ بالطيرانِ

والشاعر يصف الفرس بالسرعة والجمال في الطول والشجاعة والإقدام ويقول شاعر آخر يذكر هرب فارس من الأعداء[4] :

---

(١) حماسة أبي تمام ١/٣٤ .
(٢) الأصل زيد الخيل ، وقد سماه الرسول ﷺ زيد الخير والبيتان في حماسة البحتري ص ٥٥ الباب السادس والعشرون .
(٣) حماسة البحتري الباب السادس والعشرون ص ٥٤ .
(٤) الشاعر نعيم بن سفيان ـ حماسة البحتري ص ٥٥ .

لمـا رأيتُ الخيـلَ جـاءَت كـأنَّهـا جـرادٌ زهتـه غيـرةٌ لا تـقشـعُ
كـأن ابنـة الغـراءِ يـوم ابتـذلتُهـا بذى الرمثِ ظبيٌ ناصعُ الشدِّ أخضعُ

من هذه الأمثلة جميعا يتضح لنا كيف أن العرب كانوا يعتزون بالخيل ويولونها جل عنايتهم وفائق اهتمامهم تربية لها ، وحفاظا على نسبها الأصيل ، ورفعا لقدرها ومما يروى عن الرسول ﷺ : «بت البارحة وجبريل يعاتبني في سياسة الخيل » [1] .

حتى إنهم فَضلوها على نسائهم يقول أحدهم :

لصلصلةُ اللجـامِ بـرأسِ طـرفٍ أحـبُّ إلـيَّ مـن أَنْ تـنـكـحـيـنـي
أخـافُ إنْ حـللنَـا فـي مـضـيـقٍ وجـدَّ الـركضُ أنْ لاَ تَـحْـمِـيلنـي

وكـان من إفراط إكرام العرب للفرس أنهم صنعوا لهـا النعال التي تقي حوافرها ضد الصخور والأرض الصلبة كما ذكر زهير :

تخـطو على ربذاتٍ غيـرِ فـائـرةٍ تخذي وتعقدُ في أرساغِها الخـدمُ [2]
قد أبدأتْ قطفاً في المشي منشزة ال أكتـافِ تنكبـهـا الحـزانُ والأكـمُ

ومن مظاهر اهتمام العرب بالخيل أنهم صبروا على مقاساة مؤنتها مع جدوبة بلادهم إلى درجة أنهم سموها الخير ـ يقول طفيل الغنوي [3] :

وللخيـلِ أيامُ فُمن يصـطبرْ لهـا ويعـرْف أيـامَهـا الـخيـرُ تـعقبِ

ومن مظاهر اهتمامهم كذلك أنهـم كانوا يضيفون أسماءها إلى أسمائهم

---

(١) محاضرات الأدباء جـ ٢ ص ٦٣٥ .
(٢) العقد الثمين ـ القصيدة رقم ١٧ ابتداء من البيت ١٥ ص ٩٨ والطبيعة في الشعر الجاهلي ص ١٠٩ .
(٣) ديوان طفيل الغنوي ص ١٦ .

مثل زيد الخيل[1] وقد عرفت له ستة أفراس بأسمائها وقد لخص أحد الشعراء أسباب اهتمامه بالخيل وعنايته بها حيث يقول أبو دؤاد الإيادي :

علق الخيلَ حبُّ قلبي وليداً وإذا نابَ عندي الإكثارُ[2]
علقت همتي بهن فما يمـ نعَ مني الأَعنَة الأقتارُ
جنة لي في كل يوم رهانٍ جمَّعتْ في رهانها الأعشارُ
وانجرارٍ بهن نحو عدوي وارتحالي البلادَ والتسيارُ

على أن فرقة من الشعراء قد تخصصوا في وصف الخيل ، وقد ذكر الأصعمي أن ثلاثة من العرب لا يقاربهم أحد في وصف الخيل وهم (أبو دؤاد الإيادي والطفيل والغنوي والنابغة الجعدي)[3] . وكان من عادات العرب أنهم كانوا يطلقون أسماء معينة[4] على جيادهم وقد ذكر ابن الكلبي طائفة من فحولها وجيادهم ومما ذكره : زاد الراكب ، أعوج ، سيل ، النعامة ، الهطال ، العراوة ، الوجيه ، لأحق ، قرزل ، جون ، داحس ، الغبراء ، الورد ، الشموس ، سابح .

وكان الفرسان يستأنسون بالخيول السريعة ـ ذوات الأعراف الطويلة والأحساب الكريمة ، قال أبو دؤاد[5] :

أَرعى أجمَته وحدي ويؤنسُني نهدُ المراكلِ صلتُ الخدِ منسوبُ
يعلو بفارسهِ منه إلى سندٍ عالٍ وفيه إذا ما جدَّ تصويبُ

وقد تنوعت صور المشبه به في سرعة الخيل فهي الذئب في شدة

---

(١) أغاني الأغاني ١٦/٤٦ .
(٢) ديوان أبي دؤاد الايادي ص ٣١٧ .
(٣) الشعر والشعراء ١/١٦٢ .
(٤) ابن الكلبي أنساب الخيل ١٢٩ .
(٥) أبو دؤاد الايادي ـ الديوان ص ٢٩٥ .

السرعة والخفة في الانطلاق قال أبو دؤاد يصف فرسه :

كالسيدِ إذا ما استقبلتَه وإذا ولى تقولُ ململمٌ ضَرْبُ[1]

وكان من فوائد الخيل للفرسان أن اتخذوها وسيلة للصيد ـ الماهرة الذكية ـ حيث تقرب البعيد وتحقق الأمل في صيد ثمين ورزق عميم يقول امرؤ القيس[2] :

وقد أغتدي والطيرُ في وُكناتِها بمنجردٍ قيدِ الأوابد هيكلِ

مكرٍ مفرٍ مقبلٍ مدبرٍ معاً كجلمودِ صخرٍ حطَّه السيلُ من علِ

ويقول زهير :

إذا ما غدَونا نبتغي الصيدَ مرةً متى نره فإننا لا نُخاتلُه[3]

ويقول علقمة[4] :

إذا ما اقتنصنا لم نخاتلْ بجنةٍ ولكن ننادي من بعيدٍ ألا اركبِ

من هذا الذي مر نجد أن عناية فائقة من جانب الفرسان خاصة والعرب عامة قد انصبت على الخيل من حيث التربية والعناية والحرص على سلالتها الأصلية. وتسميتها أحيانا بأسماء الرجال ، وهذا كله ظاهر في الشواهد التي مرت لأن هذا الحيوان المحبوب كان زينة في الحياة وفخراً للفرسان وحصناً حصيناً في حياة صعبة هي وسيلة من وسائل الحرب الركينة فيها .

خامسا : الأخلاقية الكريمة الإيجابية للفرسان في المعركة :

كانت الأخلاقية الكريمة للفرسان من الخصائص البارزة في حياة هؤلاء

---

(١) ديوانه (أبي دؤاد) ص ٢٩٥ .

(٢) ديوانه ص ٦٥ .

(٣) ديوان زهير ص ١٤٠ .

(٤) ديوان علقمة ص ٤٣٨ .

الفرسان التي حرصوا عليهـا أشد الحـرص ، وهذه الخـاصية تتمثـل في إعلام الخصم بنيـة الهجوم والقتـال ، وفي هذا يقـول عبد الله بن عنمـة عندمـا دعـا خصمة للقتال :

كـأني غـداةَ الصمـدِ حينَ دعوتُـه   تفـرعت حصنـاً لا يُـرام مُمَـرّدا[1]

وهـذا من جهة عـدم المباغتـة وهو دليـل عدم الغـدر من هـذا الفـارس لخصمه ، ومن هذه الخاصية الكريمة عدم اشتراك أكثر من فارس ضـد فارس واحد بل يواجه الفارس فارساً مثله ـ يقول عنترة[2] :

ومـدجـجٍ كَـرِهَ الكمـاةُ نـزالَـه   لا ممعـنٍ هـربـاً ولا مُسْتَـسلمِ
جـادت يـدايَ لـه بعـاجـلِ طعنـةٍ   بمثقفٍ صَـدقِ الـكعُـوبِ مقـومِ
فتـركتـه جَـزرَ السبـاعِ يَنُشْنَـهُ   يَقضمنَ حُسْنَ بَنـانِـه والمعصَـمِ

ومن هذه الخاصية كذلك أن الفارس لا يواجه راجلاً في الميدان ولكنه يواجه فارساً يركب جواداً مثله يقول الشاعر في هذا المضمار[3] :

وعـلى الـجـيَـاد الـمـضـمـرا   تِ فـوارسٌ مـثـلُ الـصـقـورِ

ويقول آخر[4] :

تُـلاقـوا جِيَـاداً لا تحيـدُ عن الـوغَى   إذا مـا غـدْت في المـأزقِ المُتَـداني

ومن هذه الخاصية أن الفارس كان لا يبعث الحرب ظـالما بـل إنه كـان يرد الاعتداء الغاشم الذي وقع على قبيلته ـ يقول الشاعر في ذلك[5] :

---

(١) النقائض ص ٥٤ .
(٢) المعلقات السبع للزوزني ص ١٣٧ .
(٣) المنخل اليشكري . شعراء النصرانية ص ١٧١ .
(٤) حماسة أبي تمام ١/٤ .
(٥) أيام العرب ص ٣٤٦ .

ولكنني لا أبعثُ الحربَ ظالماً ولو هجتها لم ألف شحمةَ آكِلِ

ومن هذه الخاصية الأخلاقية الحميدة الصبر في الميدان ، يقول الشاعر[1] :

شهدتُ طِرادَها فصبرتُ فِيهَا إذا ما هللَ النكسُ اليراعُ

ومن هذه الأخلاقية الحميدة للفرسان أنهم يعتزون بالجراح فيهم وبصدأ الحديد الذي يصبغ وجوههم بل إن هذا دليل أكيد على فتوة وفروسية أولئك الأبطال ، يقول الشاعر :

ومساعرٌ صدأُ الحديدِ عليهم فكأنما طُلي الوجوهُ بِقَارِ[2]

ويقول النابغة الذبياني في هذا المعنى [3] :

أذا ما غزا بالجيش حِلَّق فوقَهم عصائبُ طيرٍ تهتدي بَعَصائبِ

ولا عيبَ فيهم غير أَنَّ سيوفَهم بهنّ فلولٌ من قِراعِ الكتائبِ

سادساً : عدم المخالسة :

وكان مما يحمد لفرسان الجاهلية والإسلام أنهم كانوا لا يخالسون ولا يغدرون في الحرب وفي الكر والفر ، إن الإنذار من جانبهم كان إعلاما بأن هناك نية للهجوم على الخصوم حتى يأخذ هذا الخصم حذره ، وهذا حقيقة من الأخلاق الأبية ، ومن الخصائص الإيجابية . من ذلك ما يقوله الفارس الشاعر بلعاء بن قيس الكناني في إشعاره خصمه بنيته في الهجوم عليه وعدم مباغتته في ملاقاته[4] :

---

(١) ربيعة بن مقروم . حماسة أبي تمام ١/٥ .

(٢) هذا البيت للربيع بن زياد شعراء النصرانية ص ٧٩٣ .

(٣) لسان العرب ١/٤٠٥ ومختار الشعر الجاهلي مصطفى السقا (طبع الحلبي) .

(٤) حماسة أبي تمام ١/١٣ .

وفارسٍ في غِمَار الموتِ منغمسٍ إذا تألى على مكروههِ صَدَقَا
غشيَّته وهو في جأواءَ باسلةٍ عضباً أصاب سَواء الرأسِ فَانْفَلقا
بضربةٍ لم تَكُن مني مخالسة ولا تعجلتُها جُبْناً ولا فَرَقا

فالفارس هنا يقول إنه لا يخدع ولايغدر قرينه الفارس بل إنه يعلمه بالهجوم حتى يتأهب لملاقاته والاستعداد له ، وهذه خاصية قلما نجدها عند الأمم الأخرى ، وهي من الأخلاق والتقاليد المتعارف عليها لدى عرب الجاهلية . على أننا نلمس أن هناك شعوراً يكاد يكون عاماً ، وهو أن الجياد مع فرسانها شيء واحد لا فرق بينهما ، وهذا مما يزيد شجاعة الفارس وكذلك شجاعة الفرس ومن يقرأ معلقة عنترة بن شداد يلمس هذا بوضوح في وصفه الدقيق لفرسه أثناء التلاحم . ويقول أحد الفرسان في هذا الموضوع[١] .

ولقد شهدتُ الخيلَ يومَ طِرَادِها فطعنتُ تحت كنانهِ المتمطرِ
ونطاعنُ الأبطالَ عن أبنائِنا وعلى بصائرِنا إنْ لم نُبصَّرِ
ولقد رأيت الخيلَ شِلنَ عليكُم شولَ المخاض أبت على المتغبرِ

ويبدو لنا أن المقصود بالخيل الفرسان الذين هم على ظهورها حيث لا يبالغ هؤلاء الأبطال بالعاقبة لأنهم يدافعون عن محارمهم وأولادهم وهي من أرفع القيم التي يدافع عنها المقاتل الشجاع الذي كان يحرص على الموت حرصاً عظيماً حرص الجبناء على الحياة ، يقول الحصين بن حمام المري[٢] :

تأخرتُ أستبقي الحياةَ فلم أجدْ لنفسي حياةً مثلَ أَن أتقدما
فلسنا على الأعقاب تَدمى كلومُنا ولكنْ على أقدامِنا تَقْطرُ الدِمَا
نفلق هاماً من رجالٍ أعزّةٍ علينا وهم كانوا أعقَّ وأظلَمَا

---

(١) حماسة أبي تمام ٣٥ /

(٢) حماسة أبي تمام ٦٠ /

فالحرص هنا على الموت لا يساويه أي قيمة لهذه الحياة الفانية ، ولعلهم كانوا يدركون أن موتهم في الميدان أخلد وأبقى لهم بعد موتهم ، وذلك بالذكر الحسن بين القبائل ، فالذكر للإنسان عمر ثان كما يقول الشاعر المعاصر أحمد شوقي . وقد عد أولئك الفرسان أن من العيب الفاضح والعار المشين عدم إعطاء فرصة للفرسان من الأعداء بالاستعداد والتهيؤ . يقول قيس بن رفاعة الأنصاري(١) .

أنا النذيرُ لكم مني مجاهرةً   كيلا أُلامَ على قذعٍ وإنذارِ
فإنْ عصيتم مَقالي اليوَم فاعترفوا   أَنْ سوفَ تلقَون خزيا ظاهَر العارِ
من كان في نفسهِ حوجاءُ يطلبهُا   مني فإني له رهنٌ بإصحارِ

فإن هذا الفارس يجد أن من انعدام الشرف ومن العار البدء بالهجوم دون إعلام الطرف الآخر بهذه النية .

يقول سحيم بن وثيل التميمي(٢) :

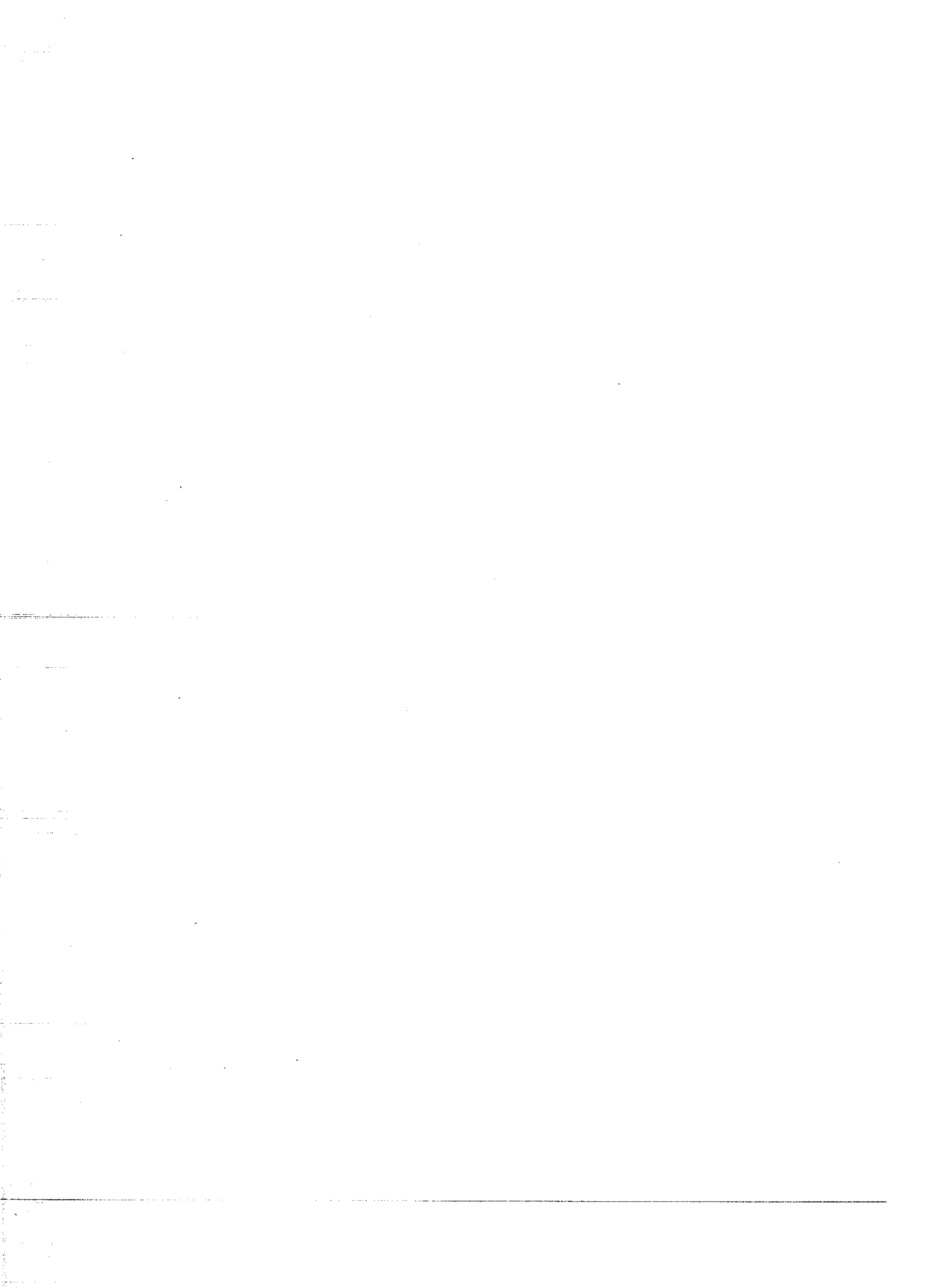
أنا ابنُ جَلا وطلاّعُ الثَنَايا   متى أضعِ العمامةَ تَعرفُوني
صليبُ العودِ من سَلَفَي نزارِ   كمثلِ البدرِ وضُّاحُ الجبينِ
وماذا يدرَّى الشعراءُ منيَ   وقد جاوزتَ حدَّ الأربعينِ

فالفكرة في هذه الأبيات أن هذا الفارس مشهور بوقائعه ، وهو شجاع ، وهو لا يخدع العدو بل إنه يواجهه بكل جلاء ، وهو واضح كالقمر في سيرته وفي حياته للعدو والصديق . وبعد فإنه لمن نافلة القول أن هناك خصائص أخرى بالإضافة إلى ما ذكرت عن الفرسان ولكن أوجزت القول بغية عدم الإطالة ، وركزت على أهم الخصائص المعروفة لدى الفرسان عموماً ، وكان الفارس يجمع إلى هذه الخصائص صفات من النجدة والشهامة والكرم والأريحية والإباء .

---

(١) حماسة أبي تمام ٣٥ /

(٢) حماسة البحتري ص ١٣ /



الفصـــل الثـــاني

(فرسان العرب في الجاهلية)

يشتمل هذا الفصل على :

١ ـ أبرز فرسان العرب في الجاهلية .

٢ ـ أهم المعارك الحربية التي قادها هؤلاء الفرسان وما قيـل فيها من الشعر .

٣ ـ تقدير بطولة هؤلاء الفرسان من قبائلهم .

٤ ـ دور النساء في معارك العرب في الجاهلية .

(تشجيع الجنود ـ تضميد الجرحى ـ حمل السلاح)

٥ ـ أبرز صفات الفارس في الجاهلية .

(أبرز فرسان العرب في الجاهلية)

تحدثت في الفصل الأول عن بواعث الفروسية وخصائصها وعن المكانة السامية للفارس في العصر الجاهلي ، أما في هذا الفصل فسوف أتناول أبرز الفرسان الشعراء الذين كانوا مشهورين لدى القبائل العربية بالبطولة والشجاعة والإقدام . وسأركز في هذا الفصل على أولئك الفرسان الذين شهدوا المعارك مع قبائلهم ضد القبائل الأحرى ، وكان لهم شعر يشهد ببطولتهم في حومة الوغى ، وهؤلاء الفرسان قسمان أولاً ـ قسم خاص بفرسان القبائل . ثانياً ـ فرسان الصعاليك .

القسم الأول

فرسان القبائل وأشهرهم

أولاً : عنترة بن شداد :

هو عنترة بن عمرو بن شداد بن عمرو بن قراد بن مخزوم بن عوف بن مالك غالب بن قطيفة بن عبس بن بغيض ، وقال ابن الكلبي عن نسبه شداد هو جده أبو أبيه غلب على اسم أبيه فنسب إليه وقال غيرة شداد عمه ، وكان عنترة

نشأ في حجره فنسب إليه دون أبيه[1] ، ولكن صاحب الأغاني يقول إنه عنترة بن شداد[2] وكذلك قال الأعلم الشنتمري في كتابه أشعار الشعراء الستة الجاهليين[3] ويكنى عنترة بألقاب عديدة منها أبو المغلس لغاراته في الغلس ، وعنترة الفوارس لشجاعته ، وعنترة الفلحاء لانشقاق شفته السفلى[4] ، وعنترة[5] أحد أغربة العرب المشهورين في الجاهلية سموا بذلك لسوادهم ، وهم ثلاثة : عنترة وأمه زبيبة وهي سوداء ، وخفاف بن ندبة السلمي وندبه أمه وهي سوداء وإليها ينتسب ، والسليك بن السلكة وإليها ينسب وكانت سوداء .

وعلى ما تقدم نجد أن عنترة عربي من جهة الأب وأمه جارية حبشية ، فهو من أجل ذلك هجين (مختلط النسب) لذلك لم يلحقه أبوه به .

نشأة عنترة :

كانت نشأة عنترة في بادية نجد من أعظم الأسباب التي جعلته يشب فارساً شجاعاً مقداماً ، وخاصة أنها كانت في صباه ، فقد كان يرعى الإبل محتقراً في أعين والده وأعمامه ولكن هذه النشأة في البادية أكسبته الفتوة والفروسية والشجاعة ولا بدع في ذلك لأن أبناء البادية والحال هذه هم أقوم عوداً وأصلب جسماً وأقوى قلوباً من أبناء الحاضرة .

وقد أحب عنترة منذ صغره ابنة عمه عبلة ، وطمع أن يبني بها ولكن عمه رفض أن يزوجه إياها لسواده ، ولكن الأيام تأتي بشيء في صالح عنترة حيث أغارت بعض قبائل العرب على قبيلته عبس فوجد أبوه وأعمامه أن يستفيدوا من هذه الشجاعة الخارقة والفتوة العملاقة لعنترة . فقال له أبوه عند اشتداد الكرب

(١) الشعر والشعراء ١/٢٥٠ .
(٢) الأغاني ص ٨/٢٥١ .
(٣) أشعار الشعراء الستة الجاهلين للأعلم الشنتمري .
(٤) أدباء العرب ١/١٦٢ .
(٥) الشعر والشعراء ١/٢٥٠ .

وقد سبيت نساء من عبس ومنهن عبلة ابنة عمه ، فقال له أبوه : (كرّ يا عنترة) فقال عنترة : (العبد لا يحسن الكرّ بل يحسن الحلاب والصرّ)[1] عندئذ لم يجد أبوه مفراً إلا أن يعطيه الحرية عن قناعة وجدارة فقال لـه : (كرّ وأنت حرّ) . فلحق عنترة بالمغيرين واسترد منهم كل ما سلبوه ولكن عمه رغم هذه الشجاعة لم يزوجه عبلة .

وقد عمر عنترة طويلا ، وكانت له أيام مشهورة في حرب داحس والغبراء ، ثم حارب كذلك مع قبائل العرب ضد الفرس في يوم ذي قار (عام البعثة ٦١٠ م) . ويقال إن الخبر عندما وصل رسول الله ﷺ قال : «هذا أول يوم أخذت فيه العرب من العجم بحق»[2] . وكانت نهاية عنترة أن قتل في معركة مع بني طيء حيث قتله الأسد الرهيص جبار بن عمرو الطائي[3] . ولعل عنترة مات وهو لم يتزوج .

قال أبو عبيدة إن عنترة قتل ضمضماً المري وهرم بن ضمضم في حرب داحس والغبراء وفي ذلك يقول :

ولقد خشيتُ بأن أموتَ ولم تدرْ ... للحربِ دائرة على ابني ضَمْضَمِ

الشاتمي عرضي ولم أَشتُمْهمَا ... والناذرَينِ إذا لم ألقهما دَمِي

إن يفعلا فقد تركتُ أَباهما ... جزَر السِباعِ وكلَّ نسرٍ قَشْعَمِ

شاعرية عنترة :

عنترة صاحب المعلقة المشهورة[4] .

هل غادرَ الشعراءُ من مُتَرَدَّمِ ... أم هلْ عرفتِ الدارَ بعدَ تَوَهُّمِ

---

(١) تاريخ الأدب العربي ١/٢٠٨ .

(٢) أدباء العرب ١/١٦٦ .

(٣) الشعر والشعراء ٢/٢٥٣ .

(٤) الشعر والشعراء ١/٢٥١ والأغاني ٨/٢٥٢ .

وقد عده صاحب الجمهرة ثاني أصحاب المجمهرات ، قال : وقد أدركنا أكثر أهل العلم يقولون إن بعدهن (السموط وهي المعلقات) سبقا ما هن بدونهن وقد تلا أصحابهم أصحاب الأوائل فما قصروا وهن المجمهرات لعبيد بن الأبرص وعنترة بن عمرو وعدي بن زيد وبشر بن أبي خازم وأمية بن أبي الصلت وخداش بن زهير والنمر بن تولب(١) .

ويقول ابن قتيبة كان عنترة لا يقول الشعر إلا البيت والبيتين والثلاثة حتى سابه رجل من قومه(٢) فذكر سواده وسواد أمه وإخوته وعيره بذلك فقال عنترة :

والله إن الناس يتوافدون بالطعمة ، فوالله ما حضرت مرفد الناس أنت ولا أبوك ولا جدك قط ، وإن الناس ليدعون للفزع فما رأيتك في خيل قط ، ولا كنت في أول الناس ، وإن اللبس ليكون بيننا فما حقرت أنت ولا أحد من أهل بيتك لحظة فيصل قط ، وكنت فقعا بقرقرة(٣) ، ولو كنت في مرتبتك ومغرسك الذي أنت فيه ، ثم ماجدتك لمجدتك أو طاولتك لطلتك . ولو سألت أمك وأباك عن هذا لأخبراك بصمته ، وإني لأحضر الوغى ، وأوفي المغنم ، وأعف عن المسألة وأجود بما ملكت ، وأفصل الخطة الصمعاء(٤) . فقال له الآخر : أنا أشعر منك . فقال عنترة : ستعلم ثم أنشد معلقته المشهورة وكانت العرب تسميها المذهبة ، وقد اشتهر عنترة بفنين من فنون الشعر هما الغزل والحماسة ، وكان غزله عفيفاً رقيقاً بعيداً عن فحش امرىء القيس وكان غزله يدور حول إقناع عبلة بأنه جدير بها من حيث بطولته وشجاعته للموافقة على قبوله زوجا لها .

أما شجاعته فقد تحدث عنها بالتفصيل في معلقته من حيث كره وفره وقتله للأبطال وإقدامه وقت الشدائد :

---

(١) أشعار الشعراء الستة الجاهليين ص ١٠٩ .

(٢) الأغاني ٨/٢٥٢ وأشعار الشعراء الستة الجاهليين للأعلم .

(٣) فقع بقرقرة مثل يضرب للمهين الذليل ، وأصل مورده أن الفقع أردأ الكمأ .

(٤) الصمعاء الصلبة .

وإذا الكتيبـةُ أحجمتْ وتـلاحـظتْ   أُلفيتَ خيـراً مـن معـمٍّ مخـولِ[1]
إذ لا أبـادرُ في المـضيـق فـوارسي   أولا أوكـلُ بـالـرعـيـلِ الأَولِ

ويروى أن رسول الله ﷺ عندما أنشد قول عنترة :

ولـقــد أبيتُ عـلى الـطوى وأظـلُّه   حتى أَنـال بِـه كـريمَ المـأَكـلِ[2]

قال : « ما وصف لي أعرابي قط فأحببت أن أراه إلا عنترة »[3] .

وقد دخلت في سيرة عنترة الأساطير الكثيرة، ولكن كثرة هذه الأساطير لاتنفي شجاعة هذا الفارس العربي المقدام ، حتى إن فارساً مشهوراً مثل عمرو بن معد يكرب الزبيدي[4] حيث كان معاصراً لعنترة قال لو سرت بظعينة وحدي على مياه معد كلها ما خفت أن أغلب عليها ، ما لم يلقني حرّاها أو عبداها ، فأما الحرّان فعامر بن الطفيل وعتيبة بن الحارث بن شهاب ، وأما العبدان فأسـود بني عبس (يعني عنترة) والسليك بن السلكة وكلهم لقيت . فأما عامر بن الطفيل فسريع الطعن على الصوت ، وأما عتيبة فأول الخيل إذا أغارت وآخرها إذا آبت ، وأما عنترة فقليل الكبوة شديد الجلب[5] ، وأما السليك فبعيد الغارة كالليث الضاري) .

وقد أوضح عنترة سر إقدامه وشجاعته عندما سأله أحد الناس : أنت أشجع العرب وأشدها ؟ قال : لا ، قيل : فبماذا شاع لك هذا في الناس ؟ قال : (كنت أقدم إذا رأيت الإ قدام عزماً وأحجم إذا رأيت الإحجام حزماً ، ولا أدخل إلا موضعاً أرى له منه مخرجاً ، وكنت أعتمد الضعيف الجبان فأضربه

---

(١) الأغاني ٨/٢٥٥ .
(٢) أشعار الشعراء الستة الجاهليين ص ١٠٩ ، والأغاني ٨/٢٥٢ .
(٣) الأغاني ٨/٢٥٢ ، وأدباء العرب ١/١٦٤ .
(٤) الأغاني ٨/٢٥٢ ، وأدباء العرب ١/١٦٤ .
(٥) الكبوة : السقطة ، الجلب : الصياح .

الضربة الهائلة يطير لها قلب الشجاع فأثني عليه فأقتله)[1] .

وهكذا نجد أن عنترة كان أسطورة الشجاعة والإقدام للفرسان العرب الذي كان هو سيدهم وإمامهم في العصر الجاهلي ، حيث نشأ هذه النشأة القوية الطلبة وعودته المعارك الطاحنة بين قبيلته عبس وأعدائها على الخبرة والمراس بالقراع والصراع والنزال .

لما رأيتُ القوم أقبَلَ جمعهُم يتذامرون كررتُ غيرَ مُذمّمِ
يدعون عنترَ والرماحُ كأنَّها أشطانُ بئرٍ في لِبَانِ الأَدْهَمِ

وكان عمر بن الخطاب حريصاً على سماع أخبار حروب عبس في الجاهلية وقيل إنه سأل الحطيئة : كيف كنتم في حربكم ؟ قال : كنا ألف فارس حازم . قال : وكيف يكون ذلك ؟ قال : كان قيس بن زهير فينا ، وكان حازماً فكنا لا نعصيه ، وكان فارسنا عنترة فكنا نحمل إذا حمل ونحجم إذا أحجم ، وكان فينا الربيع بن زياد وكان ذا رأي نستشيره ولا نخالفه ، وكان فينا عروة بن الورد ، فكنا نأتم بشعره فكنا كما وصفت لك فقال عمر صدقت[2] .

وقائعه :

كان لعنترة وقائع مشهورة مع قبيلته عبس ضد أعدائها مثل ذبيان وتميم وطيء في داخل الجزيرة ، حيث كان صاحب يوم المريقيب الذي انتصرت فيه عبس على فزارة[3] ، ثم كان له الفضل في انتصار عبس على تميم ولى قيس بن زهير هارباً وبقي عنترة مع أبطال عبس ، وعندما علم قيس بن زهير بأن عنترة[4] هو الذي أنقذ الناس من الهلاك قال : والله ما حمى الناس إلا ابن السوداء وكان قيس أكولا فبلغ عنترة ما قال فقال يعرض به في قصيدته التي يقول فيها :

---

(١) الأغاني ٨/٢٥٢ ، وأدباء العرب ١/١٦٤ .
(٢) الأغاني ٨/٢٥٢ ، وأدباء العرب ١/١٦٤ .
(٣) العقد الفريد ٥/١٥٣ .
(٤)الأغاني ٨/٢٥١ .

ولقد أبيتُ على الطوَى وأظلُّه حتى أنالَ به كريمَ المأكَلِ

مما جعل الرسول ﷺ يعجب بهذا البيت ويقول : ما وصف لي أعرابي قط فأحببت أن أراه إلا عنترة[1] .

وكما كان عنترة بطلاً لعبس في حروبها ضد القبائل العربية في داخل الجزيرة العربية ، ثم كان بطلاً أيضاً مع قبائل العرب ضد الفرس في يوم ذي قار[2] عام ٦١٠ م . على أننا عندما نطالع ديوانه نجد أنه كان فارساً في كل المعارك التي خاضها ضد أعداء قبيلته عبس سواء أكان ذلك في أيام العرب المشهورة مثل يوم المريقيب أو يوم شعب جبلة الذي يعد من أعظم أيام العرب ، وكان قبل الإسلام بحوالي خمسين عاماً[3] .

وفاته :

تعددت الروايات بالنسبة لوفاة عنترة واختلفت اختلافاً كثيراً ، فقال ابن حبيب وابن الكلبي[4] أغار عنترة على بني نبهان من طيء ، فاطرد لهم طريدة وهو شيخ كبير فجعل يرتجز وهو يطردها ويقول :

حظُ بني نبهانَ منها الأَخبث كأنما أَثارُها بالحثحثْ
آثارُ ظُلمانِ بقاعٍ مُحْدثْ

وكان وزر بن جابر النبهاني في فتوة فرماه وقال : خذها وأنا ابن سلمى فقطع مطاه (ظهره) فتحامل بالرمية حتى أتى أهله فقال وهو مجروح :

وإنَّ ابنَ سلمَى عندَه فاعلموا دَمِي[5]

---

(١) نفس المصدر السابق .

(٢) تاريخ الأدب العربي ١/٢٠٨ .

(٣) الشعر والشعراء ١/٢٥٢ .

(٤) أدباء العرب ١/١٦٥ .

(٥) لم يدهش : لم يتحير ، الأزرق : ، اللهذم : الطويل الحاد ، نعف ومخرم : موضعان .

وهــيــهــاتَ لا يُــرْجــى ابــنُ ســلمــى ولا دَمِـي
رَمَــانــي ولــم يَــدْهَشْ بــأزرق لَــهْــمٍ لــهَــذام
عــشــيــةَ حَــلــوا بــيــن نــعــفٍ ومــخــرمِ

ويزعم ابن الكلبي كذلك أن الذي قتله يلقب بالأسد الرهيص[1] ، ولكن حاجي خليفة يذكر أن وفاة عنترة كانت سنة ٦١١ م[2] ، أما أبو عبيدة فيقول إنه مات بعد أن أسن كثيراً وبلغ التسعين . ويقول إنه بعد أن كبر وعجز عن الغارات كان له على رجل من غطفان بعير فخرج يتقاضاه إياه فهاجت عليه ريح من صيف وهو بين شرج وناظرة [3] فأصابته وقتلته .

إلا أن بعض المصادر تروي أنه قد مات بردا ، وكان قد أسن[4] . وما مثل عنترة يموت برداً إلا إذا بلغ أرذل العمر فانهدّ جسمه ولم تعد به قوة ولا قوة تمنع يقول عنترة في ذلك :

فَمــا أَوهى مــراسُ الحــربِ رَكْني ولَـكـنْ مَـا تَـقـادَمَ مِـن زَمَـانـي

وذكر أبو عمرو الشيباني رواية أخرى حيث قال إنه غزا طيئا مع قومه فانهزمت عبس فخر عنترة عن فرسه ، ولم يقدر من الكبر أن يعود فيركب فدخل دغلا[5] وأبصره ربيئة طيء فنزل إليه وهاب أن يأخذه أسيرا فرماه وقتله[6] .

وعلى أية حال فإن موت عنترة يغلب عليه في رأيي أنه قتل قتلاً في إحدى معارك عبس لأن أكثر الروايات تؤكد هذا القتل وخاصة في معارك الطاحنة مع

---

(١) أدباء العرب ١/١٦٦ .
(٢) كشف الظنون طبعة فلجل ٣/٣٩٨ ع ٥٨٨٦ .
(٣) شرج وناظرة ماءان لبني عبس .
(٤) الروافع ٢٨ ج .
(٥) الدغل : شجر كثيف ملتف .
(٦) أدباء العرب . ١/١٦٥ .

طيء ، وهذا ما يؤكده ابن دريد في الاشتقاق حيث قال قتلته طيء فيما تزعم العرب وعامة العلماء ، ولكن أبا عبيدة كان ينكر ذلك ويقول مات وكان قد أسن[١] .

شعر عنترة في المعارك :

أسلفت من قبل أن شعر عنترة يحكي أكثر ما تجلى في فنين هما : الحماسة والغزل ، وهناك بعض أغراض الشعر الأخرى قال فيها الشعر كالهجاء والرثاء ، وقد تخللت كل هذه الأغراض أشعار حماسية حربية في غاية المتانة والقوة وهي حقيقة واقعة لا مجال للريب فيها ، ثم إن السبب الحقيقي الذي جعل أباه يعترف بنسبه ويلحقه إياه أنه أبدى من ضروب الشجاعة والإقدام ما عجز عنه أبناء الأحرار كالربيع بن زياد وقيس بن زهير ، ثم إن معلقته التي كانت العرب تسميها المذهبة وهي أجود شعره ، ثم إنه بحكم هذه الفروسية وبحكم أنه كان يطل داحس والغبراء[٢] ، ثم إن كان فارس عبس المجلي في المعارك فقد كانت أشعاره صوره نابضة بالقوة والبسالة الفائقة .

ومعلقته تصوير واضح لنفسيته ومشاعره وحياته وعواطفه وبطولته وأمجاده وتحرره من القيد ومن كل التقاليد البالية التي لا تعتمد على المجد الشخصي ثم إنه قد أشار في معلقته سيرة الشعراء السابقين له ، فذكر الديار كما ذكروها ، ووصف الناقة كما وصفوها ، وافتخر بالكرم والنجدة والبطولة وبشرب الخمر ، وفيها معان رائعة نادرة لم يوردها غيره ، وقد قال عنها ابن سلام إنها نادرة[٣] . ومن يقرأ هذه المعلقة يجد أنها مجموعة من الأنغام الموسيقية العذبة الرقيقة تارة والعنيفة تارة أخرى حيث تجاذبتها عاطفة الغزل بعبلة مرة ، وعاطفة الشجاعة والحماسة تارة أخرى عند القراع للأبطال .

---

(١) الشعر والشعراء ٢/٢٥٢ .

(٢) أشعار الشعراء الستة الجاهليين ١/١٢٦ .

(٣) نفس المصدر السابق .

ثم اشتملت هذه المعلقة على طائفة من التشبيهات الرائعة مثل تشبيه الظليم وقد تبعته النعام بالعبد الأسود وقد ثابت إليه الإبل .

تَأوي إليه قلصُ النعامِ كما أَوتْ　　حِزقٌ بجانبهِ لأعجمَ طَمْطَمِ

وهناك تشبيه آخر أعجب به النقاد ؛ حيث وصف ثغر صاحبته بالجمال وطيب النشر فذكر فأرة المسك ، وذكر الروضة الأنف التي ألح عليها الغيث حتى زكا نبتها وكثر فيها الذباب مبتهجاً مترنماً :

وكأنَّ فأرةَ تاجرٍ بقسيمةٍ　　سبقت عوارضَها إليك من الفَمِّ[1]

أو روضةً أُنفاً تضمن نبتَها　　غيثٌ قليلُ الدِمن ليس بِمُعْلَمِ

وخلا الذبابُ بها فليس ببارحٍ　　غزواً كفعلِ الشاربِ المترنِمِ

والآن بعد هذا العرض الموجز لشجاعته أورد أهم الأيام التي كان فيها عنترة فارس الميدان وسيد الوغى عند احتدام المعارك ، وقد وجدت بعد دراستي التامة لديوانه أنه قد اشترك فيما لا يحصى من الأيام إما مع قبيلته ضد أعدائها التقليديين مثل قبائل عامر وطيء وتميم وسليم وهوازن ، أو مع القحطانيين ، أو مع العرب كافة في وجه العجم ، وهذا ما حدث في يوم ذي قار حيث اشترك عنترة مع عبس في مساندة قبيلة بكر بن وائل وغيرها ضد الفرس وهذه هي أهم الأيام والوقائع .

أولاً : يوم أقرن[2] :

هذا اليوم مشهور في تاريخ الحروب بين عبس وبين بني تميم ، والسبب في حدوث هذا اليوم كما تحدث الروايات أن حنظلة من بني تميم غزا بني عبس وعليهم عمرو بن عمرو بن عدي الدارمي ، فقتله بنو عبس ، وتزعم بنو تميم أن

---

(١) أشعار الشعراء الستة الجاهليين ص ١٢٧ .

(٢) ديوانه ص ١٨ وأشعار الشعراء الستة الجاهليين .

عبس تجمعت وهزمت تميم ويعرف هذا اليوم بيوم أقرن، وقد وصفه عنتره فقال:

كأنَّ السرايا بينِ قُوٍّ وقارةٍ ... عصائبُ طيرٍ ينتحين لِمشربِ[1]

فقل للناعيات إذا بَغَتَهُ ... ألا فاقصرن ندبَ النادباتِ

ولا تندبن إلا ليثَ غابٍ ... شجاعاً في الحروبِ الثائراتِ

دعوني في القتال أَمُتْ عزيزاً ... فموت العز خيرٌ من حياةِ

ستَذكرني المعامعُ كلَّ وقتٍ ... على طولِ الحياةِ إلى المماتِ

وإني اليومَ أحمي عرضَ قومي ... وأنصرُ آلَ عبسٍ على العداةِ

وآخذُ مالنا منهم بحربٍ ... تخرُّ لها متونُ الراسياتِ

إننا لا نستغرب هذه الأفكار الحماسية من شاعر بطل وفارس مغوار كعنترة ، فقد غرست فيه الحروب عزة أبية وحمية تأبى الذل وترضى بحياة الفخر ، وهو إن ذكر هذه المعامع في شعر فإنه صورة من حياة العرب في الجاهلية فريدة ، وقد نقر مثل هذه الشجاعة التي امتدحها عنترة ولكن بشروط معينة لا طغيان ولا جور فيها .

ويبدو لي أن عنترة كان يكثر من الإغارة على قبائل قحطان ؛ إما ردّاً لثأر وإما إغارة للسلب ، وقد أوردنا في القطعة السالفة شيئاً من ذلك ، وأورد الآن شيئاً من إغارته الثانية على قبيلة زيد القحطانية وهي قبيلة عمرو بن معد يكرب المشهورة[2] .

ألا مَنْ مبلغٌ أهلَ الجحودِ ... مقالَ فتىً وفيٍّ بالعهودِ[3]

---

(١) الديوان ص ١٨ وأشعار الجاهليين ص ١٤٩ والسرايا : جمع سرية وهو الجيش الصغير ، وقو وقارة : منزلان ، والعصائب : جمع عصابة ، وينتحين : يقصدن .

(٢) ديوانه ص ٥٣ .

(٣) قدّ : قطع ، زبر الحديد : قطعه ، الواحدة زبرة، والشرارة : اللمعان ، والهزبر : الأسد ، الجليد : الصلب .

سأخرجُ للبرازِ خليَ بالٍ ... بقلبٍ قُدَّ من زُبرِ الحديدِ
وأطعن بالقَنا حتى يراني ... عدوي كالشرارةِ من بعيدِ
إذا ما الحربُ دارتْ لي رَحاها ... وطاب الموتُ للرجلِ الشديدِ
وخيلٌ عودت خوضَ المنايا ... تشيب مفارقَ الطفلِ الوليدِ
سأحملُ بالأسودِ على أسودٍ ... وأخضبُ ساعدي بدمِ الأسودِ
بمملكةٍ عليها تاجُ عزٍّ ... وقومٌ من بني عبس شُهودِ
فأما القائلون هزبرُ قومٍ ... فذاك الفخرُ لا شرفُ الجدودِ
وأما القائلون قتيلُ طعنٍ ... فذاك مصرعُ البطلِ الجليدِ

ويقول :

وقد كنتُ أَخشى أَن أموتَ ولم تقمْ ... قرائبُ عمروٍ وسطَ نوحٍ مسلّبِ[(١)]
شفى النفس مني أو دنا من شفائِها ... ترويهم من حالقٍ متصبِّبِ[(٢)]
تصيحُ الردينياتُ في حجباتِهم ... صياحَ العوالي في الثقافِ المثقَّبِ[(٣)]
كتائبُ تُزجى فوق كلِّ كتيبةٍ ... لواء كظلِّ الطائرِ المتقلبِ[(٤)]

فإننا نشاهد هنا افتخار عنترة بما بذله في حربه ضد بني تميم ، وكيف أنه كان المقدام في جذ الرؤوس . وهو هنا فخور جداً بأنه شفى نفسه ، ونلاحظ

---

(١) قرائب جمع قيريبة وهي المرأة التي تنتسب إليه ، ونوح جماعة النائحات ومسلب عليهن ثياب الحداد .

(٢) حالق : جبل مرتفع ، والتروي : السقوط .

(٣) الردينيات : رماح منسوبة إلى ردينة ، وهي المرأة التي كانت تقوم بصناعتها ، والحجبتان : حرفا الورك ، والعوالي : رؤوس الرماح ، والثقاف : ما تسوى به الرماح .

(٤) الكتائب : جمع كتيبة ، مجموعة من الجنود ، تزجى : تساق .

في هذه الأبيات أن الجانب الفردي كان أساس هذا الفخر ، الذي استحقه بجدارة عندما شفى نفسه الظمأى من دم الأعداء .

وفي موقعة أخرى مع بني زبيد نلمس أن حلّق في أجواز السماء بما وصفه من شروط حتى يستحق الحياة الكريمة ، فإذا كان المرء قانعاً بالعيش الهنيء ، ثم جلس مع البنات وراء ستر البيت ، ولم يهجم على الأعداء ، ولم يطعن الجياد ، ولم يكرم الضيوف ، ولم يرو سيفه من الشجعان ، ولم يصبر على نوائب الدهر ، فإنه لا يستحق الحياة الشريفة ، وهذا ظاهر في قوله من توعد بني زبيد[1] :

إذا قَنِعَ الفتى بذميمِ عيشٍ وكان وراءِ سجفٍ كالبناتِ
ولم يهجمْ على أُسدِ المنايا ولم يَطعْن صدور الصافِناتِ
ولم يقرِ الضيوفَ إذَا أتَوْه ولم يكُ صابراً في النائباتِ

فعنترة في هذه القطعة اختار الألفاظ الهياجة والمعاني القوية ، وأدخل نفسه في صميم الافتخار الحماسي ، وهو لا يقتل إلا الأبطال والأسود الأشداء .

ويقول في قطعة أخرى حيث يباهي بإغارته على كندة ؛ خثعم بعد أن يورد شجاعته هنا في هذه القطعة لا ينسى أن يذكر محبوبته عبلة بفعله وإقناعها بجدارته ، وأحقيته في قبولها به زوجا ، لها يقول[2] :

أَلا يا عبلَ قد عاينتِ فَعلي وبانَ لكِ الضلالُ من الرّشادِ[3]
طرقتُ ديَار كِندةَ وهي تدوي دوي الرعدِ من ركضِ الجيادِ

---

(1) ديوانه ص ٢٧ ، والسجف : الستر ، والضامن من الخيل : الذي يقف على ثلاث قوائم ، وقرى الضيف : أضافه والكماة : جمع كمي وهو الشجاع أو لابس الحديد .
(2) ديوانه ص ٥٥ .
(3) المزاد : جمع مزادة ، وهي الراوية والسرايا : جمع سرية .

وبددتُ الفوارسَ في رُباها بطعنٍ مثل أفواهِ المزادِ

وخثعمُ قد صبحناها صباحاً بكوراً قبلَ ما نادى المُنادي

وعدنا بالنِهابِ وبالسَّرايا وبالأسرى تُكَبَّلُ بالصِفادِ

فإننا نلاحظ في هذا الشعر اتجاهين واضحين : الأول أنه يريد أن يقنع عبلة بقدرته الحربية وبطولته الخارقة ، بصرف النظر عن سواده الذي هو عرض ، والآخر أنه قد كان له المكانة اللائقة في هذه الإغارة ؛ حتى إنه رجع محملا بالأسلاب وبالأسرى المقيدين بالقيود .

ورغم أن عنترة كان لا يجد التقدير من بعض قومه بسبب لونه ؛ إلا أنه كان ينسى هذا الحقد في ساعة الشدة ، من ذلك ما يقوله في رد اعتداء قبيلتي هوازن وخثعم يقول[1] :

سَكَتُّ فَغَرَّ أعدائي السكوتُ وظنوني لأهلِي قد نَسِيتُ

وكيف أنامُ عن ساداتِ قومٍ أَنا في فضلِ نِعمتهم رُبِيتُ

فهو لا ينسى قومه بني عبس في ساعة الحرج ، ثم يصف شجاعته فيقول : (من نفس القصيدة السابقة) :

خُلقتُ من الحديدِ أَشدُّ قلباً وقد بلي الحديدُ وما بليتُ

وإني قد شربتُ دمَ الأعادي بأقحافِ الرؤوسِ وما رويتُ

وفي الحربِ العوانِ ولدتُ طِفْلاً ومن لبنِ المعامعِ قد سُقِيتُ

فهو مخلوق من حديد ، شديد لمقابلة الأعداء ومواجهة تحديات الخصوم ، وهو لا يلتذ في حياته إلا بشرب دم الأعداء . فألفاظ هذه القطعة متينة السبك ، رفيعة المكانة عالية الهمة . ناهيك عما بها من صور خيالية جميلة متلاحقة تسبح في عالم المجد والرفعة القبلية .

---

(١) ديوانه ص ٢٩ .

على أننا في كل هذا الأشعار التي أبدعها عنترة الفارس ؛ نجد الحديث عن صفات يريد عنترة أن يقولها للناس جميعاً من قوته وشجاعته ، وحرصه على الموت ، واستهانته بالحياة . وربما كان الدافع من هذا كله هو المجد الشخصي وهذا الجانب حذر منه الإسلام ، فقد ذكر أبو موسى الأشعري ـ رضي الله عنه ـ أن أعرابياً أتى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ، الرجل يقاتل للمغنم والرجل يقاتل ليذكر والرجل يقاتل ليرى مكانه ؟ وفي رواية يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ، وفي رواية يقاتل غضباً ، فمن في سبيل الله ؟ . . فقال رسول الله ﷺ : « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله »[1] .

ويبدو أن عنترة كان حريصاً على السمعة والذكر الحسن بين قبائل العرب ، ويقول عنترة في خروجه لقتال العجم[2] :

أشاقكَ من عبلَ الخيالُ المبهجُ ... فقلبك منه لاعجٌ يتوهّجُ[3]

ألما بماءِ الدحرضين فَكَلّما ... ديارُ التي في حبها بتُّ ألهجُ

كأن دماءَ الفُرسِ حين تحدرتْ ... خلوقُ العذارى أو قباءٌ مدبجُ

فويلٌ لكسرى إن حللت بأرضهِ ... وويلٌ لجيش الفرسِ حين أعجعجُ

وأحملُ فيهم حملةً عنتريةً ... أردُّ بها الأَبطال في القفرِ تنبجُ

وأصدمُ كبشَ القومِ ثم أُذيقُه ... مرارةَ كأس الموت صبراً يمججُ

وإني لحَّمالٌ لكلّ ملمةٍ ... تخرُّ لها شممُ الجبالِ وتزعجُ

---

(1) منهاج الصالحين ص ٧٠٠ .

(2) ديوانه ص ٣١ .

(3) المبهج : على صيغة المفعول : الحسن ، وفي رواية المبرج ، ولاعج : أي في حرقة ، وألما زورا والد حرضان : موضعان ، ويلهج : يغري بي ، التحدر : السقوط ، والخلوق : ضرب من الطيب ، القباء : ثياب ، ومدبج : منقوش ، أعجج : أصبح ، والنبج : الصوت ، وكبش القوم : سيدهم ، ويمجج : يلفظ ، الملمة : المصيبة ، واللفائف : الكفن .

وإني لأحمي الجارَ من كلِّ ذلّةٍ — وأفرحُ بالضيفِ المقيمِ وأبهجُ
وأحمي حِمى قومي على طولِ مدتي — إلى أن يروني في اللفائفِ أدرجُ
فدونكم يا آل عبسٍ قصيدةً — يلوحُ لها ضوءٌ من الصبحِ أبلجُ
ألا إنها خيرُ القصائدِ كلِّها — يفصلُ منها كلُّ ثوبٍ وينسَجُ

فالقصيدة هنا رائعة حقاً في المغزى الحربي ، حيث بدأها عنترة بالغزل والشوق إلى عبلة ، ثم تناول وصفها حسياً ومعنوياً ، وذكر وقائعة في الفرس الذي قهرهم بشجاعته وبطولته ، ورغم هذا الحرص على ذكر شدته وبطشه بالعداة فإنه يذكر الإيجابيات الرفيعة من حماية الجار وإكرام الضيف ورد الاعتداء ، ويباهي بقصيدته هذه ، ويقول إنها خير القصائد الحربية وحق لها ذلك لأنها درة ناصعة من الجمال البياني والسحر والخيال وهي تمسك بتلابيب من يقرأها لإكمال هذا الوصف عن وقعة بين العرب وبين الفرس .

ثانياً : يوم ذي قار :

هذا يوم مشهود من أيام العرب في الجاهلية، التي اجتمع العرب فيه لأول مرة لحرب العجم كأمة واحدة ، وهناك بعض الروايات تقول إنه كان على عهد الرسول ﷺ[1] ، وقيل كانت وقعة ذي قار عند منصرف النبي ﷺ من وقعة بدر ، وكان أول يوم التقت فيه العرب من العجم وبرسول الله ﷺ انتصفوا ، وهي من مفاخر بكر بن وائل . وحدث في عام ٦١٠ م - (عام البعثة)[2] - ، ويقال إن عنترة قد شارك في هذه الوقعة[3] .

وذو قار ماء لبكر بن وائل قريب من الكوفة بينها وبين واسط وحنو ذي قار على ليلة منه ، وفيه كانت الواقعة المشهورة بين بكر بن وائل والفرس ، وكان

---

(١) العمدة ١/٢١٧ ، ومعجم البلدان لياقوت الحموي ٤/٢٩٤ .
(٢) الأدب العربي ١/٢٠٨ .
(٣) الأدب العرب ١/٢٠٨ .

من حـديث ذي قـار : أن كسـرى لمـا غضب على النعمـان بن المنـذر بسبب عدي بن زيد وزيد ابنه في قصة فيها طول ؛ أتى النعمان طيئا فأبـوا أن يدخلوه جبلهم وكانت عند النعمان ابنة سعد بن حارثة بن لأم ، فأتـاهم للصهر ، فلمـا أبوا دخوله مر في العرب ببني عبس فعرض عليه بنو رواحة النصرة ، فقال لهم : لا أيدي لكم بكسرى ، وشكر ذلك لهم ثم وضع وضائع له عند أحياء العرب ، واستودع ودائع فوضع أهله وسلاحه عند هانىء بن قبيصة بن هانىء بن مسعـود أحد بني ربيعة بن ذهـل بن شيبان ، وتجمعت العـربان مثـل بني عبس وشيبان وغيرهم وأرادوا الخروج على كسرى ، فأتى رسول كسرى بالأمان على الملك النعمان، وخرج النعمان معه حتى أتى المدائن، فأمر به كسرى فحبس بساباط، فقيل إنه مات بالطاعون ، وقيل طرحه بين أرجل الفيلة فداسته حتى مات ، ثم قيل لكسرى إن ماله وبيته قد وضعه عند هانىء بن قبيصة بن هـانىء بن مسعود الشيباني فبعث إليه كسرى أن أموال عبدي النعمان عندك فابعث بها إليّ فبعث إليه أن ليس عندي مال ، فعاوده فقال أمانة عندي ولست مسلمها إليك أبـداً . فبعث كسرى إليه الهامرز وهو مرزبانه الكبير في ألف فارس من العجم ، وخناير في ألف فارس وإياس بن قبيصة وكان قد جعله في موضع النعمان ملك الحيرة في كتيبتين شهباوين ودوسر ، وخالد بن يزيد البهراني في بهراء وإياد والنعمان بن زرعة التغلبي في تغلب والنمر بن قاسط ، قال وإن العربان المجتمعـة عند هانىء بن قبيصة أشاروا عليه أن يفرق دروع النعمان على قومه وعلى العربان ، فقال هي أمانة ، فقيل له إن ظفر بك العجم أخذوها هي وغيرها ، وإن ظفرت أنت بهم رددتها على عادتها ففرقها على قومه وغيرهم وكـانت سبعة آلاف درع وعبي بنو شيبان تعبية الفرس ونزلوا أرض ذي قار بين الجهتين ، ووقعت بينهم الحرب ونادى منادي العرب إن القوم يغرقونكم بالنشاب ، فاحملوا عليهم حملة رجل واحد ، وبرز الهامرز فبرز إليـه يزيـد بن حارثـة اليشكري فقتله ، وأخـذ ديباجه وقرطيه وأسورته وكان الاستظهار في ذلك اليوم الأول للفرس ، ثم كـان ثـاني يـوم وقـع بينهم القتـال ، فجـزعت الفـرس من العــطش فصـارت إلى

الجبابات ، فتبعتهم بكر وباقي العربان إلى الجبابات يوماً ، فعطش الأعاجم فمالوا إلى بطحاء ذي قار وبها اشتدت الحرب وانهزمت الفرس ، وكانت وقعة ذي قار المشهورة في التاريخ أنها يوم ولادة رسول الله ﷺ وكسرت الفرس كسرة هائلة وقتل أكثرهم . وقيل كانت وقعة ذي قار عند منصرف النبي من وقعة بدر ، وكان أول يوم انتصف فيه العرب من العجم وبرسول الله ﷺ انتصفوا وهي من مفاخر بكر بن وائل[1] .

ويوم ذي قار من أشهر أيام العرب مع العجم ، ولهذا اليوم عدة أسماء قال أبو عبيدة[2] : يوم ذي قار هو يوم الحنو ، ويوم قراقر ، ويوم الجبابات ، وقوم ذات العجرم ، ويوم بطحاء ذي قار ، وكلهم حول ذي قار ، وقد ذكرتهن الشعراء وافتخر كثير منهم بهذا اليوم الذي انتصر فيه العرب ، ووقفوا لأول مرة في وجه الفرس المعتدين . وجال شعراء العرب في تصوير مشاعر البهجة والاعتزاز لدى العرب جميعاً بهذا النصر المؤزر ، من ذلك ما يقوله العديل بن الفرخ العجلي[3] :

ما أوقدَ الناسُ من نارٍ لمكرمةٍ إلا اصطلينا وكُنا موقدي النارِ[4]
وما يعدون من يومٍ سمعتُ به للناس أفضلَ من يومٍ بذي قارِ
جئنا بأسلابِهم والخيلُ عابسةٌ لما استلبنا لكسرى كل إسوارِ

فهذا اليوم عند الشاعر يوم عظيم المكانة ، حيث أنه لم يسمع قط أن العرب وقفوا متحدين كأمة في وجه أولئك الفرس الغاشمين . وقد كان من نتائج هذا النصر أن وقع صناديد الفرس وأسلابهم وعتادهم في أيدي العرب ، وعلى

(١) معجم البلدان ٤/٢٩٤ .
(٢) العقد الفريد ٥/٢٦٢ .
(٣) العقد الفريد ٥/٢٢٦ وأيام العرب ص ٣٧ .
(٤) الإسوار ـ بكسر الهمزة وضمها ـ الفارس المقاتل من فرسان الفرس ، وقيل هو القائد أو الجيد الرمي بالسهام أو الجيد الثابت على ظهر الفرس .

أية حال فإننا نلمس في هذه الأبيات الروح الجماعية العربية لأول مرة بعد أن كان الشعور فردياً خاصاً بالقبيلة أو فئة معينة من القبيلة .

وفي ذلك اليوم يقول أعشى قيس مفتخراً[1] :

أمـا تـميمُ فقـد ذاقتْ عـداوتَنـا … وقيسُ عيلَان مسَ الخزي والأَسفِ
وجنـدُ كسرى غـداةَ الحنـوِ صبَّحهم … منا غطاريفُ تزجى الموتَ فانصرفـوا
لقـوا ململمـةً شهبـاءَ يقـدمهـا … للمـوت لا عـاجـزٌ فيهـا ولا خـرفُ
فـرعٌ نمتـه فـروعٌ غيـرُ نـاقصـةٍ … مـوفـقٌ حـازمٌ فـي أمـره أَنِـفُ
فيهـا فـوارسُ مـحمـودٌ لـقـاؤهم … مثـلُ الأَسنـةِ لا ميـلٌ ولا كُشفُ
بيضُ الـوجوهِ غـداةَ الروعِ تحسبُهم … جنـانُ عينٍ عليهـا البيضُ والـزُعُفُ
لمـا رأونـا كَشْفِنَـا عن جماجِمِنـا … ليعلمـوا أننـا بكـرٌ فينصـرفـوا[2]
قـالـوا البقيـةَ والهنـديُ يحصـدُهم … ولا بقيـةَ إلا الـسيفُ فـانكـشفـوا
لـو أن كـلَّ معـدٍ كـان شـاركنـا … في يوم ذي قارَ مـا أخطاهم الشرفُ
لمـا ألمـوا إلى النشـاب أيـديهم … ملنـا ببيض فـظل الهـامُ يختـطفُ
بَـطارقٌ وبـنـو مـلك مـرازبـةٌ … من الأعـاجم فـي آذانهـا الـنـطفُ
من كـلِّ مرجـانة في البحـر أحرزهـا … تيـارهـا ووقـاهـا طينهـا الصـدفُ
كـأنمـا الآل فُي حـافـاتِ جمِعهم … والبيض بـرقٌ بـدا في عـارض يكفُ
ما في الخدودِ صـدودٌ عن وجوههم … ولا عن الـطعنِ في اللبـات منحـرفُ
يحسـرن عن أوجهٍ قـد عـاينت عِبَـراً … ولاحـهـا عَبْـرة أَلـوانُـهـا كُـسُـفُ

---

(١) العقد الفريد ٥/٢٦٦ وأيام العرب ص ٣٤ .

(٢) في رواية بدل رأونا التقينا ، أيام العرب ص ٣٤ ، والعقد الفريد ٥/٢٦٦ ، البقية : أي أبقوا علينا ولا تستأصلونا ، والهندي : السيف المطبوع في الهند ، والنطف : الأقراط ، وفي رواية الشنف ، تجف : تضطرب .

وخيـلُ بكرٍ فمـا تنفك تـطحنُهم حتى تـولـوا وكـاد اليـوم ينتصفُ

فالشعور هنا شعور عربي جماعي خالص ، حيث اتخذ الأعشى وهو من قيس التي ينضوي تحت لوائها قبيلة بكر ، وقد فتك العرب بعلوج الفرس سادةً وفرساناً وأبطالاً ، وما حدث هذا إلا بعد اتحاد وشعور متّقد ، ووعي جماعي ، وقد كانت آثارها هذا الاتحاد عظيمة بعد إيمان أولئك العرب بالإسلام فتحاً مؤزراً وتسامحاً عظيماً ورحمةً للعالمين .

وقال أبو كلبة التيمي[1] :

لـولا فـوارسُ لا ميـلٌ ولا عـزلُ من اللهـازم ما فُـزْتُم بـذي قَـارِ[2]

إن الفـوارسَ من عُجْـلٍ هم أَنِفـوا من أن يخلوا لكسرى عَرْصـةَ الـدارِ

فالفخر هنا تسوده الروح الجماعية لأن طبيعة المعركة ومساهمة قبائل العرب فرضت هذا الشعور الدفاق ، فخرجت بكل تحدٍّ أمام جموع العلوج من الفرس الأعاجم .

ومن خلال المعركة استشعر لقيط بن يعمر الإيادي روح النصر والحرص على بني شيبان[3] :

قـومـوا قيـامـاً على أقشـاط أرجلِكم ثم افـزعوا قـد ينالُ الأمنَ من فَـزِعَـا

وقـلِّدوا أَمـرَكُـم لله درُّكُـم رحبَ الذراعِ بأمر الحَرْب مضطلعا

لا مترفـاً إنْ رخـاءُ العيشِ سـاعـدَه ولا إذا عضّ مكـرَوهٌ بـه خَشَـعَـا

---

(١) أيام العرب ص ٣٧ .

(٢) الأصيل : الذي لا سيف معه وقيل الذي لا رمح معه ، وقيل هو الذي لا ترس معه ، والعزل : الذي لا سلاح معه ، واللهازم : بنو تيم الله بن ثعلبة ، وفظتم متمم . وفي مهذب الأغاني فظتم ، والعرصة : الساحة لا بناء فيها .

(٣) أيام العرب ص ٣٩ .

مـا زال يحلبُ هـذا الـدهَـرَ أَشْـطُـرَه   يـكـون مُـتَّـبَـعاً طوراً ومـتَّـبِـعـا[1]
حتى استمـرت على شـزر مـريـرتُـه   مستحكمَ الـرأي لا قحماً ولا رَضِعَـا

ويبدو أن لقيطاً هذا كان في بـلاد الفرس فـأرسل هـذه الصيحة تحـذيراً وإنذاراً للعرب لأخذ أهبتهم لمواجهة علوج الفرس وأسدى خالص وأزكى ما في نفسه من حرص لهؤلاء العرب الذين هم قومه وهذا كله من أجل انتصار العرب في هذا اليوم الأبلج ، وقال بكير أصم بني الحارث بن عباد يمدح شيبان [2] :

إن كنت سـاقيـةَ المُـدامـةِ أهلهَـا   فـاسقي على كـرمٍ بني همَّـامِ[3]
وأبـا ربـيـعـةٍ كـلَّهـا ومـحـلّمـا   سـبـقـاً بـغـايـة أمـجـدِ الأيـامِ
ضـربـوا بني الأحـرار يـومَ لقـوهم   بـالمشـرفي على مـقيـلِ الـهـامِ
شَـدَّ ابنُ قيسٍ شـدةً ذهبت لـهـا   ذِكـراً لـه فـي مَـعْـرِقٍ وشـآمِ
عـمـرو ومـا عمـرو بـقحـم دالفٍ   فـيـهـا ولا غـمـرٌ ولا بـغـلامِ

فإن غاية هذا المدح منصب على بيان شجاعة بني شيبـان ، وكيف أنهم لقنوا أحرار فـارس درساً قـاسياً ، وكـان المقاتلون من الشبـان الشجعان ليسـوا بشيوخ ولا بصغار السن .

ويروى أن عنترة ساهم في يوم ذي قار ، وفي ديوانه عن قصائد قالها أثناء خروجه لحرب العجم دون أن يذكر موقعة ذي قار صراحة ، ولا بـأس من ذكر بعض هذه القصائد ، ولعل فيها ذكراً لهذه الموقعة الكبرى بين العرب كأمة وبين الفرس ، من ذلك ما يقوله[4] :

---

(١) القحم :الكبير في السن من الإبل ، حلب فلان أشطره : أي خبره حقيقة .
(٢) أيام العرب ص ٣٩ .
(٣) المدامة : الخمر ، المشرفي : السيف ، القحم : الكبير من الإبل ، وقال الجوهري : شيخ قحم : أي هرم كبير .
(٤) ديوان عنترة ص ٣١ .

كـأنَّ دمـاءَ الفـرسِ حيْن تحـدّرتْ خلوقُ العـذارى أَو قبـاءٌ مـدبـجُ[1]
فـويـلٌ لِكسـرى إن حللتُ بـأرضِـه وويـل لجيش الفـرسِ حينَ أُعجـجُ
وأحـمـلُ فيـهم حـمـلةً عـنتـريّـة أردُّ بهـا الأبـطال في القفـرِ تنبـجُ
وأصـدمُ كـبشَ القـومِ ثـم أذِيـقُه مـرارةَ كـأسِ المـوتِ صبـراً يمجـجُ
وآخـذُ ثـأرَ النَـدْبِ سيـد قـومِـهِ وأضـرمُهـا في الحـربِ نـاراًتُـؤجَّـجُ
وإني لأحمي الجـار من كـلِّ ذلّـةٍ وأفـرحُ بـالضيفِ المقيمِ وأبهـجُ
وأَحمي حِمى قومي على طولِ مدتي إلى أن يـروني في اللفـائـفَ أدرجُ
فـدونكم يـا آلَ عبسٍ قصيـدةً يلوحُ لهـا ضـوءٌ من الصبـحِ أبلجُ
ألا إنهـا خيـرُ القصـائـدِ كـلهّـا يفصَّـلُ منهـا كـلُّ ثـوبٍ وينسـجُ

فالوصف هنا رائع من حيث دقة التصوير في القتلى والهجوم والكرّ والفرّ .

ويعتز عنترة اعتزازاً عظيماً بفتوته وفروسيته ، ويهدد كسرى ملك الفرس نفسه بالويل والثبور وعظائم الأمور لأنه ليس كفؤاً للعرب حتى يحاربهم ويقول في قطعة أخرى[2] :

ولقـد لقيتُ الفـرسَ يـابنـةَ مـالـكٍ وجيـوشُهـا قـد ضـاق عنهـا البيـدُ[3]
وتـمـوجُ مـوجَ الـبحـر إلا أنّـهـا لاقـت أسـوداً فـوقـهـن حـديـدُ
جـاروا فحكَّمنـا الـصـوَارِمَ بيننـا فقضتْ وأطـرافُ الـرمـاحِ شهـودُ

---

(١) التحدر : السقوط ، الخلوق : ضرب من الطيب ، القباء : نوع من الثياب ، ومدبج : منقوش ، أعجج : أصبح فيهم ، النبح : شدة الصوت ، الكبش : سيد القوم ، يمجج : أي يلفظ : الندب : الخفيف في الحاجة ، الملمة : الشدة ، وشم الجبال : المرتفعة ، أبهج : أفرح ، اللفائف : الكفن .

(٢) ديوان عنترة ص ٦٥ .

(٣) ديوان عنترة ص ٦٥ .

يـا عبلَ كم من جحفلٍ فرقتُه والجو أسودُ والجبالُ تميدُ
فسطا عليَّ الدهرُ سطوةَ غادرٍ والدهرُ يَبخلُ تارةً ويجودُ

وأسباب هذه القصيدة كما هو في ديوانه أنه وقع أسيراً في حرب كانت بين العرب والعجم ؛ فتذكر أيامه مع عبلة ، ويصف هنا هذه المعركة وأنها كانت كثيفة بالجنود من الفرس كثرة موج البحر إلا أنها لاقت أبطالاً شجعاناً من العرب ردوا عليهم الصاع صاعين ، ويذكر تفوقه وإقدامه وكيف أنه تغلب على الفرس بشجاعته وثباته ، حتى فرق جموع أولئك العلوج من القوم المعتدين ، ولكنه للأسف الشديد وجد أخيرا عاقبة سيئة ، حيث وقع أسيراً عند أولئك الأعداء وبقي في السلاسل حيناً .

وقال يتوعد جموع الفرس بالحرب[1] :

يـا عبلَ لا تَخْشَي عليَّ من العِدَا يوماً إذا اجتمعتْ عليَّ جموعُها[2]
إن المنيةَ يا عبيلةُ دوحةٌ وأنا ورمحي أَصلُها وفروعهُا
وغداً يمرُّ على الأعاجمِ من يدي كأسُ أمرُّ من السمومِ نقيعُها
وأُذيقُها طعناً تذلُّ لِوقعهِ ساداتُها ويشيبُ منه رضيعُها
وإذا جيوشُ الكَسروي تَبادَرتْ نحوي وأَبْدَتْ ما تَكنُّ ضُلوعُها
قَاتلتُها حتى تملَّ ويَشْتَكِي كَرْبُ الغبارِ رفيعُها ووضيعُها
فيكون للأسد الضواري لحمُها ولمن صحبنا خيلُها ودروعُها
يا عبلَ لو أنَّ المنيةَ صُوّرتْ لغدا إلي سجودُها وركُوعها

(١) ديوان عنترة ص ١٠١ .
(٢) الدومة : الشجرة العظيمة ، النقيع : الشراب ، الكسروي : نسبة إلى كسرى ، الكرب : وهو الأمر الصعب ، الوضيع : الأمر الحقير ، سطا ، يسطو : أي هال في الميدان .

وسطتُ سيفي في النفوسِ مبيدةً   من لا يجيب مقالهَا ويطيعُها

فهذه الأبيات يحلق فيها عنترة في عنان السماء حيث يقول إنه مخلوق للحرب ولا يخشى الأعداء ، وهو سيف ورمح ودرع لا يجرؤ أحد أن يقهره ، حتى إن فرسان الفرس الكبار يخشونه حقاً ولا يكون مصيرهم إلا الإبادة والتدمير . أما أجسامهم فإنها طعام سائغ لوحوش البر من الأسود والضباع ، وخيولهم ودروعهم من نصيب الفرسان المنتصرين .

ويقول في قطعة أخرى يصف فيها ما كان بين بني عبس وبين الفرس وكيف أنه حمى الذمار ويطمئن عبلة على نفسها بعدم الخوف[1] :

يا عبلَ قَري بوادِ الرملِ آمنةً   من العداةِ وإن خوفتِ لا تَخَفِي[2]
فدون بيتك أسدٌ في أناملها   بيضٌ تقد أعالي البيضِ والحجفِ
لله درُّ بني عبسٍ لقد بلغوا   كلَّ الفخارِ ونالوا غايةَ الشرفِ
خافوا من الحرب لما أَبصروا فرسي   تحت العجاجةِ يهوي بي إلى التلفِ
ثم اقتفوا أثري من بعدِ ما علموا   أن المنية سهمٌ غيرُ منصرفِ
خضت الغبارَ ومهري أَدهمٌ حلِكٌ   فعاد مختضباً بالدمٍ والجِيَفِ

فاعتداد عنترة بنفسه وغيرته على نساء قومه ومنهن أحب الناس إليه وهي عبلة ابنة عمه ، ثم إنه يطمئن محبوبته من أي خطر داهم ، ثم يمتدح شجاعته قومه بني عبس حيث أنهم بلغوا الذروة العليا في المكارم والأمجاد العربية حماسةً وحرباً وفخاراً .

ولم يقف فخر الشعراء العرب بهذا الانتصار الذي حققه العرب في يوم ذي قار عند شعراء الجاهلية وحسب ؛ بل امتد إلى عصور تالية حيث امتدح

---

(١) ديوان عنترة ص ١٠٨ .

(٢) البيض : السيوف ، وتقد : تقطع ، والحجف : محركة التروس من جلود بلا خشب .

الشعراء الكبار هذا اليوم واتخذوه وسيلة للمجد والفخر عند من كانوا من القبائل التي شاركت في الفرس ، وأمثال خالد بن يزيد بن مزيد الشيباني ، من ذلك ما مدح به أبو تمام أبا دلف العجلي[١] في العصر العباسي ولعل أبا دلف كان من ذوي السلطان في قومه فقول :

إذا افتخـرتْ يـومـاً تميمٌ بقـوسِهـا وزادتْ على مـا وطُـدتْ من مَنَـاقِبِ
فـأنتم بـذي قـار أَمـالتْ سيـوفُكم عروشَ الذين استرهنوا قوسَ صاحبِ

والمعنى أن تميماً إذا اتخذتِ القوس وسيلة للفخر على مالها من فضائل فإن قبيلة أبي دلف لها الفضل في تحقيق النصر ضد الفرس في يوم ذي قار ، ثم يذكر أبو تمام خالد بن يزيد بن مزيد الشيباني في قصيدة له فيقول[٢] :

أولاك بنـو الأفضـالِ لـولا فعـالُهُم دَرَجن فلم يـوجـد لمكـرمـةٍ عقبُ
لهم يـوم ذي قـارٍ مضى وهـو مفردٌ وحـيـدٌ مـن لـيس لـه عـقـبُ
بــه عَلِمتْ صهبُ الأعـاجـمِ أنَّـه به أعربت عن ذاتِ أنفسِها العُربُ[٣]
هـو الحشدُ الفـردُ الذي مـا نجـا بـه لكسرى بن كسرى لا سنامٌ ولا صلبُ

فأبو تمـام يحصر المكـارم والأمجاد في بني عمـه ، ولولا هم لم تـوجد مكرمة فذو قار يوم مشهود من أيام العرب وهـو يوم وحيـد ليس له شبيـه ، وقد علمت الأعاجم أن العرب أمة الشجاعة وقوم أباة للضيم .

وقال جرير في ذكر يوم ذي قار[٤] :

---

(١) معجم البلدان ٥/٢٩٤ .
(٢) معجم البلدان ٥/٢٩٤ .
(٣) الأفضال : جمع فضل وهو الخير والبركة ، والمكرمة : الحسب والمجد ، والعقب : الخلف أو الذرية ، والأشباه : النظائر والأمثال : وصهب : جمع أصهب ، وهو لون ، والمشهد : الموقعة الحربية ، والصلب : عماد الأمر أو العمود الفقري .
(٤) معجم البلدان ٥/٢٩٤ .

فلَمـا التقى الحيّانِ أُلقيتِ العَصَـا ... ومَـاتَ الهـوى لمـا أُصيبتْ مُقـاتِله

أبيت بـذي قـار أقـولُ لصحبتي ... لعـلّ لهـذا الليـلِ نحباً نُـطاوِلـه

فهيهـات هيهـات العقيـقُ ومن بـه ... وهيهـات خـلٌّ بـالعقيق نُـواصلـه

عشيةَ بعنا الحلمَ بِالجهلِ وانتحتْ ... بنـا أريحيـات الصَبـا ومجـاهلـه

فعند حدوث اللقاء بين العرب والفرس هاجت النفوس الثائرة ولم تجد بدا من الاستبسال ، ثم أصبح الجهل بديلا عن الحلم الذي عرف العرب به ، وكان ما كان من نصرٍ لأمةِ العرب جِمعاء ، اعتزت به ماضياً كما يعتزون به حاضراً .

ثانياً : عامر بن الطفيل العامري :

نسبه :

هو عامر بن الطفيل بن مالك بن جعفر بن كلاب من بني عامر بن صعصعة من قيس عيلان ، وأمه كبشة بنت عروة الرحال بن عتبة بن مالك بن جعفر ، وهو ابن عم لبيد الشاعر المشهور ، وكان فارس قيس وكان أعور عقيما[1] .

مولده :

ولد عامر بن الطفيل بعد يوم شعب جبلة في نحو سنة ٦٧ قبل الهجرة الموافق (٥٥٥ م)[2] ، وكان مولده في نجد حيث نشأ فارساً شجاعاً ، ثم إنه ساد قومه جميعهم ، وصار قائدهم في الغزوات ، فخاض معارك كثاراً في الجاهلية ، منها يوم فيف الريح وهي بين بني عامر وقبائل اليمن ، وفي تلك المعركة طعنه مسهر بن يزيد الحارثي طعنة بغدر ذهبت بإحدى عينيه . وفي صفر في السنة السابعة من الهجِرة بعث الرسول أربعين رجلا من المسلمين لدعوة

(١) الشعر والشعراء ١/٣٤ والمفضليات أول المفضلية ١٠٦ وتاريخ الأدب العربي ١/٢١٩ .

(٢) تاريخ الأدب العربي ١/٢١٩ .

أهل نجد إلى الإسلام فلما صاروا ببئر معونة بين أرض بني عامر وأرضٍ بني سليم عدا عليهم عامر بن الطفيل في جماعة من أهل رعل ، ثم إن عامرا جاء في سنة ٨ هجرية أو ٩ هجرية (٦٢٩) م على رأس وفد من بني عامر فيهم أربد بن قيس أخو لبيد الشاعر من أمه إلى المدينة ، فعرض الرسول ﷺ الإسلام على عامر وأربد فلم يسلما ، ويبدو أن عامر بن الطفيل قد توفي في أثناء رجوعه من المدينة بعد أن طعن (أصابه الطاعون) في نحو الثالثة والستين من العمر .

على أن هناك رواية أوردها ابن سعد في كتابه الطبقات[١] تقول إن عامر أتى النبي ﷺ فقال له : تجعل لي نصف ثمار المدينة وتجعلني ولي الأمر من بعدك وأسلم . فقال النبي ﷺ اللهم اكفني عامراً واهد بني عامر فانصرف وهو يقول لأملأنّها عليك خيلاً جرداً ورجالاً مرداً ولأربطنّ بكل نخلة فرساً فطعن في طريقه فمات ، وهو يقول أغدة كغدة البعير وموت في بيت سلولية . وهناك رواية تقول بينما كان عمر وأربد عائدين من عند الرسول ﷺ سقطت صاعقة على أربد فقتلته وأصيب عامر بالطاعون[٢] .

ويكنى عامر بن الطفيل بأبي عليّ وهو الذي نافر علقمة بن علاثة إلى هرم بن قطبة الفزاري [٣] .

وكان لعامر فرس اسمه المزنوق وله يقول[٤] :

وقد علمَ المزنوقُ أني أكرُّهُ   على جمعِهم كرَّ المُنيحِ المشهَّرِ
إذا ازورَّ من وقعِ السلاحِ زجرتُهُ   وقلتُ له اربعْ مقبلاً غيرَ مُدبِرِ

---

(١) طبقات ابن سعد ١/٥١ .
(٢) الشعر والشعراء ١/٣٣٥ .
(٣) ديوانه ص ٨ .
(٤) الشعر والشعراء ١/٣٣٥ .

فروسيته وشجاعته :

إذا أردنا أن نحكم أن إنساناً بلغ شأواً عظيماً من الشجاعة والإقدام فإن هناك شروطاً معينةً ينبغي مراعاتها لإصدار هذه التسمية . من هذه الشروط أن يكون الفارس قوياً في جسمه وروحه ، ومن هذه الشروط كثرة خوص المعارك ضد أعداء القبيلة ، ومنها كذلك شهادة الفرسان الآخرين بأن هذا فارس مغوار ، ثم قدرة هذا الفارس على قيادة المعركة بإتقان ووفاء وتخطيط محكم . وكل هذه الشروط توفرت للشاعر الفارس عامر بن الطفيل بالإضافة إلى حذقه في ركوب الخيل ، وكان لشاعرنا المقدام فرس اسمه المزنوق وله فرس آخر اسمه دعلج اقتناه بعد أن عقر المزنوق في يوم الرقم .

وعامر بن الطفيل من أشهر فرسان العرب بأساً ونجدةً وأبعدهم اسماً[١] ، حتى بلغ به ذلك أن قيصر الروم كان إذا قدم عليه قادم من العرب عظم به عنده ، حتى قدم عليه علقمة بن علاثة فانتسب له ، فقال : أنت ابن عم عامر بن الطفيل ؟ فغضب علقمة ، وقال : أراني لا أعرف إلا بعامر ! . . فكان ذلك مما أوغر صدره عليه وهيجه إلى أن دعاه إلى المنافرة . وقد شهد لعامر بالفروسية والإقدام فارس اليمن المشهور عمرو بن معد يكرب ، حيث قال[٢] : ما أبالي أي ظعينة لقيت على ماء من أمواه معد ما لم يلقني دونها حرّاها أو عبداها ، يعني بالحرّين عامر بن الطفيل وعتيبة بن الحارث بن شهاب اليربوعي ، والعبدان عنترة العبسي والسليك بن السلكة ، وشهد عامر كل الوقائع التي قادها مع قومه بني عامر ضد أعدائهم في يوم فيف الريح ويوم الرقم ويوم النتاءة . وكان من ذوي الجرأة والصراحة في خطابهم ، من ذلك ما يروى ما قاله لكسرى أنو شروان حيث تدل هذه الحادثة على جرأته وخشونته وغلظ طبعه .

زعموا أنه كان في الوفد الذي أرسله النعمان إلى كسرى[٣] ليريه فضل

---

(١) الديوان ص ٩ .

(٢) ديوان عامر بن الطفيل ص ١٠ .

(٣) ديوان عامر بن الطفيل ص ٦ .

العرب ، فتكلم بين يدي ملك الفرس فأظهر غلظة ، فقال له كسرى : متى تكاهنت يا عامر ؟ قال : لست كاهناً ولكني بالرمح طاعناً . قال كسرى : فإن أتاك آت من جهة عينك العوراء ما أنت صانع ؟ قال : ما هيبتي في قفاي بدون هيبتي في وجهي . ويقال إنه لما مات عامر بعد منصرفه عن النبي ﷺ نصبت عليه بنو عامر أنصابا ميلا في ميل حمىً على قبره ، لا تدخله ماشية ولا تنتشر فيه راعية ولا ترعى ، ولا يسلكه راكب ولا ماشي وكان جبار بن سلمى بن عامر بن مالك بن جعفر غائباً فلم قدم قال : ما هذه الأنصاب ؟ قالوا نصبناهاحمىً على قبر عامر ، قال ضيقتم على أبي عليّ ، إن أبا عليّ كان من الناس بثلاث ؛ كان لا يعطش حتى تعطش الإبل ولا يضلّ حتى يضلّ النجم ولا يجبن حتى يجبن الليل .

وكان من أخلاق عامر الشجاعة والسخاء والحلم[1] ، ومما يذكر من ذلك أبا أبا براء عامر بن مالك بن جعفر بن كلاب رجع من غزوة غزاها اليمن بقبائل بني عامر بن صعصعة فقال : إن الله قد أثرى عدوكم وكثر أموالكم وقد ظفرتم ، ومن الناس البغي والحسد ، ولم يكثر قوم قط إلا تباغوا ، ولست آمنها عليكم وبينكم حسائف وأضغان ، فتواعدوا ماء النظيم يوم كذا وكذا فأعطي بعضكم من بعض وأستل ضغن بعضكم من بعض . قال فاجتمعت بنو عامر ولم يفتقد منهم أحد غير عامر بن الطفيل فأموا على ماء النظيم ثلاثا لينحروا الجزر فقال علقمة بن علاثة ما يحبس الناس أن يفرغوا مما اجتمعوا له ؟ قيل له ينتظرون عامر بن الطفيل . فقام مغضباً وكان في حسد فأقبل على ناديهم فقال : ما تنتظرون منه ؟ فوالله إنه لأعور البصر عاهر الذكر قليل النضر . فقال له عامر بن مالك (ملاعب الأسنة) احبس ولا تقل في ابن عمك إلا خيراً ، فلو شهد وغبت لم يقل فيك مقالتك فيه .

فأقبل عامر بن الطفيل على ناقة له فتلقاه من غضب له من فتيان بني مالك

---

(١) ديوان عامر بن الطفيل ص ٩ .

فأخبره بمقاله علقمة قال : فهل قال غير هذا ؟ قال : لا . قال : فقد والله صدق ، مالي ولد وإني لعاهر الذكر وإني لأعور البصر . وقال للذي أخبره : فهل ردّ عليه أحد ؟ قال : لا . قال : أحسنوا . وجاء حتى وقف على ناديهم ، فحياهم وقال : لم تقرون شتمي بينكم ، فوالله ما أنا من عدوكم بجبان ، ولا أنا فيما نابكم بخاذل ، ولا إلى أعراضكم بسريع ، وما حبسني عنكم إلا خمر قدم بها فسبأتها وجمعت لها شباب الحي ، وخشيت أن أدعهم فيتفرقوا حتى أنفدتها ، وقد علمت لأي شيء جمعكم أبو براء فأصلح الله ثـآكم ولم شعثكم وكل قوامة أو خدش أو ظفر تطلبه بنو عامر كلها في أموال بني مالك ومالي أول ذلك وكل شيء هو لنا هو لكم .

فقال أعمامه : رضينا ما فعل وحملنا ما حمل . فتصدع الناس على ذلك فكان ذلك مما زاد صدر علقمة وحراً حتى دعاه ذلك إلى المنافرة .

وقائعه الحربية :

ذكرت فيما سبق أن عامر بن الطفيل كان قائداً حذقاً قديراً وفارساً مغواراً في المعامع ، بل إنه كان يثبت جدارته عن طريق تقدم الصفوف ، ثم إنه صرح أنه كان سيداً عن استحقاق وجدارة ، ولم يأخذ هذه السيادة وراثة عن أبيه وأمه ، قال(١) :

إني وإنْ كنتُ ابنَ سيدِ عامرٍ	وفارسهَا المندوبَ في كلِّ موكبِ(٢)
فما سودتني عامرٌ عن قرابةٍ	أبى الله أَنْ أَسمو بأمٍّ ولا أبِ
ولكنني أحمي حِمَاها وأتّقي	أذاها وأَرمي من رماها بِمنكِبِ

---

(١) الثأي : الإصلاح ، ولم الشعث : جمع الأمر ، القرامة : الجليدة المقطوعة من أنف البعير .

(٢) ديوانه ص ١٣ ، والكامل ص ١٤٠ ، والخزانة ٣/٥٢٧ .
وأسمو : أرتفع ، المنكب من القوم عريقهم وأدعونهم .

ويقـول في انتصاره على قـوم عروة بن الـورد العبسي وقد اتخـذ الخيل وسيلة للغزو :

سَمـونـا بـالـجيـادِ لـحـيٍّ وردٍ فـلاقـوا بعـدَ وقعتِنـا النَكـيـرا[1]
أَبـدْنـا حـيَّ البـرزي وكـعـبـاً إلـى هـلكٍ وأعـلقـنَـا عـشـيـرا
وسيـاراً فـتـى سعـدِ بـنِ بـكـرٍ وأقـعـصنـا بـمـفـروق بِـحِـيـرا

مفـاخر بعـدد الذين قتلهم في هـذا اليوم وهـو الغارة على عبس ويـذكر شجاعته وبأسه .

يوم فيف الريح[2] :

كانت بنو عامر تطلب بني الحارث بأوتار كثيرة، فجمع لهم الحصين بن يزيد الحارثي ، وكان يغزو من تبعه من قبائل مذحج ، وأقبل في بني الحارث وجعفي وزبيد وقبائل سعد العشيرة ومراد وصداء ونهد ، واستعانوا بقبائل خثعم فخـرج شهران وناهي وأكلب عليهم أنس بن مـدرك ، وأقبلوا يريـدون بني عامـر وهم منتجعون مكاناً يقال له فيف الريح (مكان بأعلى نجد)[3] ومع مذحـج النساء والذراري حتى لا يفروا إما ظفروا وإما ماتوا جميعاً . فاجتمعت بنو عامر كلهـا إلى عامر بن الطفيل فقال لهم عامر حين بلغه مجيء القوم : أغيروا بنـا عليهم فأني أرجو أن نأخذ غنائمهم ونسبي نساءهم ولا ندعهم يدخلون عليكم داركم .

فتابعوه[4] على ذلك ، وقد جعلت مذحج ولفها رقباء فلما دنت بنو عامر

(١) ديوان عامر بن الطفيل ص ٧٨ .

(٢) فيف اسم مكان معروف .

(٣) بأعالي نجد : معجم البلدان ٥/٢٥٨ .

(٤) انـظر النقائض ٤٦٩ وذيـل الأمالي ١٤٦ ، العقـد الفريـد ٢/٣٥٩ ، أمثال الميـداني ٢/٣٠٨ ، ابن الأثيـر ١/٣٨٧ ، الأغـاني ٥/٢١ ، معجم البلدان ٦/٤١٣ ، وأيـام العرب ١٣٢ .

من القوم صاح رقباؤهم ـ أتاكم الجيش فلم يكن بأسرع من أن جاء مسالحهم[1] تركض إليهم فخرجوا إليهم فقال أنس بن مدركة لقومه انصرفوا بنا ودعوا هؤلاء فإنما يطلب بعضهم بعضا ولا أظن عامراً تريدنا فقال لهم الحصين بن زيد افعلوا ما شئتم فإنا والله ما تراد دونكم وما نحن بشر بلاء عند القوم فانصرفوا إن شئتم فإنا نرجو ألا نعجز عن بني عامر قرب يوم لنا ولهم قد غابت سعوده وظهرت نحوسه فقال ، خثعم لاني إنا كنا وبنو الحارث على مياه واحدة في مراعٍ واحدة وهم لنا سلم ، وهذا عدو لنا ولهم فنزيد أن ننصرف عنهم فوالله لئن سلموا وغنموا لتندمن إلا تكون معهم ولئن ظفر بهم لتقولن العرب خذلتم جيرانكم فأجمعوا أن يقاتلوا معهم .

وجعل حصين لخثعم ثلث المرباع ، ومنّاهم الزيادة . وقد كان عامر بن الطفيل بعث إلى بني هلال بن عامر فاشترى منهم أربعين رمحاً بأربعين بكرة ، فقسمها في أفناء بني عامر ، والتقى القوم فاقتتلوا قتالاً شديداً ثلاثة أيام يغادرونهم القتال بفيف الريح ، فالتقى الصميل بن الأعور الكلابي وعمرو بن صبيح النهدي ، فطعنه عمرو فذهب الصميل بطعنته معانقاً فرسه إلى جانب الوادي ، فاعتنق صخرة وهو يجود بنفسه ، فمر به رجل من خثعم فأخذ درعه وفرسه وأجهز عليه ، وشهدت بنو شمير يومئذ مع عامر فسموا جريحة الطعان ، وذلك أن بني عامر اجتمعوا إلى موضع يقال له العرقوب ، فالتفت عامر بن الطفيل فسأل عن بني شمير فوجدهم قد تخلفوا في قتال القوم ، فرجع عامر يصيح يا صباحاه يا غيراه ولا غير لي بعد اليوم حتى أقحم فرسه وسط القوم فطعن يومئذ بين ثغرة نحره إلى سرته عشرين طعنة ، وبرز يومئذ حسيل بن عمرو الكلابي فبرز له صخر بن أعى النهدي فقال عامر بن الطفيل لحسيل ويلك ولكن حسيلاً لم يستمع لقومه وبرز للقتال فقتله صخر .

---

(١) المسالح : القوم حاملوا السلاح .

وقتل خليف بن عبد الفرس النهدي كعب الفوارس بن معاوية بن عبادة بن البكاء ، فمر بعد ذلك خليف على بني جعدة فعرفوا نبرة كعب وفرسه فشد عليه مالك بن عبد الله بن جعدة فقتله ، وأخذ الفرس فردهما إلى بني البكاء . وكان عامر بن الطفيل يتعهد الناس فيقول يا فلان ما رأيتك فعلت شيئاً . فيقول الرجل الذي قد أبلغ انظر إلى سيفي وما فيه وإلى رمحي وسناني . فأقبل مهر بن يزيد الحارثي[١] في تلك الهيئة لما رأى عامراً يصنع بقومه الأفاعيل ، فقال يا أبا عليّ انظر ما صنعت بالقوم ، انظر إلى رمحي ، حتى إذا أقبل عليه عامر وجأه بالرمح في وجنته ففلق وجنته وأصاب عينه وخلى الرمح فيها ، وضرب فرسه فلحق بقومه وفي طعنة عامر يقول مسهر[٢] :

طعنتُ بخرصِ الرمحِ مقلةَ عامرٍ فأضحى بئيساً في الفوارسِ أَعورا[٣]

وغادرَ فينا رمحُه وسلاحُه وأدبر يدعو في الهوالكِ جَعفرا

وكنا إذا قيسيةٌ برقتْ لنَا جرى دمعُها من عينِها فتَحدرا

مخافةَ ما لاقت حليلةُ عامرٍ من الشرِّ إذ سربالها قد تعفرا

ولا شك أن قتل كثير من فوارس عامر كان السبب في حصول الهزيمة المنكرة لبني عامر من قبائل القحطانين ، الذين اجتمعوا لأخذ أوتارهم من بني عامر . وقد خسر عامر في هذه المعركة عينه التي يقول فيها بعد انتهاء معركة فيف الريح ، ويذكر في هذه القصيدة فرسه المزنوق ، وكان من أكرم الخيول العربية[٤] :

---

(١) كان مسهر فارساً شريفاً وكان قد جنى جناية في قومه فلحق ببني عامر فشهد معهم فيف الريح .

(٢) أيام العرب ص ١٣٥ .

(٣) خرص الرمح : السنان ، يخص عينه أنمارها .

(٤) الديوان ص ٦١ ، وأيام العرب ١٣٥ .

هوازن : قبيلة جامعة من قيس عيلان . المشهر : أشهر خيول العرب ، ازورّ : =

لَقَـدْ عَلِمَتْ عُليـا هـوازنَ أَنـني | أنـا الفارسُ الحـامي حقيقـةَ جعفرِ
وقـد علـم الـمزنـوقُ أنـي أكـرهُ | عشيـة فيف الـريـحِ كـر المشهـرِ
إذا أزورَّ من وقـع الـرماحِ زجرتُـه | وقلت لـه : ارجع مقبـلاً غيرَ مُدْبرِ
وأنـبـأتـه أَنَّ الـفـرارَ خـزايـةٌ | على المرءِ ما لم يبـل عـذراً فيعـذرِ
ألستَ تـرى أرمـاحهَم فيّ شَـرَّعـاً | وأنت حصـانٌ ماجدُ العـرقِ فـاصبرِ
أردتُ لـكـيمـاً يـعـلم الله أنـنـي | صبـرت وأخشى مثـل يـوم المشقَّرِ
لعمـري ومـا عمـري عليّ بـهينٍ | لقـد شان حرّ الـوجهِ طعنـةُ مسهرِ
فبئس الفتى إن كنت أعـور عـاقـراً | جبـاناً فمـا عذري لـدى كلّ محضرِ
ومـا رمت حتى بـل صدري ونحره | نجيـعُ كهـدابِ الـدمقسِ المسيّرِ
فلو كـان جمعـاً مثلنـا لم يبـزّنـا | ولـكن أتتنـا أسـرةٌ ذاتُ مـفـخـرِ
أتـونا بشهـرانِ العـريضـةِ كلِّهـا | وأكـلب طـرّاً في جيـادِ الـسنّـورِ

فلا شك أن هذا الفخر جادت به قريحة عامر بن الطفيل عقب معركة فيف الريح ، حيث التقت قبائل اليمن وقبائل عديدة من قبائل عامر وكـان القتل في الطرفين شديداً .

ثم اتجه فخره إلى فرسه المزنوق ، وما كان له من فضل في الكر والفر ، وقد اعترف عامر بن الطفيل بأن قبيلته واجهت أعداء ذوي مراس وشدة ، وكان من شدتها أن مسهر بن يزيد الحارثي قد طعن عامراً في عينه وفقأها ، ثم كـان لهذا اليوم أثر بعيد في قبائل العرب ، ويقال كان النصر والشرف لبني عامر ضد القحطانيين[1] في هذا اليوم المشهود .

= انحرف ومال ـ خزاية : استحينا ، يوم المشقر : هو اليوم الذي فتك فيه كسرى بأهـل المشقر ، المشقر مدينة هجر المدور صنم المراح اشتدادا النشاط ، ذات مفخر : كثيرة العدد ، شهران : قبيلة من خثعم ، طرّا : جميعاً ، والسنور : الدرع .

(١) أيام العرب ص ١٣٦ .

ثانيا : يوم شعب جبلة[1] :

قال أبو عبيدة يوم شعب جبلة أعظم أيام العرب ، وذلك أنه لما انقضت وقعة رحرحان جمع لقيط بن زرارة لبني عامر وألب عليهم ، وبين يوم شعب جبلة ويوم رحرحان سنة كاملة ، ويقال إن بين شعب جبلة وبين الإسلام أربعين سنة ، وهو عام ولد النبي ﷺ ، في حين جاءت رواية تقول إن بينه وبين الإسلام سبعا وخمسين سنة .

وكانت بنو عبس يومئذ في بني عامر حلفاء لهم ، واستعدى لقيط بني ذبيان لعدواتهم لبني عبس من أجل حرب داحس ، فأجابته غطفان كلها غير بني بدر ، وتجمعت لهم تميم كلها غير بني سعد ، وخرجت معهم بنو أسد لحلف كان بينهم وبين غطفان حتى أتى لقيط الجون الكلبي وهو ملك هجر[2] وكان يجبي من بها من العرب ، فقال له هل لك في قوم غارين قد ملؤوا الأرض نعماً وشاءً فترسل معي بنيك فما أصبنا من مال وسبي فلهما وما أصبنا من دم فلي ، فأجابه الجون إلى ذلك وجعل له موعداً رأس الحول . ثم أتى لقيط النعمان بن المنذر فاستنجده وأطمعه في الغنائم فأجابه وكان لقيط وجيهاً عند الملوك ، فلما كان على قرن الحول من يوم رحرحان انهلت الجيوش إلى لقيط وأقبل سنان بن أبي حارثة المري في غطفان ـ وهو والد هرم بن سنان الجواد المشهور ـ وجاءت بنو أسد وأرسل الجون ابنيه معاوية وعمراً وأرسل النعمان أخاه لأمه حسان بن وبرة الكلبي ، فلما توافوا خرجوا إلى بني عامر وقد انتدوا بهم وتأهبوا لهم ،

---

(١) يوم شعب جبلة من أعظم أيام العرب ، حيث انتصرت بنو عامر وحلفاؤهم من عبس على تميم وحلفائهم من ذبيان وأسد وغيرهما ، وجبلة جبل طويل له شعب عظيم واسع لا يرقى الجبل إلا من قبله . وكان هذا اليوم قبل الإسلام بسبع وخمسين سنة . انظر معجم البلدان ٣/٥ ، النقائض ٢/١١٥ ، الأغاني ١/٣٣ ، شواعر العرب ص ٤٨ .

(٢) هجر : بلاد قصبتها الصفا ، بينها وبين اليمامة عشرة أيام .

فقال الأحوص بن جعفر وهو يومئذ رحا هوازن[1] لقيس بن زهير ما ترى ؟ فإنك تزعم أنه لم يعرض لك أمران إلا وجدت في أحدهما الفرج ، فقال قيس بن زهير : الرأي أن نرتحل بالعيال والأموال حتى ندخل شعب جبلة فنقاتل القوم دونها من وجه واحد فإنهم داخلون عليك الشعب ، وإن لقيطاً رجل فيه طيش فسيقتحم عليك الجبل فأرى لك أن تأمر الإبل فلا ترعى ولا تسعى وتعقل ،ثم تجعل الذراري وراء ظهورنا وتأمر الرجال فتأخذ بأذناب الإبل فإذا دخلوا علينا الشعب حلت الرجالة عقل الإبل ثم لزمت أذنابها فإنها تنحدر عليهم وتحن إلى مرعاها وموردها ولا يبرد وجوهها شيء ، وتخرج الفرسان في إثر الرجال الذين خلف الإبل فإنها تحطم ما لقيت ، وتقبل عليهم الخيل وقد حطموا من عل قال الأحوص : نعم ما رأيت فأخذ برأيه ، ومع بني عامر يومئذ بنو عبس وغنى في بني كلاب وباهله في بني كلاب وباهله في بني كعب ، والأبناء أبناء صعصعة وكان رهط المعقر البارقي يومئذ في بني شمير بن عامر وكانت قبائل بجيلة كلها فيهم غير قيس[2] .

قال أبو عبيدة وأقبل لقيط والملوك ومن معهم فوجدوا بني عامر قد دخلوا شعب جبلة فنزلوا على فم الشعب ، فقال لهم رجل من بني أسد : خذوا عليهم فم الشعب حتى يعطشوا ويخرجوا فوالله ليساقطن عليكم تساقط البعر من إست البعير . فأتوا حتى دخلوا الشعب عليهم وقد عقلوا الإبل وعطشوها ثلاثة أخماس[3] وذلك اثنتا عشرة ليلة ولم تطعم شيئاً ، فلما دخلوا حلوا عقلها فأقبلت تهوي فسمع القوم دوياً في الشعب فظنوا أن الشعب قد هدم عليهم ، والرجالة في إثرها بعير أعور يتلوه غلام أعسر آخذ بذنبه وهو يرتجز ويقول[4] .

---

(١) رحا هوازن : سيدهم الذي يصدرون عن رأيه .

(٢) في الأغاني قشير وفي الأصول قيس .

(٣) أخماس جمع خمس بالكسر ، وهي من أظماء الإبل وذلك أن ترعى ثلاثة وترد في الرابع .

(٤) النقائض ص ٦٦١ ، زبدل في منى بدل رماية العقد الفريد ٥/١٤٣ .

أنا الغلام الأعسر ـ الخير في والشر ـ والشر في أكثر .

فانهزمـوا لا يلوون على أحد ، وقتل لقيط بن زرارة ، وأسر حاجب بن زرارة أسره ذو الرقيبة ، وأسر سنان بن حارثة المري أسره عروة الرحال ، فجز ناصيته وأطلقـه ولم يحبسـه ، وأسر عمرو بن أبي عمرو بن عدي أسـره قيس بن المنفتق فجز نـاصيته وخـلاه طمعا في المكافأة فلم يفعل ، وقتل معاوية بن الجنن ومنقذ بن طريفي الأسدي ومالك بن ربعي بن جندل بن نهشل . وفي هذا اليوم قالت دختنوس ترثي أباها لقيط بن زرارة وقد ضربه بنو عبس بعد موته[1] :

ألا يـالهَـا الـويـلاتُ ويلةُ من بَكى ... لضربِ بني عبسٍ لقيطاً وقد قَضَى[2]
لقـد ضـربـوا وجهـاً عليـه مهابـةٌ ... ولا تحفـل الصمُّ الجنـادلُ من ثـوى
فـلو أنـكـم كـنـتـم غـداةَ لـقيـتُـم ... لقيـطاً ضـربتم بـالأسنـةِ والقَنـا
غـدرتم ولكن كنـتم مثـلَ خضّـبٍ ... أضاءت لها القناصُ من جانب الشَرا
فـمـا ثـأرهُ فيـكـم ولـكـن ثـأره ... شـريـح أردتـه الأسنـةُ أم هـوى
فـإنْ تُعقب الأيـامُ من فـارسٍ تكنْ ... عـليكـم حـريقـاً يـرام إذا سَـمَـا
لنجـزيكم بـالقتـلِ قتـلاً مضعّفـاً ... وما في دماء الخمس يا مالِ من بـوا
لـو قـتلتـنـا غـالـب كـان قتـلُهـا ... علينـا من العـارِ المجـدّعِ للعـلا
لقد صبرت للمـوت كعبٌ وحافـظتْ ... كـلابٌ ومـا أنتم هنـاك لمـن رأى

وقالت دختنوس كذلك في رثاء أبيها لقيط[3] :

---

(١) أيام العرب ٣٦١ .

(٢) تحفل : تضم ، الصم الجنادل : الصخور العظيمـة ، ثوى : مـات ، خضب : جمع خاضب وهي النعامة ، والقناص : جمع قانص وهـو الصياد ، والشـرا : اسم مكان ، أرداه : أهلكه ، والثأر : المطلوب بدم القتيل ، هوى : سقط ، الخمس : أشراف بني تميم الذين قتلوا ، ومـال : ترخيم مـالـك ، البـوا : السواء والكفـء ، المجدع للعلا : القـاطـع .

(٣) أيام العرب ص ٣٦٢ ، ؛ العقد الفريد ٥/١٤٤ .

بَكَرَ النعيُّ بخيرِ خندفَ كهلِهَا وشبابِها [1]
وبخيرِها نسباً إذا عُدّتْ إلى أَنسابها
وأضرِّها لعدوِّها وأفكِّها لرقابِها
وقريعِها ونجيبِهَا في المطبقات ونابِها
ورئيسها عندَ الملو ك وزينُ يومِ خِطَابِها
فرعٌ عمودٌ للعشير ة رافعاً لِنَصابِها
فيعولها ويحوطُها ويَذبُّ عن أَحسابِها
ويطا مواطىء للعد وِّ وكان لا يمشي بها
فعل المدلِ من الأسو دلحينها وتبابها
كالكوكب الدري في الظلماء لا يخفى بها
عبث الأَغرُّ به وكل منبه لكتابها
فَرَّتْ بنو أَسدٍ فرا رَ الطيرِ عن أَربابِها
وهوازنُ أَصحابُها كالفأر في أذنابِها

فهذه القطعة نابعة من أعماق دختنوس في رثاء والدها رئيس تميم وهي لا شك صادقة لأنها في رثاء أحب الناس إليها .

وهذا اليوم الذي حققت فيه بنو عامر نصراً مؤزراً على بني تميم ومن حالفها كان مجالاً رحباً لأن يفاخر فيه عامر بن الطفيل فارس بني عامر ، حيث كان شرف النصر لهم ، يقول بعد تحقيق النصر حيث عدد الانتصارات الكثيرة على أعدائهم[2] :

---

(١) بكر : أتى باكرا ، خندف : أم مدركة بن إلياس ، وأفكها لرقابها : لإطلاق سراح الأسرى ، القريع والمطبقات : الشدائد ، والناب : السيد ، الفرع : الابن ، وذب : دافع ، المدل : الواثق من نفسه ، والحين : الهلاك .

(٢) الديوان ص ١٠٥ .

عــرفتّ بجــوِ عــارمــةَ الـمُقــامــا لِسَلمى أَو عــرفتُ لهــا عَــلامــاً[1]
لـيــالي تـستبيــك بــذي غَــروبٍ ومـقـلةِ جــؤذرٍ يــرعى بَــشَــامَــا
فـلو علمـتِ سـليـمى علمَ مثلِي غـــداةَ الـــروعِ واصـلت الكِــرامَــا

فقد بدأ عامر هنا هذه القصيدة بالغزل كعادة الشعراء الجاهليين تشـويقاً للنفس وترويحاً لها ، ثم يصف وقائع قبيلته بني عامر بالقبائل الأخرى .

تــركنـا مَــذْحَجــاً كحــديثِ أمسٍ وأرحَــب إذ تـكـفـنـهـم فـشــامــا[2]
وبــعــنــا شــاكــرا بــتــلاد عــكٍ ولاقــى مــنــســر مــنــا جــذامــا
وطـحــطـحـنــا شنــؤة كــل أوبٍ ولاقــت حــمــيــر مــنــا غَــرامَــا
وهــمــدان هــنــالــك مــا أَبــالَــي أحــربــا أصبحــوا لي أم ســلامــا
ولا قــيــنــا بــأبــطح ذي زرودٍ بني شيبــان فــالتهــمــوا التــهــامــا
وحيــاً من بــنــي أسـد تــركــنــا نــســاءهـم مــسـلـبــة أَيــامــى[3]
وقــتَّــلنــا ســراتــهــم جــهــاراً وأشبعنــا الضبــاع خصى عــظامــا
وقــتَّلنــا حــنــيــفــة في قــراهــا وأفـنى غــزونــا حكـمــاً وحــامــا
قــتلنـا كـبـشـهــم فـنجــوا شــلالاً كمــا نفــرت على الــطرِ النَعــامَــا

ثم تحدث عن وقائع بني عامر في قبائل بنو بكر بن وائل وأسـد وغيرهـا حيث قتلوا الرؤساء الكبار والفرسان المغاوير ولم يكن هناك حين من رجـالهم

---

(١) عـارمة : أرض لبني عـامر ، الجـو : ما اطمـأن من الأرض ، وبذي الغـروب الثغر : والغـروب واحدة غـرب كثرة الـريق ، والجؤذر : ولد البقـرة الوحشيـة ، (يروى علم قومي) ، والروع : الفزع .
(٢) تكفنهم : تلبسهم الكفن ، وشاكر ودعك وجذام : من القبائل اليمنية ، وشنـؤة : الأزد والغرام : العذاب ، الأبطح : ميل الواد، زرود : ماء لبني مجاشع .
(٣) مسلبة : تركت الزينة ، والآيامى : اللواتي لا أزواج لهن ، سراة القـوم : خيار القـوم وأشرافهم ، والكبش : الرئيس ، وشلالا : طردا .

وفرسانهم بل تعودوا الفروسية وثبتوا أمام الأعداء وقد تركوا نساء الأعداء دون أزواج ثم يقول (البحر الوافر) .

وجئنا بالنساءِ مردفاتٍ وأذوادٍ فكن لنا طَعَاما[1]

وبيتنا زبيدا بعد هدءٍ فصبَّح دارهم لجبا لهَاما

وقد نلنا لعبدِ القيس سبياً من البحرين يُقتسم اقتساما

ولا قينا يذي نجب حُصينا فأهلكنا بمقلتنا أُساما

وأفلتنا على الحومان قيسٌ وأسلم عرسه ثم استقاما

ثم يتحدث عن سبي النساء وأخذهن أسيرات ولم يجرؤ أحد على الوقوف أمامنا بل طحنا كل أعدائنا ، ثم ترك هؤلاء نساءهم وراءهم فأخذناهن غنيمة لنا ثم يقول[2] :

ولو آسى حليلتَه للاقى هنالك من أسنتِنا حِمَامَا

وآلُ الجوْنِ قد ساروا إلينا غداةَ الشِعب فاصطلموا اصطلامَا

قتلنا منهم مائةً بشيخٍ وصفدناهم عُصُبا قِيامَا

فيقول حتى إن هذا الفارس لو بقي لوجد الموت الزؤام ينتظره ، وإن آل الجون الذين غرر بهم لقيط قد كان مصيرهم سيئا ، حيث لم يحقق لقيط النصر ولم يعط لقيط ما وعده به .

وهذا اليوم فعلاً كان يعد من أعظم الأيام عند العرب لأن قبائل عديدة

---

(۱) مردفات : سبيناهن فهن مردفات ، واللجب : الكثير ، واللهام، الضخم ، الحومان : مكان على طريق البصرة ، والعرس : المرأة .

(۲) آسى وواسى : واحد المؤاساة ، والحمام : الموت ، وآل الجون : يقصد ابني الجون اللذين كانا مع لقيط يوم شعب جبلة ، والجون : الأبيض والأسود ويقال للشمس جونة ، واصطلموا : أي اجتموا او الأصلم : المقطوع الأذنين من الفعل صلم واصطلم إذا قطع . وقوله صفدنا : قيدنا ، والعصب : جمع عصبة وهي الجماعة .

تجمعت لقتال بعضها بعضاً ، حيث قاتل مع عامر عبس وقبائل أخرى وقاتل مع تميم ذبيان وقبائل أخرى ثم يواصل قصيدته فيقول :

ويــوُم الـشِـعـب لاقـيـنـا لـقـيـطاً كسـونـا رأسـهَ عَضْباً حُسـامـا[١]
أسـرنـا حـاجـبـا فثـوى أسيـراً ولـم نـتـرك لأسـرتـه سُـوامـا
وجمـع ِ بني تميـمٍ قـد تـركـنـا نـبـيـنُ سـواعـداً منـهـم وَهَـامـا
وكـان لـهـم بـهـا يـومٌ طـويـلٌ كمـا أججتَ بـاللهـبِ الضـرامـا

ثم يفصل هنا ما حل بالقوم من تميم وخاصة شيوخهم وكبارهم وسادتهم فيقول : إنه قد فلق كبش بني تميم وهو لقيط بن زرارة ثم أسروا أخاه حاجباً ، ثم لم يتركوا لأسرته شيئاً من الإبل ترعى ، ثم إن الطامة كانت عامة على بني تميم حيث قطعوهم إربا إربا .

ونجد من هذا أن فخر عامر منصب في الدرجة الأولى على الروح الجماعية التي لبني عامر ، حيث استخدم أسلوب الجمل مثل لاقينا ـ كسونا ـ أسرنا ـ نترك .

ثم يقول[٢] :

بـدارهِـم تـركـنـا يـوم نـحسٍ لـدى أوطـانهم تسقي السِـمـامَـا
فـإنْ لا يـرهقِ الحـدثـانِ نـفسي يؤدوا الخـرج لي عـامـاً فعـامَـا
يـؤدوه عـلى رغـم صـغَـاراً ويـعـطونـا المـقـادةَ والـزِمـامَـا

---

(١) يـوم الشعب : يوم شعب جبلة ، والعضب والحسام واحد : وهمـا السيف ، وثوى : أقام ، والثواء : الإقـامة ، وأم المثـوى : امرأة الـرجل ، والسـوام : ما رعى الإبـل ، وبنين : نفرق ، وهامة ، وهام : لأم الدماغ وهي كناية الرأس .يوم طويل لأنه يوم حزن وغم ، وأججت : أوقدت ، والنار: اللهب .

(٢) يوم نحس : يوم شؤم ، الأوطان : جمع وطن ، والسمام : السم ، يرهق : يعجل ، والرغم : الذل ، وأودى : هلك ، آلام : أي ما يلام عليه المرء .

فـأبلغ إنْ عـرضتَ جميـعَ سعـدٍ   فبيتـوا لـن نـهيّجكم نيـامَـا
نـصحتم بـالـمغيب ولـم تـعينـوا   عـلينـا إنـكـم كـنـتـم كِـرامـا
فلو كنتم مـع ابـن الجـون كـنتـم   كـمـن أُودى وأصـبـحَ قَـد آلامـا

وبعد فإنه يقول إن هذا اليوم الذي انتصر فيه بنو عامر كان يوماً شؤماً بالنسبة لبني تميم ، حيث أسقيناهم السم الزعاف ، وإذا لم أمت فإنهم سوف يؤدون الخراج ، والإتاوات إلي عاماً بعد عام ويؤدون رغماً عن نفوسهم ، ثم يبلغ تحيته بني سعد وهو بطن من تميم لعدم مشاركتهم لقيط بن زرارة في الهجوم على بني عامر حيث نصح بعض شيوخهم بعدم المشاركة ضد بني عامر ولو أن بني سعد اشتركوا في الحرب الدائرة لكان مصيرهم كمصير ابن الجون هلاكاً وتدميراً .

ونلاحظ هنا أن العاطفة في الحماسة جماعية مكسوة بالمشاعر الدفاقة الهياجة .

ثالثاً : يوم الرقم[1] :

أغار بنو عامر على بلاد غطفان بالرقم ، وهو ماء لبني مرة ، وكان قائد بني عامر هو عامر بن الطفيل ، ويقال يزيد بن الصعق فركب عيينة بن حصن في بني فزارة ويزيد بن سنان في بني مرة . ويقال الحارث بن عوف فانهزمت بنو عامر وجعل عامر بن الطفيل يقاتل ويقول : (يا نفس إلاّ تقتلي تموتي) .

فزعمت بنو غطفان أنهم أصابوا من بني عامر يومئذ أربعة وثمانين رجلاً ، فدفعوهم إلى أهل بيت من أشجع كانت بنو عامر قد أصابوا فيهم فقتلوهم أجمعين ، وانهزم الحكم بن الطفيل في نفر من أصحابه فيهم جراب بن كعب حتى انتهوا إلى ماء يقال له المروراة فقطع العطش أعناقهم فماتوا ، وخنق نفسه

---

(١) العقد الفريد ٥/١٦٠ والرقم : كما يقول ياقوت جبال دون مكة بديار غطفان ويوجد عندها ماء أيضاً ، معجم البلدان ٣/٥٨ .

الحكم بن الطفيل تحت شجرة مخافة المثلة وقال في ذلك عروة بن الورد[1] .

ونحن صبَحنا عامراً في ديارِها ... علالةَ أرماحٍ وضرباً مُذكَّرَا
بكلِّ رقيقِ الشفرتين مهندٍ ... ولدن من الخطي طيئاً وأسمرا
عجبت لهم إذ يخنقون نفوسهَم ... ومقتلهم تحت الوغى كان أجدرا

وكان عامر بن الطفيل قبل الموقعة رأى امرأة من فزارة فسألها فقالت أنا أسماء بنت نوفل الفزاري وبينما هي تجيبه خرج عليه المنهزمون من قومه وبنو مرة في أعقابهم ، فلما رأى ذلك عامر ألقى درعه إلى أسماء وولى منهزماً فأدتها بعد ذلك إليه وفيها قال بعد الموقعة[2] :

ولتسألنْ أسماءُ وهي حفيةٌ ... نصحاءها أطردتَ أم لم أطردِ
قالوا لها فلقدْ طردَنا خيلةَ ... قلحَ الكلاب وكنت غيرَ مطردِ
فلأبغينكم قناً وعوارضاً ... ولأوردنّ الخيلَ لابة صرغدِ
والخيل تروى بالكماةِ كأنها ... حدأٌ تتابع في الطريقِ الأقصدِ
ولا ثأرنَّ بمالكٍ وبمالكِ ... وأخي المروراة الذي لم يُسندِ
وقتيل مرة أثأرنَّ فإنه ... فرع وإن أخاهم لم يقصدِ
يا أسمَ أخت بني فزارةَ إنني ... غازٍ وإن المرء غيرُ مخلّدِ
وأنا أبنُ حربٍ لا أزالُ أشبها ... سعراً وأوقدُها إذا لم توقدِ

فعامر في هذه القصيدة يوجه حديثه إما لزوجته وإما لمحبوبته ، وهو يهدد

---

(١) أيام العرب ٢٧٨ وطي الحديد طي أحدها والمهند : سيف مصنوع في الهند ، والخطي : الرمح ، الوغى : الحرب .

(٢) الديوان ص ٥٥ وأيام العرب ص ٢٧٩ ، في الديوان لتسألن وفي أيام العرب ولتسألن وأسماء هنا إما أن تكون زوجته كما قال صاحب الديوان وإما معشوقته القلح : سفرة في الأسنان ، قنا وغوار : جبلان ، والمروراة موضع فرغ هدر .

أعداءه ويقول إنه سيحتل جبالهم وإن فرسان بني عامر سوف يهلكون أعداءهم ، وسوف يثأر للقتلى من بني عامر ، ثم يقول إنه إذا لم يقتل في المعركة فسوف يموت موتاً عادياً على فراشه .

وهو مخلوق للحرب والنضال ويدير المعركة ويدبر أمرها في سمرة إذا لم توقد .

ومن هنا نجد أن عامر بن الطفيل يحشد هذه المعاني الحربية والروح الشجاعة له ولقومه في أشعاره التي تحس فيها أن المعركة تضطرب وتموج بالأبطال من بني عامر وأعدائهم . ولكن هذه المعركة في يوم الرقم كانت لصالح غطفان ضد بني عامر .

رابعاً : يوم النتاءة[1]

خرجت بنو عامر تريد أن تدرك بثأرهم يوم الرقم فجمعوا على بني عبس[2] بالنتاءة وقد أنذروا بهم فالتقوا وعلى بني عامر عامر بن الطفيل وعلى بني عبس الربيع بن زياد العبسي ، فاقتتلوا قتالاً شديداً فانهزمت بنو عامر وقتل منهم صفوان بن مرة قتله الأحنف بن مالك ، ونهشل بن عبيدة بن جعفر قتله أبو زعبة بن حارث ، وعبد الله بن أنس بن خالد ، وطعن ضبيعه بن الحارث عامر ابن الطفيل فلم يصبه ، ونجا عامر وهزمت بنو عامر هزيمة قبيحة فقال خراشة بن عمرو العبسي :

وسَاروا على أظمائهم وتواعدوا	مياهاً تحامَتها تميمٌ وعامرُ
كأنْ لم يَكُنْ بين الذِناب وواسطٍ	إلى المنحنى من ذي الأراكة حاضرُ
ألا أبلغا عني خليليِ عامراً	أتنسى سعادَ اليوم أم أنت ذاكرُ
وغادَرَت هوازنُ الرئيس ونَهشلاً	فلله عينا عامرٍ من تغادرُ

(١) النتاءة نخيلات لبني عطارد ، ويوم النتاءة من أيام العرب ، معجم البلدان ٢٦٠/٥ .
(٢) العقد الفريد ١٦١/٥ .

ومن هذا نجد أن بني عامر قد حاقت بهم الهزيمة المنكرة رغم أن بعض الروايات تروي أن عامر بن الطفيل هو الذي طعن ضبيعة بن الحارث العبسي ثم نجا من طعنته وقال عامر في ذلك[1] :

فـإن تنـجُ منهـا يـا ضبيـعُ فـإنني ... وجـدِّك لم أعقـدْ عليـك التَمـائِمَـا

وبعد فقد درسنا شيئاً عن حياة عامر ونشأته وفروسيته وبطولته وقيادته وكيف كان العقل المدبر لقومه بني عامر ، وكيف أنه حقق النصر في كثير من المعارك في فيف الريح ، ويوم شعب جبلة ووقوفه بثبات مع قومه في باقي المعارك في يوم الرقم والنتاءة ، ويوم جبلة التي لم يحالفهم فيها النصر . وقد تحدث حديثاً مستفيضاً عن فرسه (المزنوق) وفرسه الآخر (دعلج) حيث كان هذا الجواد خير معوان لعامر في خوض المعامع ، وأنه كان صديقاً وفياً له ، وإن كان يؤثره بالطعام والزاد حتى على أولاده .

ثم تحدثنا عن منزلته ومكانته بين قومه وبين العرب أجمعين حتى أنهم نصبوا على قبره الحمى بعد موته .

ثالثاً : ربيعة بن مكدّم[2] :

هو ربيعةبن مكدم بن عامر بن حرثان بن جذيمةبن علقمةبن جذل الطعان بن فراس بن عثمان بن ثعلبة بن كنانة أحد فرسان مضر المعدودين وشجعانهم المشهورين .

وربيعة بن مكدم فارس العرب في الجاهلية وكان يعقر على قبره في الجاهلية ولم يعقر على قبر أحد غيره[3] .

(١) رواية أبي عبيدة في العقد الفريد ص ٥/١٦٢ .
(٢) الأغاني ١٤/١٢٥ ـ ١٣٤ ، بلوغ الأرب ١/١٤٤ .
(٣) العقد الفريد ١/١١٦ ، الأمالي ٢/٢٧٠ .

قال الشاعر[1] :

نفــرتْ قُلوصِي من حـجــارةِ حــرةٍ ... بُنيت على طَـلْقِ الـيــديـن وَهــوبِ
لا تـنفــري يــا نــاقُ مـنــه فــإنَّــه ... شــريـبُ خمــرٍ مِـسعــرٌ لِـحــروبِ
لــولا السِّفــارُ وطــولُ قفــرِ مهمــهٍ ... لتــركتُهــا تَحبــو على العُــرقُــوبِ

وقبيلة هذا الشاعر مشهورة بالشجاعة والإقدام وهم أنجد العرب ، كان الرجل منهم يعدل بعشرة من غيرهم ويقول علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ لأهل الكوفة من فاز منكم فاز بالسهم الأخيب أبدلكم الله بي من هو شر لكم وأبدلني بكم من هو خير منكم ، وددت والله أن لي بجميعكم وأنتم مائة ألف ثلثمائة من بني فراس بن غنم[2] . وربيعة بن مكدم هو صاحب يوم الظعينة التي أبلى فيها بلاءً حسناً للدفاع عن محارمه وزوجته وأردى الأبطال الفرسان جميعاً الذين أوفدهم دريد بن الصمة لأخذ الظعينة منه ، والقصة كما يوريها صاحب الأمالي هي :

حدثنا أبو بكر بن دريد قال حدثنا أبو حاتم عن أبي عبيدة قال[3] خرج دريد بن الصمة[4] في فوارس من بني جشم حتى إذا كانوا في واد لبني كنانة يقال له الأخرم[5] وهم يريدون الغارة على بني كنانة ، إذ رفع له رجل في ناحية الوادي ومعه ظعينة فلما نظر إليه قال لفارس من أصحابه صح به : خل الظعينة

---

(١) نسب هذا الشعر لحفص بن الأخيف ، وقيل بل هي لعمرو بن شقيق وفي رواية العقد الفريد هذا الشعر لحسان بن ثابت .

(٢) بلوغ الأرب ١/١٤٤ ، والعقد الفريد ١/١١٦ .

(٣) الأمالي ٢/٢٧٠ ، العقد الفريد ٥/١٧٠ ، ثمار الأدب ٢/٣٠٤ .

(٤) دريد بن الصمة هو أبو عمرو معاوية بن الحارث بن جشم وهو فارس الشعراء ومن أهل الرأي والحكمة اشترك مع المشركين يوم حنين وهزم وقتل . الشعر والشعراء ٢/٧٤٩ ، أغاني الأغاني ٣٠٨ ، الأدب العربي ١/٢٢٨ وسوف نتناوله فيما بعد .

(٥) الأخرم : جبل في طرف الدهناء .

وانج بنفسك فانتهى إليه الفارس وصاح بـه وألح عليـه فألقى زمـام الناقـة وقال للظعينة[1] :

سيـــري على رِسْــلكِ سيـــرَ الآمـنِ   سيــرَ رداحٍ ذاتِ جـأشٍ سَـــاكِنِ[2]
إن انـثنـــائـي دوَن قِــرْني شَـــائـنـي   أُبـلي بـــلائي واخْـبُــري وعـــايِـنـي

ثم حمل عليه فصرعه وأخذ فرسه فأعطاه للظعينة ، فبعث دريد فارساً آخر لينظر ما صنع صاحبه فلما انتهى إليه ورأى ما صنع صاح به فتصافح عنه كأن لم يسمع فظن أنه لم يسمع فغشيه فألقى زمام الراحلة إلى الـظعينة ثم خـرج وهو يقول :

خــلِّ سبيــلَ الـحــرةِ الـمـنيعـه   إنــك لاقٍ دونَــهـــا رَبـيـــعـــهْ[3]
فـــي كــفــه خــطيّــةٌ مــطيــعــهْ   أوْ لا فَـخــذهـــا طعـنــةً ســـريـعــةْ
والطِعنُ مني في الوَغَى شريعهْ

ثم حمل عليه فصرعه ، فلما أبطأ على دريد بعث فارسـاً ثالثـاً لينظر مـا صنعا فلما انتهى إليهما رآهما صريعين ونظر إليه يقود ظعينته ويجر رمحه فقال له خل سبيل الظعينة[4] فقال للظعينة : اقصدي قصد البيوت ثم أقبل عليه وقال:

مَــاذا تـــريـــدُ مـن شتيــمٍ عـــابسِ   ألـم تَــر الفـــارسَ بـعـــدَ الفـــارسِ
أرداهما عاملُ زُمحٍ يابسِ

ثم حمل عليه فصرعه وانكسر رمحه وارتـاب دريد فـظن أنهم قد أخـذوا

---

(١) الظعينة : المرأة ما دامت في الهودج .
(٢) الرداح : العجزاء الثقيلة الأوراج التامة الخلق ، القرن : المثيل ، على على رسلك : على هونك ، الجأش ، قوة العزيمة ، شائني فيه : عيب علي .
(٣) المنيعة : المصونة أو المحمية ، والخطية : الرماح منسوبة إلى الخط ، وهو ميناء على ساحل الخليج (البحرين) لصناعة الرّماح ، والشريعة : العادة أو المنهاج .
(٤) الشتيم : الأسد العابي أو الكريه ، واليابس : الصلب .

الظعينة وقتلوا الرجل فلحق دريد ربيعة وقد دنا من الحي ووجد أصحابه قد قتلوا فقال أيها الفارس : إن مثلك لا يقتل ولا أرى معك رمحك والخيل ثائرة بأصحابها فدونك هذا الرمح فإني منصرف إلى أصحابي ومثبطهم عنك ، فانصرف إلى أصحابه فقال إن فارس الظعينة قد حماها وقتل أصحابكم وانتزع رمحي ولا مطمح لكم فيه فانصرف القوم فقال دريد في ذلك[1] :

مـا إنْ رايتُ ولا سمعتُ بمثلِهِ ... حامي الظعينة فارساً لم يُقتلِ
أروى فوارسَ لم يكونوا نُهزةً ... ثم استمرّ كأنَه لم يفعلِ
متهللاً تبدو أسرّة وجهه ... مثل الحسامِ جلته كفُّ الصيقلِ
يزجي ظعينتَه ويسحبُ رُمحَه ... متوجهاً يمناه نحو المنزلِ
وترى الفوارسَ من مهابةِ رُمحِهِ ... مثلَ البُغاثِ خَشينَ وقعَ الأجدلِ
يا ليت شعري من أبوه وأُمُّهُ ... يا صاحِ من يك مثلَه لا يُجْهلِ

ففي هذه الأبيات اعتراف من دريد بكفاءة هذا الفارس الشجاع في الذود عن زوجته ومهاجمة الفوارس الذين أرادوا أن يغتصبوها منه ، وقد كان من إعجاب دريد بربيعة أن أعطاه رمحه حتى يحمي نفسه به من الأعداء ، وفي هذا يقول ربيعة بن مكدم[2] :

إنْ كان ينفعُكِ اليقينُ فَسائلِي ... عني الظعينةَ يومَ وادي الأَخرمِ[3]
إذ هي لأولِ من أَتاها نهبةٌ ... لولا طعانُ ربيعةِ بنِ مِكّدمِ
إذ قال لي أَدنى الفوارسِ منهم ... خلِّ الظعينةَ طائعاً لَا تَنْدمِ

---

(١) أروى قتل وأهلك ، النهزة : الغنيمة ، والحسام : السيف حلبة مسحته ، والصيقل : السيف ، يزجي : يسوق ، ويرسل ، والبغاث : شرار الطير ، والأجدل : الصقر القوي .

(٢) الأمالي ٢/٢٧٢

(٣) جياشة : تتدفق بالدم ، نجلاء : واسعة ، والأضجم : الذي في فمه عوج وميل .

فصرفتُ راحلةَ الظعينةِ نحْوَهُ عمداً ليعلمَ بعضَ ما لمْ يَعْلَمِ
وهتكتُ بالرمحِ الطويلِ إهابه فهوى صريعاً لليدِين وللفمِ
ومنحت آخرَ بعدَه جياشةً نجلاءَ فاغرةً كشدقِ الأضجمِ
ولقد شفعتهما بآخرَ ثالثٍ وأَبى الفرارَ لي الغداةَ تكرمي

ولا شك أن هذه القيم الرفيعة في حماية العرض وهي أعز ما كان يحرص عليه الشاعر الجاهلي محمودة إلى أبعد حدود الحمد ، ناهيك عما فيها من بسالة في الثبات ومواجهة الأقران ، ثم التقدير من زعيم أولئك الفرسان وهو دريد بن الصمة لهذا الفارس العربي الذي كان من أنجد فرسان العرب .

وتضيف نفس الرواية أن بني كنانة أغاروا على بني جشم فقتلوا منهم كثيراً وأسروا دريد بن الصمة فأخفى نسبه ، فبينما هو عندهم محبوس إذ جاءت نسوة يتهاوين إليه ، فصاحب إحداهن فقالت : هلكتم وأهلكتم ، ماذا جرّ علينا قومنا ؟ هذا والله الذي أعطى ربيعة رمحه يوم الظعينة . ثم ألقت عليه ثوبها وقالت يا آل فراس أنا جارة له منكم ، هذا صاحبنا يوم الوادي . فسألوه من هو ؟ فقال : أنا دريد بن الصمة ، فمن صاحبي ؟ قالوا ربيعة بن مكدم ، قال : فما فعل ؟ قالوا : قتلته بنو سليم . قال : فما فعلت الظعينة ؟ قالت المرأة : أنا هي ، وأنا امرأته فحبسه القوم وأمروا أنفسهم ، فقال بعضهم لا ينبغي لدريد أن تكفر نعمته على صاحبنا وقال الآخرون لا والله لا يخرج من أيدينا إلا برضا المخارق الذي أسره .

فانبعثت المرأة في الليل وهي ريطة بنت جذل الطعان تقول[(١)] :

سنجزي دريداً عن ربيعةَ نعمةً وكلُّ امرىء يجزى بما كان قدَّما[(٢)]

---

(١) الأمالي ٢/٢٧٢ ، والعقد الفريد ٥/١٧٢ .

(٢) نجزي : نثيب ، قدم : أي فعل خيراً أو شراً ، الجزاء : الثواب ، والمذم : المكروه ، المقوم : المستقيم ، لا تكفروا : لا تجحدوا فضله ، والإسار : السجن أو الأسر .

فإنْ كان خيراً كان خيراً جزاؤه ... وإنْ كان شراً كان شراً مذمّما

سنجزيه نعمى لم تكن بصغيرةٍ ... بإهدائه الرمحَ الطويلَ المقوّمَا

فلا تكفروه حقَّ نعماه فيكم ... ولا تركبوا تلك التي تركب الفمَا

فلو كان حياً لم يضق بثوابهِ ... ذراعاً ، غنياً كان أو كان مُعْدَما

ففكوا دريداً من إسار مخارقٍ ... ولا تجعلوا البؤسى إلى الشر سُلَّما

وهذه الأبيات نابعة من عاطفة صادقة تريد أن تكافىء الجميل بالجميل والإحسان بالإحسان ، ولا غرابة في ذلك عند العرب الذين هم معدن الفضل وينابيع الخير ، وقلما نجد عند بعضهم إنكاراً لجميل أو جحوداً لنعمة .

وبعد فإن ربيعة بن مكدم فارس شريف وشاعر الوجدان النابض بالغيرة على المحارم ولا شك أن قبيلته كانوا على غراره حمية وغيرة وفروسية وشجاعة .

رابعاً : دريد بن الصمة :

هو دريد بن الصمة ودريد لقبه والصمة لقب أبيه ، أما نسبه فهو أبو عمرو معاوية بن الحارث بن معاوية بن بكر بن علقمة بن غزية بن جشم بن معاوية بن بكر بن هوازن بن قيس عيلان ويكنى أيضا أبا قرة، وكانت أمه ريحانة بنت معدي كرب . ودريد شاعر فحل قال الأصمعي[1] « هو في بعض شعره أشعر من النابغة الذبياني » . ونقل الأغاني عن الجمحي أنه جعله أول شعراء الفرسان ، وهو أحد الشجعان المشهورين وذوي الرأي في الجاهلية ، وكان سيد بني جشم وفارسهم وقائدهم ، وكان مظفرا . وكان دريد أطول الفرسان الشعراء

(١) الأصمعيات ٢٨/١٠٥ ، تاريخ الأدب العربي ١/٢٢٨ ، والأغاني ٣٠٨ ، الشعر والشعراء ٢/٧٤٩ ، وحماسة أبي تمام ٢/٣٣٦ ، وأيام العرب ٢٩٣ .

غزواً وأبعدهم أثراً وأكثرهم ظفراً وأيمنهم طائراً . ويقال إنه غزا مائة غزوة كان فيها القائد المنصور على أعدائه وأدرك الإسلام ولم يسلم ، وخرج مع قومه يوم حنين مظاهراً للمشركين ولا فضل فيه للحرب وإنما أخرجوه تيمنا به وليقبسوا من رأيه وقتل يومئذ على شركه سنة ٨ هـ ، وقد شهد يوم حنين مع هوازن[١] وهو شيخ كبير في شجار له يقلد به والشجار مركب دون الهودج مكشوف الرأس فقال بأي واد أنتم ؟ قالوا بأوطاس . قال : نعم مجال الجيش لا حزن ضرس ولا سهل دهس ، ثم قال لمالك بن عوف مالي أسمع بكاء الصغير ورغاء البعير ونهاق الحمير ويعار الشاء ؟ فقال مالك يا أبا قرة إني سقت مع الناس أموالهم وذراريهم وأردت أن أجعل خلف كل رجل أهله وماله يقاتل عنه ، فأنقض به دريد ثم قال : رويعي ضأن والله ، وهل يرد المنهزم شيء ، وقال هذا يوم لم أشهده ولم أغب عنه وقال[٢] :

يا ليتني فيها جَذَعْ أخبُّ فيها وأضعْ
أقودُ وطفاءَ الزمعْ كأنها شاةُ صَدعْ

أما قصة قتله فقد أوردها صاحب الأغاني وهي أن ربيعة السلمي[٣] أدرك دريداً فأخذ بخطام جمله في نهاية معركة حنين وهو يظن أنه امرأة ، فأناخ به فإذا هو برجل شيخ كبير ولم يعرفه الغلام فقال له دُريد ماذا تريد قال أقتلك قال ومن أنت قال أنه ربيعة بن رفيع السلمي ، ثم ضربه بسيفه فلم يغن شيئاً فقال له بئس ما سلحتك أمك خذ سيفي هذا من مؤخر رحلي واضرب به وارفع عن العظام واخفض عن الدماغ فإني كذلك كنت أفعل بالرجال ، ثم إذا أتيت أمك فأخبرها

---

(١) الشعر والشعراء ٢/٧٤٩ .

(٢) سيرة ابن هشام ٨٤٠ ـ ٨٤٢ ، والجذع : الصغير السن ـ والخبب والوضع : نوعان من السير ـ والوطفاء : الطويلة : والزمع : الشعر ، والوعل : تيس الجبل ، وصدع : وسط بين الكبير والصغير ، والبيتان في اللسان ١٠/٢٧٩ .

(٣) الأغاني ٣١٠ .

أنك قتلت دريد بن الصمة ، فرب يوم قد منعت فيه نساءك . قال ربيعة : لما ضربته بالسيف سقط فانكشف فإذا عجانه وبطن فخذيه من القراطيس من ركوب الخيل أعراء .

وهذا فيه الدليل الواضح على حرص دريد أن يكون قتيلاً حتى ولو لم يكن قادراً على القتال ، حيث لم يطلب من قاتله الفداء أو الرحمة أو أن يعرفه بمكانته بل أصر على أن يعرفه بالطريق الذي يمكن أن يقتله بها ، وفعلا حدث وطلب من القاتل إخبار أمه ، وقد أخبر ربيعة أمه بقتل دريد فقالت له : أعتق قتيلك ثلاثاً من أمهاتك .

ومن هذا نجد أن دريداً نشأ فارساً مغواراً ، حيث كان أبوه فارساً كذلك لبني جشم في معارك ضارية ضد أعدائهم في يوم نخلة في حرب الفجار في عام (٣٨ ق هـ عام ٥٨٤ م)[١] ، ثم أخذ دريد الفروسية بجدارة عن أبيه حيث كان له أربعة أخوة أشقاء فرسان عبد الله وعبد يغوث وقيس وخالد ، وكانوا جميعا من الفرسان المعدودين ، وقد قتلوا في المعارك في حياته هو أما خاله عمرو بن معدي كرب فهو من الفرسان الشجعان المعدودين في الجاهلية والإسلام حيث ساهم في معركة نهاوند والقادسية ، وأمه ريحانة بنت معدي كرب أخت عمرو وكان أبوه الصمة سباها وتزوجها فأولدها ابنيه وإياه يعني عمرو بقوله[٢] :

أمن ريحانةَ الداعي السميعُ ... يؤرقني وأَصحابي هجوعُ
إذا لم تَستَطعْ شيئاً فَدعْهُ ... وجاوزه إلى ما تستطيعُ

وقد قالت ريحانة لدريد بعد حول من مقتل أخيه يا بني إن كنت عجزت عن طلب الثأر فاستعن بخالك وعشيرته من زبيد ، فأنف من ذلك وحلف لا يكتحل ولا يدهن ولا يأكل ولا يشرب خمراً حتى يدرك ثأره فأغار على غطفان

(١) تاريخ الأدب العربي ١/٢٢٨ .
(٢) الأغاني ٣٠٨ .

وغزاهم حياً حياً فقتل من قتل وجاءها بذؤاب بن أسماء فقتله بأخيه بفنائها . فقال : هل بلغت ما في نفسك ؟ قالت : نعم ، متعت بك وقال في ذلك قصيدة[1] :

يا راكباً إما عرضتَ فبلغنْ	أبَا غالبٍ أنْ قدْ ثأرنا بِغَالبِ
وأبلغ نميراً إنْ مررتَ بدارِهَا	علي نأيها فأيُّ مولىً وطالبِ
قتلت بعبد الله خير لِدَاتِهِ	ذؤابَ بنَ أسماءِ بن زيدِ بنِ قاربِ

ولما أنشد عبد الملك بن مروان شعر دريد هذا فقال : كاد دريد أن ينسب ذؤاب بن أسماء إلى آدم .

وفي الصبر على قتل أخيه يقول دريد ـ وفي هذه الأبيات يقول أبو عمرو بن العلاء : أحسن شعر قيل في الصبر على النوائب قول دريد[2] :

تقولُ ألا تبكي أخاكَ وقد أَرى	مكان البَكُا لكن بنيتَ على الصبرِ[3]
فقلت أعبدَ الله أبكي أم الذي	له الجدثُ الأَعلى قتيلَ أَبي بَكْرِ
وعبدَ يغوثَ تحجلُ الطيرُ حولَه	وعزَّ المصابُ حثوَ قبرٍ على قبرِ
أبى القتلَ إلا آل صمة إنهم	أبوا غيره والقدر يجري إلى القدرِ[4]
فإما ترينا ما تزال دماؤنا	لدى واترٍ يسعى بها آخرَ الدهرِ
فإنا للحمِ السيفِ غيرُ نكيرةٍ	ونلحمه حيناً وليس بذي نُكرِ
يُغار علنيا واترين فُيشتفى	بنا إن أصبنا أو نغيرُ على وترِ

---

(١) الأصمعيات رقم ٢٩ ص ١١١ والأغاني ٣٠٩ .
(٢) الحماسة ٢/٣٤٠ ، الأغاني ٣٠٩ ، الشعر والشعراء ٢/٧٥١ .
(٣) مكان البكا : محل البكاء ـ والجدث القبر ، والأعلى : الأشرف .
(٤) آل صمة : أي أولاده ، وكان لدريد أخوة كلهم قد قتل ، والمعنى أن هؤلاء أبوا أن يموتوا حتف أنوفهم نكيرة منكر أو غير غريب علينا ، واترين : جمع واتر وهو صاحب الثأر والشطر النصف .

قسمنا بذاك الدهرَ شطرين بيننا فما ينقضي إلا ونحن على شَطرِ

وعلى أية حال يوجه دريد هذه المعاني الموجودة في الأبيات إلى زوجته التي أكثرت من لومه وذلك حزناً على فراق أخيه ، ويقول إن أخاه عبد الله قد قتله بنو بكر وقد احتل مكانة ممتازة وقد أخذ آل صمة على أنفسهم عهداً أن يموتوا تحت ظلال السيوف إما منتصرين أو مهزومين ، والدهر عندهم شطران إما أن يكونوا طالبين لثأرهم أو مطلوبين من الآخرين ، وهذه المعاني القوية غرست فيهم روح البطولة والإقدام .

ومن أخبار دريد بن الصمة[1] أنه مر بالخنساء وهي تهنأ[2] بعيراً لها وقد تبذلت حتى فرغت منه ثم نضت عنها ثيابها فاغتسلت ودريد يراها وهي لا تشعر به فأعجبته ، فلما أصبح غدا على أبيها فخطبها إليه فقال له أبوها مرحبا بك أبا قرة إنك للكريم لا يطعن في حسبه ، والسيد لا يرد عن حاجته ، والفحل لا يقرع أنفه ؛ ولكن لهذه المرأة في نفسها ما ليس لغيرها وأنا ذاكرك لها وهي فاعلة ، ثم دخل إليها وقال لها : يا خنساء أتاك فارس هوازن وسيد بني جشم دريد بن الصمة يخطبك وهو من تعلمين ، ودريد يسمع قولهما ، فقالت : يا أبت أتراني تاركة بني عمي مثل الرماح العوالي ، وناكحة شيخ بني جشم هامة اليوم أو غد ، ثم قالت أنظرني حتى أشاور نفسي ، ثم بعثت خلف دريد وليدة فقالت لها انظري دريداً إذا بال فإن وجدت بوله قد خرق الأرض ففيه بقية وإن وجدته قد ساح على وجهها فلا فضل فيه .

فاتبعته وليدتها ثم عادت إليها فقالت : قد ساح ، فأمسكت فغضب دريد وهجاها فقيل لها ألا تجيبينه فقالت لا أجمع عليه أن أرده وأهجوه .

وفي ذلك يقول دريد عندما رآها[3] :

---

(1) الأغاني ٣٠٨ .

(2) تهنأ : تدهن بالقطران .

(3) الأمالي ٢/١٥٧ .

حيوا تُماضر واربعوا صحبي | وقفوا فإنَّ وقوفكم حسبي[1]
ما إن رأيتَ ولا سمعتَ بمثلهِ | كاليوم طالٍ أينقٍ جربِ
متبذلاً تبدو محاسنُه | يضع الهناءَ مواضعَ النقبِ
متحسرا نفخ الإناء بهِ | نفخَ البعير بريطة العصبِ
أخناسُ قد هام الفؤاد بكم | واعتاده داءٌ من الحَبِّ
فسليهم عني خناسُ إذا | غصَّ الجميعُ هناك ما خَطبي

ويقال إن أخاها معاوية وافق على أن يزوجها ، وكان صخر غائباً في غزاة له فأبت الخنساء ذلك فقالت ترد على أخيها بعد أن حاول إكراهها على الزواج منه[2] :

أتُكْرهنُني هُبلتَ على دريدٍ | وقد حرمتُ سيدَ آل بَدرِ[3]
معاذَ اللّه يرصعني حَبَرْكِي | قصيرُ الشبرِ من جُشمٍ بنِ بكرِ

وعندما بلغ الشعر دريداً قال في الرد عليها :

وقالت إنه شيخٌ كبيرٌ | وهل خَبرتها أني أبنُ أَمسِ
تريد أفيحجَ الرجلين شثناً | يقلع بالجديرةِ كلّ كرسي

وقائع دريد بن الصمة :

يقال إن دريد بن الصمة غزا مائة غزوة أهمها يوم الفجار ثم يوم اللوى[4].

---

(١) النضح : الرش ، العصب : الشد والربط ، والريطة : الثوب .
(٢) هبلت : دعات على معاوية ، والحبركي : القصير ، ويرصعني : ينكحني .
(٣) الأمالي ٢/١٥٨ ، والشثن : الخشن الغليظ ، والجديرة : الخطيرة ، والكرسي المجتمع .
(٤) أيام العرب ٢٩٣ ، والعقد الفريد ٥/١٥٦٨ ، تاريخ الأدب العربي ١/٢٢٩ ، وجمهرة أشعار العرب ص ٢٢٦ ، ديوان الحماسة ٣٠٥ .

ويوم حنين ، وفي غزوة الفجار قتل الصمة . حيث كان والد دريد قائداً لبني جشم في يوم نخلة في حرب الفجار (٣٨ ق . هـ) أما في يوم اللوى فقد غزا عبد الله الصمة ومعه بنو جشم وبنو نصر ابنا معاوية بن بكر بن هوازن غزا غطفان فظفر بهم وساق أموالهم في يوم يقال له يوم اللوى[١] ومضى بها . ولما كان منهم غير بعيد قال انزلوا بنا فقال له أخوه دريد النجاء يا أبا فرعان[٢] نشدتك الله ألا تنزل فإن غطفان ليست بغافلة عن أموالها وقد ظفرت فأقسم لا يريم حتى يأخذ مرباعه[٣] وينقع نقيعه فيأكل ويطعم ويقسم البقية على أصحابه . وبينما هم على ذلك وقد سطعت الدواخن إذ بغبار ارتفع أشد من دخانهم وإذ عبس وفزارة وأشجع قد أقبلت فقال لربيئتهم انظر ماذا ترى ؟

فقال أرى رجالاً ـ جعادا[٤] كأن سرابيلهم قد غمست في الجادي[٥] قال تلك أشجع لست بشيء ، ثم نظر فقال أرى قوما كأنهم الصبيان أسنتهم عند آذان خيلهم ، قال تلك فزارة ، ثم نظر فقال أرى قوماً أدماناً كأنما يحملون الجبل بسوادهم يخدون الأرض بأقدامهم خداً وهم يجرون رماحهم جراً . قال تلك عبس والموت معهم .

ثم تلاحقوا بالمنعرج في رحيلة اللوى فاقتتلوا ، فقتل رجل من بني عبد الله بن الصمة فتنادوا قتل أبو دفافة ، فعطف دريد أخوه فذب عنه فلم يغن شيئاً ، وجرح دريد وسقط فكفوا عنه وهم يرون أنه قتل ، واستنفذوا المال ونجا من هرب ، فمر زهدم العبسي وكروم الفزاري بدريد وهو مرتث في القتلى ، قال دريد فسمعت زهدماً العبسي يقول لكردم الفزاري إني لأحسب دريداً حياً فانزل فأجهز

---

(١) هذا اليوم كان من نصيب غطفان ضد قبيلة هوازن واللوى واد من أودية بني سليم .

(٢) كان لعبد الله ثلاثة اسماء وثلاثة كنى فاسمه عبد الله ومعبد وخالد وكنيته ابو فرعان وأبو دفافة وأبو وفاء .

(٣) النقيعة : ناقة من وسط الإبل ينحرها الرئيس لأصحابه : والمرباع ربع الغنيمة .

(٤) الجعاد : جمع جعد وهو الشديد .

(٥) الجادي : الزعفران .

عليه قال قد مات انظر إلى سبته[١] هل رمز[٢] قال دريد فشدوت من حثارها[٣] ثم مال بالزج في الشرج فطعن فيه فسال دم كان قد احتقن في جوفي فعرفت الخفة حينئذ وأمهلت حتى إذا كان الليل مشيت وأنا ضعيف قد نزفني[٤] الدم حتى ما أكاد أبصر وما شعرت إلا وأنا بين عرقوبي بعير ظعينة[٥] فنفر البعير فنادت تعوذ بالله منك من أنت قلت لا بل من أنت ويلك فقالت امرأة من هوازن وأنا من هوازن وأنا دريد بن الصمة فأعلمت الحي بمكاني فغسل عني الدم وزودت زاداً وسقاء ونجوت .

وقد حزن دريد على أخيه عبد الله حزناً شديداً ونظم فيه أجود المراثي الحزينة ولم يترك غزو بني غطفان حتى قتل جماعة منهم ولم يرهم يفون بأخيه ، ولما لامته امرأته أم معبد على الإسراف بالأخذ بالثأر وفي الحزن طلقها ، ولكنها قالت فيه بعد طلاقها (لقد أطعمتك مأدومي ، وبثثتك مكتومي ، وأتيتك باهلاً[٦] غير ذات صدار) قال في رثاء أخيه عبد الله[٧] :

أرثَّ جديدُ الحبلِ من أُم معبدِ[٨]	بعاتبه وأخلفتْ كلَّ موعدِ
وباتت ولم أحمدْ إليك جوارها	ولم ترجُ منا ردَه اليومَ أو غدِ
أعاذلَ كلُّ امرِىءِ وابنَ أمهِ	متاعُ كزادِ الراكبِ المتزودِ[٩]

---

(١) سبته : إسته . (٢) ترمز : تضطرب .

(٣) الحثار : الشرج .

(٤) نزف الدم : نزل بغزارة .

(٥) الظعينة : المرأة ما دامت في الهودج .

(٦) باهلاً : أبحت لك نفسي .

(٧) أيام العرب ٢٩٥ ، وتاريخ الأدب العربي ١/٢٣٠ ، والعقد الفريد ٥/١٦٩ ،وأغاني الأغاني ٣٠٩ .

(٨) أم معبد زوجته التي لامته فطلقها لذلك .

(٩) أعاذل ترخيم : عاذلة مثل أفاطم ترخيم فاطمة .

أعاذلَ[١] إن الرزء في مثلِ خالدٍ ولا رزءَ مما أهلك المرءُ عن يدِ
نصحتُ لعارض[٢] وأصحابِ عارضٍ ورهطِ بني السوداء والقوم شُهَّدي
فقلتُ لهم ظنوا بألفي مدججٍ[٣] سراتهم[٤] في ا لفارسِ المسرّدِ[٥]
أمرتُهم أَمري بِمُنْعَرَجِ اللّوى فلم يستبينوا الرشدَ إلا ضحى الغَدِ
فلما عصوني كنت منهم وقَد أرى غوايتهم وأنني غير مهتدِ
وهل أنا إلا من غزيةَ[٦] إن غَوَتْ غويتُ وإن تَرشُدْ غزيةُ أَرشُد
دعاني أخي والخيلُ بيني وبينه فلما دعاني لم يجدني بقعددِ[٧]
تنادوا فقالوا أرْدَتَ الخيلُ فارساً فقلت أعبدُ اللّهِ ذلكم الرّدي[٨]
فإن يكُ عبدُ الله خلّى مكانه فلم يكُ وقافاً لا طائشَ اليدِ[٩]
ولا برماً إذا الرياحُ تناوحتْ برطبِ العضاةِ والهشيم المعضدِ[١٠]
كميش الإزارِ خارجٌ نصفُ ساقِهِ بعيدٌ من الافاتِ طلاعُ أَنجد[١١]
قليلِ التشكي للمصيبات حافظٌ من اليوم أعقاب الأحاديث في غدِ
تراه خميصَ البطنِ والزادُ حاضرٌ عنيدٌ ويغدو في القميص المقددِ[١٢]

---

(١) أعاذل ترخيم : عاذلة مثل أفاطم ترخيم فاطمة .
(٢) عارض من أسماء أخيه عبد الله ، ورهط بني السوداء أصحابه .
(٣) مدجج : الجندي يحمل السلاح .
(٤) سراة : جمع سري وهو السيد الشريف .
(٥) السرد : الدرع .
(٦) غزية : قبيلة من هوازن .
(٧) قعدد : الجبان اللئيم .
(٨) الردي : الهالك.
(٩) خلى مكانه : مضلى لسبيله ، الوقاف : الهيابة ، الطائش : الذي لا يصيب .
(١٠) البرم : الضجر ،تناوحت الرياح :هبت صب مرة وشمالا مرة ، العضاة : كل شجر يعظم وله شوك ، الهشيم النبت : اليابس ، المعضد : المقطع .
(١١) كميش الإزار : مثل في الجد .
(١٢) خميص البطن : فارع البطن أو ضامر البطن .

وان مسَّـه الإقـواء والجـهـد زادَهُ　　سماحاً وإتلافاً لمـا كان في اليـدُ [1]

صَبَا ما صبا حتى علا الشيبُ رأسه　　فلمـا عـلاه قـال للبـاطـلِ أبعـدِ [2]

وطيبَ نـفسـي أنني لـم أَقُـلْ لـه　　كـذبتَ ولم أبخـلْ بمـا ملكتْ يـدي

نـظرتُ إليـه والـرمـاحُ تنـوشُـه　　كوقع الصياصي في النسيج المددِ [3]

وكنت كـذات البـو ريعت فـأقبلتْ　　إلى جلد من مسـك شعب مَقـددِ [4]

فـطاعنت عنـه الخيـل حتى تبـددت　　وحتى علاني حالك اللون أسودي [5]

فمـا رمت حتى خـرقتني رمـاحُهُم　　وغـودرت أكبو في القَنـا المتقصدِ [6]

قتـال امـرىء واسى أخـاه بنفسِـه　　وأيـقنَ أَنَّ الـمـرءَ غـيـرُ مـخـلّدِ [7]

وبعد فإن هـذه الأبيات الـرثائيـة تحمل في طيـاتها الصـدق في العاطفـة والبراعة في إبداء مشاعر اللوعة والأسى ، ثم يصف كيف أنه نصح أخـاه بعدم البقاء في مكان معين حتى لا ترجع غطفان تهزمهم ، ولكن أخاه رفض فكانت المصيبة أن هلك . وتسود هذه الأبيات الحكم التي نألفها غـالباً في هـذا الفن الشعري وقد سئل أحد الأعراب :

لماذا تعدون الرثاء أصدق أشعاركم ؟ فقال : لأننا نقوله وقلوبنا تحترق . ثم يفصح في هذه الأبيات عن الروح العصبيـة الجارفـة التي تمثل أنـه فرد من جماعة إن أصابوا أصاب وإن أخطؤوا أخطأ .

---

(١) الإقواء : الجهد والتعب .

(٢) الصبا : من الصبابة وهو شدة الشوق والوجد .

(٣) تنوشه : تتناوله وتمزقه والصياصي جمع صيصة وهي شوكة الحائك .

(٤) ذات البو : ناقة يذبح ولدها ،(أي كنت من الحزن عليه كالناقة التي فقدت ولدها) ، الشعب : ولد الناقة .

(٥) المسك : الجلد .

(٦) تبددت : تفرقت .

(٧) المتقصد : المتكسر .

ثم أسبغ على أخيه عبد الله كثيراً من الصفات الحميدة مثل الكرم والشجاعة والثبات والجودة في رمي الرماح وقراع الأبطال ، ولم يصبر دريد على غطفان الذين قتلوا أخاه ، بل أغار عليهم وقاتلهم حياً حياً وقتل من بني عبس ساعدة بن مرة وأسر ذؤاب بن أسماء بن زيد بن قارب أسره مرة بن عوف الجشيمي فقالت بنو جشم لو فاديناه ، فأبى ذلك دريد عليهم ، وقتله بأخيه عبد الله ، وقتل من بني فزارة رجلاً يقال له حزام وإخوة له ، وأصاب جماعة من بني مرة ومن بني ثعلبة بن سعد ، ومن أحياء غطفان وذلك في يوم الغدير . وفي هذا اليوم يقول[1] .

تأبَّدَ من أهله مَعْشَر	فجو سويقةَ فالأصفرُ[2]
فأبلغ سليمىَ وألفافها	وقد يعطفُ النسبُ الأكبرُ
بأني ثأرت بإخوانِكم	وكنت كأني بهم مخفرُ
صحبنا فزارة سُمرَ القنَا	فمهلا فزارة لا تضجروا

وهو في هذه الأبيات الأخيرة يتحدث عن أخذه الثأر من قاتلي أخيه ويرد على الأعداء من فزارة وغطفان وغيرهم بأنهم أبطال لا يتركون حقهم ولا دماءهم تذهب سدى .

أما عن يوم حنين فقد مضى الحديث عنها فيما سبق .

وبهذا نجد أن دريد بن الصمة فارس الشعراء وشاعر الفرسان الكرام الأبطال في العصر الجاهلي ، وهو شاعر مجيد برع في الفخر والحماسة والرثاء . ثم كان له بعض الهجاء في الخنساء التي رفضت الزواج منه . ولا شك أن شاعراً فارساً فاتكاً أمثال دريد كان قوة لفرسان قبيلته بني جشم أن يقتدوا به ، وكان يعجب بالبطولة ، وقد مر بنا ما فعله مع ربيعة بن مكدم صاحب الظعينة .

---

(١) أيام العرب ص ٢٩٨ .

(٢) تأبد : أقفر ، ومعشر : وجود سويقة ، الأصفر : أسماء ، الألفاف : القوم .

خامساً : بسطام بن قيس الشيباني :

هذا فارس بكر وأحد شجعان العرب العظام ، وكان له أيام في قبائل العرب انتصر في بعضها تارة وهزم في بعضها الآخر مرة أخرى ، وكان مقدماً في بلاط النعمان بن المنذر[١] ، حيث أوفده النعمان على كسرى في وفد العرب وكانت سيادته لبني شيبان تحتل الاحترام والتقدير في قيادتهم للغزو والفتك وقد قتل يوم الشقيقة في غارة له تحدثنا بها الأصمعيات [٢] حيث تقول :

كان بسطام بن قيس بن مسعود سيد بني شيبان قد غزا بني ضبة بن أد من تميم ومعه أخوه السليل بن قيس فلما دنا من نقا يقال له الحسن[٣] في بلاد ضبة وجد ألف ناقة لمالك بن المنتفق الضبي ، فأغار عليها وأطردها فلحقته خيل ضبة وحمل عليه عاصم بن خليفة أحد بني صباح فطعنه بالرمح فخر بسطام قتيلاً ، وفر بنو شيبان وكان عبد الله بن عنمه الضبي مجاوراً في بني شيبان فخاف أن يقتل فقال قصيدة في رثاء بسطام بن قيس ، ويقال لهذا اليوم يوم (نقا الحسن) ويوم الشقيقة[٤] . ويوم السقيفة[٥] .

وأما تفاصيل هذا اليوم فقد تواترت الروايات أن بعض من خرج مع بسطام ابن قيس للغزو أشار عليه بعدم المضي في الإغارة ، وذلك أن بسطام بن قيس عندما رأى نعماً قد ملأ الأرض فيه ألف بعير لمالك بن المنتفق الضبي فقد فقأ

(١) أيام العرب ص ١٩١

(٢) الأصمعيات رقم ٨ ص ٢١

(٣) النقائض ١/٢٣٤

(٤) راجع النقائض ١/١٩٠ ، ١/١٩٢ ، ١/٢٣٤ ، العقد الفريد ٥/٢٠٢ أيام العرب ٣٨٢ ، الأصمعيات رقم ٢٦/٨ .

(٥) هذا اليوم كان لضبة على بني شيبان والشقيقة كل جمد بين حبلى رمل ، وقيل الشقيقة فرجة في الرمال ، ونقا الحسن اسم رمل بضبة .

عين فحلها وكذلك كانوا يفعلون في الجاهلية إذا بلغت إبل آحدهم ألف بعير تفقأ عين أحدها ليردوا عنها الحسد ، وإبل من تبعه وجميعها إبل ربيعه ومالك بن المنتفق على فرس له جواد فلما أشرف بسطام على النقا تخوف أن يروه فينذروا به فاضطجع بطنه لظهره وانحدر حتى أسهل من الأرض ونظر رجل أسدي إلى لحية بسطام فوجدها معفرة بالتراب حين أسهل وقال :

لئن صدق طائرك لتعفرنك بنو ضبة اليوم بالتراب فأطعني وانصرف فقال له بسطام : أأرجع وقد بلغت غايتي وأشرفت على الغنيمة ؟ فقال الأسدي : إني لست لك بصاحب ، وأنا منصرف عنك وتاركك . ثم أخذته رعدة تهيباً لفراقه وقال له : ارجع يا أبا الصهباء فإني أتخوف عليك القتل . وركب نقيد الطريق وفارقه وركب بسطام وأصحابه وأغاروا على الإبل وطردوها وفيها فحل لمالك يقال له أبو شاغر وكان أعمى ونجا مالك بن المنتفق على فرسه إلى قومه من ضبة واستصرخهم قائلاً يا صباحاه فأجابوه ثم عاد ومعه فوارس منهم أدركوا القوم وهو يطردون النعم فجعل فحله أبو شاغر يشذ من النعم ليرجع وتتبعه الإبل فكلما تبعته ناقة عقرها بسطام فلما . رأى مالك ما يصنع بسطام وأصحابه قال : لماذا السفه يا بسطام لا تعقرها لا أبالك فإما لنا وإما لك .

وكان عاصم بن خليفة الصباحي أحد بني ضبة رجلاً أحمق فقال لرجل من فرسان قومه أيهم رئيس القوم قال : حاميتهم صاحب الفرس الأدهم يعني بسطاما ، وكان بسطام يحمي قومه في أخريات الناس على فرس يقال له الزعفران فعارضه عاصم حتى حاذاه ثم حمل عليه فطعنه بالرمح في صماخ أذنه وأنفذ الطعنة إلى الجانب الآخر وهو معتجر بملاءة صفراء ثم نزل إليه عاصم ليسلبه فقال له بسطام إنك قد أحرزت سلبي فعليك غيري ثم وقع رأسه على الألاءة(١) من جر الرمل فمات .

فلما رأت ذلك بنو شيبان خلو سبيل النعم وولوا الأدبار فمن قتيل وأسير

---

(١) الألاءة : شجر مر .

وأسر بنو ثعلبة بجاد[1] بن قيس بن مسعود، أخا بسطام في سبعين من بني شيبان . أما القصيدة التي قالها عبد الله بن عنمة الضبي في رثاء بسطام بن قيس فقد قالها لأنه كان مجاوراً في بني شيبان وكان يودهم لأنهم كانوا أخواله وكان يغزو معهم المغازي فلما مات بسطام خاف أن يقتل فقال هذه القصيدة التي تدل على وفاء نادر من عبد الله إلى بسطام بن قيس حيث نسي العصبية القبلية لأن قومه هم الذين قتلوا بسطام بن قيس وجادت قريحته فقال :

١ ـ لِأُمِّ الأرضِ ويلٌ ما أجنَّتْ   بحيث أَضَّر بالحسنِ السبيلُ[2]

٢ ـ يُقسِّم مالَهَ فينا ندعو   أبا الصهباءِ إذ جَنَحَ الأصيلُ[3]

٣ ـ أجدك لن تراه ولن نراه   تخبُّ به عذافرةٌ ذمولُ

٤ ـ حقيبةَ رحلِها بدنٌ وسرجٌ   تعارضُها مربّبة دؤولُ

٥ ـ إلى ميعادِ أرعنَ مكفهرٍ   تضمر في طوابقهِ الخيولُ

٦ ـ لك المرباعُ منها والصفايَا   وَحُكمك والنشيطةُ والفضولُ

٧ ـ لقد ضمنت بنو بدرِ بنِ عمروٍ   ولا يوفي ببسطام قتيلُ

---

(١) في بعض الروايات نجاد وليس بجاد .

(٢) الأصمعيات رقم ٣٦/٨ ، أيام العرب ٣٨٥ ، العقد الفريد ٥/٢٠٣ .

(٣) في رواية الأصمعي نقسمه ، أما في أيام العرب والعقد الفريد فهي يقسم . معاني الكلمات : أجنت : سترت ، وأضرّبه : دنا منه ، الحسن : كثيب بنجد في بلاد بني ضبه (والمعنى ويل للأرض ماذا أجنت من بسطام) وأبو ضبة (والكنية بسطام) ، جنح : مال ، الأصيل : العشيّ ، تجنب : تسير ، الغدافرة : الشديدة ، الذمول : السريعة ، والبدن : الدرع القصيرة ، المربية : التي تغذى في المنازل ، الذؤول : السريعة ، أرعن : جبل ، مكفهر : مرتفع ، الطوابق : جمع طبق ، المرباع : ربع الغنيمة ، الصفايا : ما يختاره الرئيس من الغنيمة ، الألاءة : شجرة ، النشيطة : ما أصابه الجيش في الطريق وقد أورد الأصمعي البيت العاشر الذي لا يوجد في أيام العرب والعقد الفريد وخام : جبن ، عرد : فر من الميدان .

٨ -وخـرَّ عـلى الآلاءة لـم يـوسّـدْ كـأن جبينـه سيـفُ صقـيـلُ

٩ ـ فـإن تجـزع عليـه بنـو أبيـه لـقـد فُـجعـوا وفـاتـهـم خـليـلُ

١٠ ـ بمـطعـام إنْ الأشـوال راحتْ إلى الحُجـرات ليس لهـا فصيـلُ

١١ ـ ومقـدام إذا الأبـطالُ خـامتْ وعـرّد عـن حـليـلتِـه الـحـليـلُ

ومعنى هذه القصيدة الجميلة الرائعة أن عبد الله بن عنمة يقول ماذا شدت الأرض من هذا الجسد الشجاع لبسطام الذي كان فارساً مغواراً وسيداً كريماً ، حيث قتل في نقا الحسن فقد كان بسطام يمتاز بعدة خصال كريمة منها أنه يقسم ماله الخاص علينا ثم يأتيه الناس وقت العشي للقرى والطعام، وهو بعد هذا الموت لن تراه لأنه قد صار في عالم الفناء ولكن اسمه باق بقاء الدهر ، ووراء هذا السيد ناقة سمينة خلفها سرج ودرع وهو يملك ربع الغنيمة من الغزو وما وجده قبل الغزو في الطريق ، وبسطام لا نظير له ولا شبيه ، فقد سقط صريعاً متأثراً من جراحه عندما طعنه الصباحي في صماخ أذنه وحق لأهله أن يجزعوا عليه فقد كان أسداً مقداماً وكريماً في قومه حيث يحمد له الكرم وقت العسرة والشدة كما يحمد له الإقدام إذا جبنت الأبطال وفرت ، وهذه حقيقة صفات القائد البطل وقد كان موته خسارة لقومه بني شيبان ولقبيلته بكر

أيام بسطام ومعاركه

أولاً : يوم العظالي[1] :

(هذا اليوم لبني يربوع من تميم على بكر)

قال أبو عبيدة عن هذا اليوم هو يوم أعشاش ويوم الأفاقة ويوم الإياد ويوم مُليحة قال أبو عبيدة كانت بكر بن وائل تحت يد كسرى وفارس فكانوا يجبرونهم

---

(١) أيام العرب ١٩١ ، العقد الفريد ٥/١٩٢ .

ويجهزونهم فأقبلوا من عند عامل عين التمر[1] في ثلاثمائة فارس متساندين يتوقعون انحدار بني يربوع في الحزن وكانوا يتشتون خفافاً فإذا كان انقطاع الشتاء انحدروا إلى الحزن فاحتمل بنو عتيبة وبنو عبيد وبنو زبيد من بني سليط أول الحي حتى أسهلوا ببطن مليحة فطلعت بنو زبيد في الحزن[2] حتى حلوا الحديثة الأفاقة وحلت بنو عتيبة وبنو عبيدة روضة الثمد وأقبل جيش بكر حتى ينزلوا الهضبة هضبة الخصي . ثم بعثوا ربيئتهم فأشرف على الخصي وهو في قلة الحزن فرأى السواد في الحديقة وتمر إبل فيها غلام شاب من بني عبيد بالجيش فعرفه بسطام بن قيس وكان قد عرف غلمان بني ثعلبة عامة حين أسره عتيبة بن الحارث بن شهاب فقال له بسطام أخبرني خبر حيك عن أميرهم من السواد الذي بالحديقة قال هم بنو زبيد قال أفيهم أسيد بن حناءة فقال نعم قال كم هم من بيت قال خمسون بيتاً قال أين بنو عتيبة قال نزلوا روضة الثمد قال فأين سائر الناس قال بجفاف[3] فقال بسطام لقومه أتطيعوني ؟ أرى أن تميلوا على هذا الحي المريد[4] من بني زبيد فتصبحوا غداً غانمين سالمين فقالوا وما يغني بنو زبيد عنا لا يردون رحلتنا قال إن السلامة إحدى الغنيمتين قالوا إن عتيبة ابن الحارث بن شهاب قد مات وقال مفروق بن عمرو قد انتفخ سحرك[5] يا أبا الصهباء وقال هانىء بن قبيصة أجبناً .

ويطول الحديث ولكن كان بسطام عندما أشار على قومه بالرجوع على صواب ، ولكن قومه رفضوا واتهموه بالجبن ولكن النتيجة كما توقعها بسطام شراً على بني بكر حيث قال لهم عندما رأى جموع بني تميم (صباح سؤلكم النواعب) وقد التقى بسطام مع فرسانه مع فرسان بني تميم ، وهم الذين كانوا

---

(١) عين التمر : بلدة قريبة من الكوفة .
(٢) الحزن : موضع لبني يربوع .
(٣) جفاف أرض لبني أسد يكثر فيها الطير .
(٤) المريد : المتنحي .
(٥) سحرك : رئتك .

ببطن الأفاقة الذين جاؤوا من الثنية وهم معدان وأخوه مقنب ابنا عصمة والأحيمر ونهبك عقاف ووديعة ودراج وعمارة والجليس وقد عرف بسطام الأحيمر فقال للأحيمر أنت هو قال نعم قال لقد عهدتك بطلاً محدوداً[1] وإني لأنفسك[2] على الموت فأعط بيدك لا تقتل فقال أبعد بجير ومالك بن حطان تؤبسني[3] على الحياة وكان الأحيمر لا يطعن برمح إلا انكسر فلما أهوى ليطعنه ولى بسطام فانهزم وقتلت تميم جماعة من فرسان بكر وأسر جماعة منهم هانىء بن قبيصة وقد فدى نفسه ونجا ومن القتلى مفروق بن عمرو والمقاعس الشيباني وزهير بن الحزور والهيش وأما بسطام فألح عليه فرسان بني يربوع وكان دارعاً على ذات النسوع وكانت إذا أجدّت لم يتعلق بها شيء من خيلهم ، وإذا أوعثت كادوا يلحقونها فلما رأى ثقل درعه وضعها بين يديه على القربوس وكره أن يرمي بها وخاف ان يلحق في الوعث فلم يزل ديدنه وديدن القوم حتى حميت الشمس عليهم وخاف اللحاق فمر بوجار ضبع فرمى الدرع فيه فمد بعضها بعضاً حتى غابت في الوجار فلما خفف عن الفرس نشطت ففاتت الطلب وكان آخر من أتى قومه وكان قد رجع إلى درعه لما رجع القوم فأخذها وكان قومه قد ظنوا أنه قتل فقال متمم بن نويرة في أسيد بن حناءه[4] :

لعمري لنعمَ الحيُ أَسمَع غدوةً ... أسيدَ وقد جدا الصراخُ المصدقُ
فأسمَعَ فتياناً كجنة عبقرٍ[5] ... لهم ريقٌ عندَ الطعانِ ومصدقُ
أخذن به جنبي أفاقَ وبطنِها ... فما رجعوا حتى أرقوا وأعتقَوا[6]

---

(١) محدود : مصروف .
(٢) نفسك : ضن بك .
(٣) تؤبسني : تحرضني .
(٤) أيا م العرب ص ١٩٤ .
(٥) عبقر : مكان بالبادية كثير الجن وفي المثال يقال (كأنهم جن عبقر) .
(٦) العقد الفريد ١٩٥/٥ وأيام العرب ١٩٤ .

وقال العوام بن شؤذب الشيباني في بسطام وأصحابه[1] يهجوهم هجاء مراً حيث أسرته بنو تميم حين فر عن قومه :

إن يـكُ في يـوم الغبيطِ مـلامـةٌ ... فيـوم العُظَالى كـان أَخزى وأَلـوما[2]

أنـاخـوا يـريـدون الصباحَ فصبَّحـوا ... وكـانـوا على الغـازين دعـوة أشأمَـا

فـررتم ولم تلووا على مُحجـريكم ... لـو الحارثُ الحـرَّابُ يُدعى لأقـدما

ومـا يجمـع الغـزو السريـع نفيرَه ... وإن تحـرموا يـوم اللقاءِ القنا الـدِما

ولـو أنَّ بسـطامـاً أُطيـع بـأمـرِه ... لأدى إلى الأحيـاء بـالنحـو مغنمـا

ففـر أبـو الصهبـاءِ إذ حمى الـوغَى ... وألقى بـأبـدانٍ[3] السـلاحِ وسلَّمـا

وأيـقنَ أن الـخيـلَ إن تـلتـبسْ بـه ... تئم[4] عـرسه أو يمـلأَ البيت مـأتمـا

ولـو أنـهـا عصفـورة لحسبتَهـا ... مسـوّمـة تـدعو عبـيداً وأزنمـا[5]

أبى لـك قيـد بـالغبيطِ لقـاءهـم ... ويـومَ العـظالى إذ نجـوت مكلمّـا

فـأفلتَ بسـطامُ جـريصـاً[6] بنفسـه ... وغـادرن في كرشـاء[7] لَدْنـاً مقـومـا

وقَـاظَ أَسـيـراً هـانـىءُ وكـأنـمـا ... مفـارقُ مفـروقٍ تغشّين عَنْـدَمَـا[8]

وحقا إنه لمن الغريب أن يفر بسطام عن بقية قومه ، ولكن ربمـا كان لـه

---

(١) العقد الفريد ٥/١٩٥ ، أيام العرب ١٩٥ .

(٢) يـوم العظالي : سمي هـذا اليوم يـوم العظالي لأن بسـطام بن قيس وهانىء بن قبيصـة ومفروق بن عمرو الشيباني حين خرجوا غازين بني تميم تعاظلوا على الرئاسة ، وهناك رواية بدل الحراب المقدام وهو الحوفزان أحد فرسان تميم المشهورين .

(٣) الأبدان : جمع بدن وهو الدرع .

(٤) تئم : تفقد زوجها .

(٥) أزنما : فرع من بني يربوع .

(٦) جريضاً : أي بلغت روحه الحلق .

(٧) كرشاء : هو كرشاء بن عمرو الشيباني .

(٨) العندم : صبغ أحمر .

العذر حيث نصح لقومه في أول الأمر بالرجوع ولكنهم رفضوا وعيروه بالجبن ، ومما يشفع لبسطام بن قيس أنه رد الكرة ثانية على بني يربوع في يوم الغبيط .

ثانياً ـ يوم الغبيط[1] :

(لشيبان على يربوع) أو (ليربوع على بني شيبان) :

ولعل الدافع من هذا اليوم كان رداً لاعتبار بني شيبان إثر هزيمتهم المرة في يوم العظالي ، قال أبو عبيدة : يقال لهذا اليوم يوم الغبيط ويوم الثعالب ويوم أعشاش ويوم صحراء الفلج وتفصيل هذا اليوم :

أن بسطام بن قيس ومفروق بن عمرو والحارث بن شريك وهو الحوفزان غزوا بلاد بني تميم ، وهذا اليوم قبل يوم العظالي فأغاروا على بني ثعلبة بن يربوع وثعلبة بن سعد بن ضبة وثعلبة بن عدي بن فزارة وثعلبة بن سعد بن ذوبان فذلك قيل له يوم الثعالب ، وكانوا هؤلاء جميعا متجاورين في صحراء فلج ، فاقتتلوا فانهزمت الثعالب فأصابوا فيهم واستاقوا إبلاً من نعمهم ، ولم يشهد عتيبة بن الحارث بن شهاب هذه الوقعة لأنه كان نازلاً يومئذ في بني مالك بن حنظلة ، ثم امتروا[2] على بني مالك وهم بين صحراء فلج وبين الغبيط فاكتسحوا إبلهم ، فركبت عليهم بنو مالك فيهم عتيبة بن الحارث بن شهاب اليربوعي ومعه فرسان من بني يربوع تأثفهم[3] ، وتألف إليه الأحيمر بن عبد الله والأسيد بن حفاءة وأبو مرحب وجزء بن سعد الرياحي وهو رئيس بني يربوع وربيع والحليس وعمارة بنو عتيبة بن الحارث ومعدان وعصمة ابنا قعنب ومالك بن نويرة والمنهال بن عصمة أحد بني رياح بن يربوع وهو الذي يقول فيه متمم بن نويرة في شعره الذي يرثي فيه مالكاً أخاه :

---

(١) النقائص ٧٥ ، العقد الفريد ٥/١٩٦ ، أيام العرب ١٩٧ .

(٢) امتروا : مروا .

(٣) تأثف : تتبع وتحوط (مثل الأثافي للرماد) .

لقـدْ غيَّبَ المنهـالُ تحتَ لـوائِـه   فتىً غيـرَ مبـطانِ العشيَّـةِ أروعَـا

فأدركوهم في غبيط المدرة فقاتلوهم حتى هزموهم وأدركوا ما كانوا استاقوا من إبلهم ، وألح عتيبة وأسيد والأحيمر على بسطام عتيبة فقال استأسر لي يا أبا الصهباء فقال ومن أنت قال أنا عتيبة وأنا خير لك من الفلاة والعطش فأسره عتيبة ونادى القوم بجاداً أخا بسطام كرّ على أخيك وهم يرجون أن يأسره فناداه بسطام إن كررت فأنا حنيف .

وكان بسطام نصرانياً فلحق بجاد بقومه فلم يزل بسطام عند عتيبة حتى فادى نفسه . ويزيد أبو عبيدة فيقول إن أبا عمرو بن العلاء زعم أنه فدى نفسه بأربعمائة بعير وثلاثين فرساً ، ولم يكن عربي عكاظي أغلى فداء منه على أن جز ناصيته وعاهده ألا يغزو بني شهاب أبداً ، فقال عتيبة بن الحارث بن شهاب في أسره[1] :

أبـلغ سـراةَ بنـي شيبـانَ مـألكـةً   أني أبـأتُ بعبـد الله بِسـطَامَـا[2]

إن تـحـرزوه بـذي قـارٍ فـذاقنـة   فقـد هبـطت بـه بيـداً وأعـلامـا

قَـاظَ الشِّـرَبـةَ في قيـدٍ وسلسلةٍ   صـوتَ الحديـدِ يُغنّيه إذا قَـامَـا

ومن هذا العرض لغزوات بسطام نجد أنه كان شجاعاً حقاً إذ لم تثنه الهزيمة عن شن الغارات لأخذ الثأر ، وقد وقع بسطام في الأسر وفدى نفسه بمال كثير بعد أن أخذ عليه عتيبة بن الحارث بن شهاب عهداً بعدم غزو قبيلته بني شهاب ، ولكن لم يف بهذا واستمر في الغزو وجمع فرسان شيبان أكثر من مرة لهذا الغرض وهذا ما حدث في يوم فشاوة .

---

(١) أيام العرب ص ٢٠٠ ، العقد الفريد ص ١٩٨ .

(٢) بنو شهاب هم قوم عتيبة بن الحارث . ويقول ابن الأثير لما خلف بسطام من الأسر أذكى العيون على عتيبة وإبله فعادت إليه عيونه فأخبرته أنها على أراب فأغار عليها فأخذ الإبل كلها ومالهم معها . وأباً : من البواء وهو أن يقتل عن قتل ، وذو قار ، وذو قنة : موضعان وقاظ : أقام زمن القيظ .

ثالثاً : يوم فشاوة[1] :

خرج بسطام بن قيس غازياً لبني يربوع حتى أطرد نعماً لرجلين من بني سليط يقال لأحدهما سعير وللآخر حجير ، فأتى الصريخ بني عاصم بن عبيد بن ثعلبة ، فركب سبعة فوارس من بني عاصم منهم بجير بن عبد الله ومليل بن عبد الله والأحيمر ومالك بن خطان بن عوف وخرج معهم قوم من بني سليط حتى أدركوا القوم فلما نظروا جيش بسطام هابوا أن يقدموا عليهم فقال مليل بن عبد الله يا بني يربوع إنه لا طاقة لكم بهذا الجيش إلا بمثله فأرسلوا بجاداً يستصرخ لكم وإنما أمرهم بذلك مخافة عليه أن يقتل ، فقال بجير لا والله لا ذهبت صريخاً وقال الآخرون مثله ، فقال مليل أنا أذهب وأخذ عليهم عهداً بعدم تركه وذهب .

وذهب مليل صريخاً فلما نظر إليه بسطام فقال لأصحابه ذاك الذي يركض سيجلب عليكم شرا فانظروا أن تفرغوا من أصحابه قبل أن يأتيكم الناس فبرز بسطام في فرسان من أصحابه حتى دنا من القوم فكلمه بجير فقال له بسطام من أنت فقال أنا بجير بن عبد الله بن الحارث فقال يا بجير ألم تكن تزعم أنك فتى يربوع وفارسها ، قال بلى وأنا الآن أزعمه فابرز لي فأبى أن يبرز له بسطام وقال ما أظن نسوة بني يربوع يظنن بك هذا الظن وأنت تحجم عن الكتيبة حين رأيتها ثم قال لصاحبيه أحيمر ومالك مثل ذلك فلم يزل يشحذهم ويحضضهم كيداً منه وخديعة حتى حملوا على أفراسهم وسط القوم ، فأما بجير فلقيه الملبد بن مسعود عم بسطام فاعتنق كل واحد منهما صاحبه فوقعا على الأرض عكمى عير[2] فاعتلاه بجير فلما خشي الملبد أن يظهر عليه نادى رجلاً من بني شيبان يقال له لقيم بن أوس فقال : يا لقيم أغثني فقد قتلني اليربوعي فمال إليه لقيم

---

(1) لشيبان على بني يربوع من تميم ، فشاوة : موضع ، انظر معجم البلدان ٧/٩٢ ، النقائض ص ١٩ ، الكامل لابن الأثير ١/٣٦٤ .

(2) عكمى عير : لم يصرع أحدهما الآخر .

فضربه على رأسه فقتله وطرق أحيمر بالقنا وترك مطروحا فظنوا أنهم قد قتلوه وضرب مالك بن حطان فأم[1] ثم مات من أمته وانهزمت بنو سليط .

فلما انهزموا قال بسطام لبني شيبان : أيسركم أن تأسروا أبا مليل ؟ قالوا : نعم ، فإنه أول فارس يطلع عليكم الساعة ، أتاه مليل فأخبره خبرنا وخبر ابنه فلم ينتظر الناس ، فليتخلف معي منكم فوارس ستجدونه مكباً على بجير حين عاين جيفته ، فكمن له بسطام في فوارس قريباً من مصرع أصحابه فلم يلبثوا إلا قليلاً حتى طلع عليهم على فرسه بلعاء ، فلما عاين بجيراً نزل فأكب على جيفته يقبله ويحتضنه وأقبل بسطام ومن كان معه يركضون حتى أتوه فوجدوه مكباً عليه وبلعاء يعلك لجامه واقفاً فأسروه وأخذوا فرسه .

فلما صار في يدي بسطام قال يا أبا هليل إني لم آخذك لأقتلك قال قد قتلت ابني ووددت أني مكانه ، أما إن طعامك علي حرام ما دمت في يدك .

فكان أبو عليل يؤتى بالطعام فيبيت يطرد عنه الكلاب مخافة أن تأكله فيظنوه أنه أكله هو حتى جهد فلما رأوا جهده قال بشر ين قيس لأخيه بسطام إني لا آمن أن يموت أسيرك هذا في يدك هزلاً فتسبك به العرب فبعه نفسه .

فأتاه وهو مجهود فقال له : يا أبا مليل أتشتري مني نفسك ؟ قال أبو مليل : نعم . قال : بكم ؟ قال : بمائة من الإبل فإن لك مائة بدم بجير قال تلادي أحب من تلادك والدم لك فخلني أذهب فخلاه بسطام بغير فداء وأحلفه ألا يعقب ولا يتبعه بدم ابنه بجير ولا يبقيه غائلة ولا يدل له على عورة ولا يغير عليه ولا على قومه ، وعاهده على ذلك وجز ناصيته ، وأراد الغدر ببسطام ولما علم بسطام حذره فلما أتى قومه أخبرهم خبره فقال متمم بن نويرة :

أبلغْ أَبا قيس إذا ما لقيتَهُ ... نعامة أَدنى داره فظليمِ
بأنا ذوو جدٍ وأن قبيلكم ... بني خالدٍ لو تعلمون كريمِ

---

(١) أم : ضرب على الدماغ .

وأنَّ الــذي آلى لكـم في بيــوتِكـم ... بـمقـسـمـه لــو تـعـلمــون أثـيـمِ
كــأن بـجيـراً لـم يقــلْ مَــا تــرى ... من الأمــر أو ينـظرْ بــوجـه قَسيمِ
ولــو شئتَ نجـاك الكميت ولم تكنْ ... كــأنــك نـصبُ لـلرجـالِ رجيـمِ
ولـكن رأيـتَ المــوتَ أدركَ تبـعــاً ... ومـن بعـده مـن حـادث وقــديـمِ
غـدرتم ولـو تــربـع عليــه ركـابَكم ... كــأنكم لـم تـفـجـعـوا بـعـظيـمِ

فإن متمم بن نويرة يوجه هذا الرثاء لبجير ، ويلوم بسطام بن قيس لأنه غدر بهم في هذه الموقعة . ولكن من دراستنا عموماً كان الغزو يحدث في أي وقت وربما أنذر القوم بالغزو أو بقي سراً ، وهذه الموقعة كانت لصالح بني شيبان ضد بني يربوع حيث كان القائد بسطام ذكياً في تخطيطه للفوز .

رابعاً : يوم مخطط[1] :

لم يكتف بسطام بن قيس بالنصر الذي أحرزه يوم فشاوة بل جهز مجموعة من فرسان بني شيبان لغزو بني يربوع وكان معهم الحوفزان وقادوا بكر بن وائل حتى وردوا على بني يربوع بالفردوس وهو بطن لإياد وبينه وبين مخطط ليلة وقد نذرت بهم بنو يربوع فالتقوا بـالمخطط فـاقتتلوا فانهـزمت بكر بن وائـل وهرب الحوفزان وبسطام ففاتا ركضاً وقتل شريك بن الحوفزان قتله شهاب بن الحارث أخو عتيبة وأسر الأحيمر بن عبد الله بن الضريس الشيباني فقال في ذلك مالك بن نويرة ولم يشهد هذا اليوم :

إلا أَكــن لاقيــتُ يــومَ مــخـطَّطٍ ... فقــد خبــر الــركـبـانَ مــا أتــودُ
بــأفنـاءِ حيٍّ من قبـائـلِ مــالــكٍ ... وعمـرو بن يـربـوع أقـامـوا فـأخلدوا
فقــال الـرئيسُ الحـوفـزان تبينـوا ... بني الحصن قد شارفتم ثم حرِّدوا[2]

(١) فردوس : اسم روضة دون اليمامة ، معجم البلدان ٤/٢٤٧ ، العقد الفريد ٥/١٩٨ .
(٢) حردوا : اقصدوا .

فمـا فتئـوا حتى رأونـا كـأننَّـا ... مع الصبحِ آذى من البحرِ مـزبـدُ
بملمومـةٍ شهبـاءَ يبرقُ خـالُهَـا ... تـرى الشمَس فيها حين دارتْ تـوقّـدُ
فمـا بـرحـوا حتى علَتْهم كتـائبٌ ... إذا طـعنْـت فـرسـانُهـا لا تُـعـرَّدُ
فـأقـررتُ عيني يـوم ظلوا كـأنَّهم ... ببـطن الغبيطِ خُشْبُ أثـلٍ مـسنّـدُ
صـريـعٌ عليـه الـطيرُ يحجـل فـوقَـه ... وآخـرُ مـكبـولُ الـيـديـنِ مـقـيّـدُ
وكـان لهم فـي أهلهـمِ ونسـائِهـم ... مبيتٌ ولم يـدروا بمـا يحـدث الغـدُ
وقـد كان لابن الحـوفـزانِ لـو انتهى ... شـريـكٌ وبِسـطامُ عن الشـرِ مقعـدُ

فمالك بن نويرة أخذته النشوة من هزيمة بكر بن وائـل وانتصار قـومه ثم يعدد القتلى في هذه الغـزوة حيث قتل شـريك وأسـر آخرون مثـل الأحيمر بن عبد الله الشيباني ويبدو أن مالك بن نويرة كان يرغب في أن يكون هنـاك سلام بين تميم وبني شيبان ، ولكن بسطام بن قيس عودته المعارك والنصر فيهـا حيناً والهزيمة حيناً آخر على مواصلة الغزو حتى إلى آخر رمق .

سادساً : كليب والمهلهل ابنا ربيعة [1] :

كليب اسمـه وائـل بن ربيعـة بن جشم بن بكـر بن حبيب بن عمـرو بن غنم بن تغلب بن وائل . وهو خال امرىء القيس ، وهو أخو مهلهل الذي تولى حرب بكر وكـان رئيس تغلب في حرب بني بكـر لأخذ الثأر من جساس قـاتل كليب ، وكان كليب زعيم معد في حرب اليمن في يوم خـزازى[2] حيث جمع

(١) معجم البلدان ٢/٣٦٦ ، الأمـالي ٢/١٢٩ ، تـاريـخ الأدب الـعـربي ١/١١١ والأصمعيات رقم ٥٣ ، ٥٤ ص ١٥٤ - ١٥٦ ، وحماسة أبي تمام ١/٣٨٥ ، العقد الفريـد ٥/٢١٣ ، أيام العرب ١٤٢/ ، العمـدة لابن رشيق ٢/٢١٢ ، الشعر والشعراء ٢٩٧ وأغاني الأغاني ١٥٠ .

(٢) **يوم خزاز أو خزازى** : قال أبو عبيدة كان يوم خزازي بقب السلامة وخزاز وكير ومتالع =

جموعاً عديدة من قبائل معد وحارب اليمن حرباً شعواء وفض جموعهم وهزمهم فاجتمعت عليه معدّ كلها[1] .

وجعلوا له قسم الملك وتاجه وتحيته وطاعته فغبر بذلك حيناً من دهره ثم دخله زهو شديد وبغي على قومه لما هو فيه عزة وانقياد معد له حتى بلغ من بغيه أنه كان يحمي مواقع السحاب فلا يرعى حماه . ويجير على الدهر فلا تخفر ذمته . ويصدق عليه قول ابن الحائك[2] :

كـانت لنـا بِخُـزَازَي وقعـةٌ عجبٌ ... لمـا التقينا وحـادي الموتِ يحـدَيهـا
مِلْنـا على وائـلٍ في سْطِ بلدتِـهـا ... وذو الفخـارِ كليبُ العـزِ يحميـهـا
قـد فـوضـوه وسـاروا تحت رايتِـه ... سـارت إليـه معـد من أقـاصيهـا
وحميـرُ قـومُنـا صـارت مقـاولهـا ... ومـذحـجُ الغـرُّ صـارت في تعـانِيهـا

وكـان كليب بهذا أول من رفـع عزة العـرب ضد قبـائل اليمن المستبـدة الجائرة ، وكان قائداً موفقاً وزعيماً قوياً ، قال أبو زياد : وحدثنا من أدركنا ممن كنا نثق به بالبادية أن نزاراً لم تكن تستنصف من اليمن ، ولم تزل اليمن قاهرة لها في كل شيء حتى كان يوم خزاز فلم تزل نزار ممتنعة قاهرة لليمن في يوم يلتقونه بعد خزاز حتى جاء الإسلام[3] .

أما عن سبب حرب البسوس بين بكر وتغلب فتقول الروايـات[4] أن بني

= أجبال ثلاثة بطخفة ما بين البصرة إلى مكة فمتالع عن يمين الطريق للذاهب إلى مكة وكير عن شمالـه وخزاز بنخر الطريق ، وقيل خزاز جبل لبني غاضدة خاصة ، معجم البلدان ٢/٣٦٥ .

(١) العقد الفريد ٥/٢١٣ .

(٢) معجم البلدان ٢/٣٦٦ .

(٣) نفس المصدر السابق .

(٤) العقد الفريد ٥/٢١٤ .

جشم وبني شيبان كانوا في دار واحدة بتهامة ، وكـان كليب بن وائل قـد تزوج جليلة بنت مرة بن ذهل بن شيبان وأخوها جساس بن مرة ، وكانت البسوس بنت منقذ خالة جساس بن مرة وكانت نازلة في بني شيبان مجاورة لجساس ، وكانت لها ناقة يقال لها سراب ، وأشأم من البسوس فمرت إبل لكليب بسراب ناقة البسوس وهي معقولة بفناء بيتها في جوار جساس بن مرة ، فلما رأت سرابُ الإبلَ نازعت عقالها حتى قطعته وتبعت الإبل واختلطت بها حتى انتهت إلى كليب وهو على الحوض معه قوس وكنانة ، فلما رآها أنكرها فانتزع[1] لها سهماً فخرم ضرعها ، فنفرت الناقة وهي ترغو فلما رأتها البسوس قذفت خمارها عن رأسها وصاحت ؛ واذلاّه واجاره . وخرجت فأحمست جساساً ، فركب فرساً معروريةً فأخذ آلته وتبعه عمرو بن الحارث بن ذهل بن شيبانْ على فرسه ومعه رمحه حتى دخلا على كليب الحمى فقال له يا أبا الماجدة عمدت إلى ناقة جارتي فعقرتها فقال له أتراك ما نعي أن أذب عن حماي ؟ فأحمسه الغضب ، فطعنه جساس فقصم صلبه ، وطعنه عمرو بن الحارث من خلفه فقطع بطنه ، فوقع كليب وهو يفحص برجله وقال لجساس أغثني بشربة من ماء فقال هيهات تجاوزت شُبَيْثا والأَحَصّ [2] .

وفي ذلك يقول عمرو بن الأهتم :

وإنَّ كليباً كان يظلمُ قومَه	فأدركه مثلُ الذي تريانِ[3]
فلما حساه الرمحَ كفُ ابنِ عمه	تذكر ظلم الأهل أيَّ أوانِ
وقال لجساسٍ أغثني بَشرْبةٍ	وإلا فخبِّر من رأيتَ مكاني

---

(١) انتزع سهماً رماها سهم ، وفي بعض الاصول فاستدّ عليها بسهم ، العقد الفريد ٥/٢١٤ .

(٢) شبيث والأحص : غديران في منازل ربيعة لنجد ، معجم البلدان ٣٦٦/٤ .

(٣) حساه : سقاه ، وتجاوز : تعدى الحدود ، ودفان : يقال ركبته دفي ودفان إذا اندفن بعضها .

فَـقـالَ تـجـاوزتَ الأحصَّ ومـاءه   وبــطنَ شُـبيثٍ وهــو غـيــرُ دِفـانِ

وهناك من يقول إن سبب قتل كليب ناقة البسوس أن كليباً كان غاضباً من زوجته جليلة بنت مرة الشيبانية ، وذلك أنه دخل على زوجته جليلة بنت مرة فقال لها هل تعلمين على الأرض أمنع مني ذمة ؟ فسكتت ، ثم أعـاد عليها الثـانية فسكتت ، ثم أعاد عليها الثالثة فقالت : نعم أخي جساس[١] وندمان[٢] ابن عمه عمرو المزدلف فسكت كليب ومضت مدة وبينما هي تغسل رأسه وتسرحه ذات يوم إذ قال لها من أعز وائل فقالت أخواي جساس وهمام ، فنزع رأسه من يدهـا وخرج ، وكانت لجساس خالة اسمها البسوس بنت منقذ جاءت ونزلت على ابن اختها جساس فكانت جارة لبني مرة ولها ناقة خـوارة[٣] ومعها فصيـل الناقـة ، فرماه بقوسه فقتله ، وعلمت بنو مرة بذلك فأغمضوا على ما فيه وسكتوا ثم لقي كليب ابن البسوس فقال له : ما فعـل فصيل ناقتكم ؟ فقال : قتلته وأخليت لنا لبن أمه وأغمضت بنو مرة على هذا أيضاً[٤] .

ثم إن كليباً أعاد القول على امرأتـه فقال : من أعـزّ وائل ؟ فقـالت : أخواي فأضمرها في نفسه وأسرّها وسكت ، حتى مرت به إبل جساس وفيها ناقة البسوس فأنكر الناقة ثم قال ما هذه الناقة قالوا لخالة جساس فقال أو بلغ من أمر ابن السعدية أن يجير علي بغير إذني ، ارم ضرعها يا غلام ، فأخذ القوس ورمى ضـرع الناقـة فاختلط دمهـا بلبنها ، وراحت الـرعاة[٥] على جسـاس فـأخبـروه

---

(١) كان جساس فارساً شهماً أبياً ، وكان يلقب الحامي الجار لمانع الذمار ، وهو الذي قتل كليباً ، ولما نشبت الحرب سيره أبوه إلى الشام ، ولما علم به أعداؤه لحقوه في سفره ، ثم وقعت معركة بينه وبينهم قتل فيها أبو نويرة زعيم القوم وجرح جساس جرحاً مات من أثره سنة ٥٣٤ م .

(٢) الندمان : الذي يرافقك على الشراب .

(٣) خوارة : رقيقة حسنة .

(٤) أيام العرب ص ١٢٥ .

(٥) أيام العرب ١٤٥ .

بالأمر ، وولت الناقة ولها عجيب حتى بركت بفناء البسوس فلما رأتها صاحت : واذلاه . فقال لها جساس : اسكتي فلك بناقتك ناقة أعظم منها . فأبت أن ترضى حتى صار ولها إلى عشر .

فلما كان الليل أنشأت تقول تخاطب سعداً أخا جساس وترفع صوتها حتى تسمع بذلك جساساً[1] :

ألا يا سعدُ لا تغرر بنفِسك وارتحلْ	فإني في قومٍ عن الجارِ أَمواتِ
ودونك إذا أودى إليك فإنني	محاذرةٌ أن يغدر بِبُنياتي
لعمرك لو أصبحت في دارِ منقذٍ	لما ضيم سعد وهو جار لأبياتي
ولكنني أصبحتُ في دارِ معشرٍ	متى يعد فيها الذئب يعدو على شاتي

وتضيف الرواية أن جساساً عندما سمع هذه الأبيات قال لها : اسكتي لا تراعي إني سأقتل جملاً أعظم من هذه الناقة سأقتل غلالاً[2] .

فلما قتل كليب ارتحلت بنو شيبان حتى نزلوا بماء يقال له النهي وتشمر المهلهل أخو كليب واسمه عدي بن ربيعة وقيل امرؤ القيس بن ربيعة وإنما قيل المهلهل لأنه أول من هلهل الشعر ، يقول الفرزدق[3] : (ومهلهل الشعراء ذاك الأول)[4] .

وهلهل الشعر أي أرقه ولينه لرثاء أخيه كليب واستعد لحرب بكر وترك النساء والغزل ، وحرم القمار والشراب ، وجمع إليه قومه فأرسل رجالاً منهم إلى بني شيبان يعذر إليهم فيما وقع من الأمر فأتوا مرة بن ذهل بن شيبان وهو في نادى قومه

---

(١) تسمي العرب هذه الأبيات بالموثبات لأن البسوس عندما أنشدت هذه الأبيات أوغرت الصدور .

(٢) كان غلال فحل إبل كليب ، وإنما أراد جساس بمقالته كليباً .

(٣) العقد الفريد ٥/٢١٥ .

(٤) الشعر والشعراء ١/٢٣٧ .

فقالوا له : إنكم أتيتم عظيماً بقتلكم كليباً بناب من الإبل فقطعتم الرحم وانتهكتم الحرمة ، وإنا كرهنا العجلة عليكم دون الإعذار إليكم وإنا نعرض عليكم أربع خلال لكم فيها مخرج ولنا مقنع ، فقال مرة : وما هي ؟ قال له : تحيي لنا كليباً ، أو تدفع لنا جساساً قاتله فنقتله به ، أو هماماً فإنه كفء له ، أو تمكننا من نفسك فإن فيك وفاء من دمه . فقال : أما إحيائي كليباً فهذا ما لا يكون ، وأما جساس فإنه غلام طعن طعنة على عجل وركب فرسه فلا أدري أي البلاد احتوى عليه وأما همام فإنه أبو عشرة وأخو عشرة وعم عشرة كلهم فرسان فلن يسلموه لي فأدفعه إليكم يقتل بجريرة غيره ، وأما أنا فهل هو إلا أن تجول الخيل جولة غداً ، فأكون أول قتيل بينها فما أتعجل من الموت ؟ ولكن لكم عند خصلتان أما إحداهما فهؤلاء بنيّ الباقون فعلقوا في عنق أي شئتم نسعة فانطلوا به إلى رحالكم فاذبحوه ذبح الجزور وإلا فألف ناقة سوداء المقل أقيم لكم بها كفيلاً من بني وائل . فغضب القوم وقالوا لقد أسأت ، ترذل لنا ولدك ، وتسومنا اللبن من دم كليب ووقعت الحرب بينهم .

ولحقت جليلة زوجة كليب بأبيها وقومها ودعت تغلب النمر بن قاسط[1] فانضمت إلى بني كليب وصاروا يداً معهم على بكر ، ولحقت بهم غفيلة بن قاسط واعتزلت قبائل بكر بن وائل وكرهوا مجامعة بني شيبان ومساعدتهم على قتال إخوتهم ، وأعظموا قتل جساس كليباً بناب من الإبل فظعنت لجيم عنهم ، وكفّت يشكر عن نصرتهم ، وانقبض الحارث بن عباد في أهل بيته ، وهو أبو بجير وفارس النعامة .

على أننا نرى لوماً من أبي جساس لولده جساس عندما أقدم على قتل سيد تغلب وعنفه تعنيفاً شديداً ، والرواية هي أنه عندما جاء جساس عقب مقتل كليب[2] فلما جاءه جساس قال له أبوه : ما وراءك يا بني ؟ قال : ورائي أني قد طعنت طعنة لتشغلن بها شيوخ وائل زمناً . قال : وما هي لأمك الويل أقتلت

---

(١) النمر بن قاسط بطن في ربيعة .

(٢) أيام العرب ١٤٩ .

كليبا ؟ فقال : نعم . فقال له أبوه : إذا نسلمك بجريرتك ونريق دمك في صلاح العشيرة والله لأن ما فعلت فرقت به جماعتك وأطلت حربها وقتلت سيدها في شارف[1] من الإبل ، والله لا تجتمع وائل بعدها ولا يقوم لها عماد في العرب ، ولقد وددت أنك وإخوتك كنتم متم قبل هذا ، ما بي إلا أن تتشاءم بي أبناء وائل ، فأقبل قوم مرة عليه وقالوا : لا تقل هذا ولا تفعل فيخذلوه وإياك . فأمسك مرة عن الحديث .

وكان من نتائج قتل كليب أن وقعت معارك ضارية بين تغلب ووائل واستمرت أربعين سنة وهذه هي الأيام[2] :

(١) يوم النهي . . (والنهي ماء لنبي شيبان)لتغلب على بني بكر .

(٢)يوم الذنائب . . (والذنائب موضع على طريق البصرة إلى مكة) لتغلب على بكر .

(٣) يوم واردات . . (واردات موضع عن يسار طريق مكة إلى إلى البصرة) لتغلب على بكر .

(٤) يوم عنيزة . . (عنيزة موضع في اليمامة) تكافآ فيه .

(٥) يوم القصيبات . . (القصيبات موضع في ديار بكر وتغلب) .

(٦) يوم تحلاق اللمم . . (سمي بذلك لأن بني بكر حلقوا فيه جميعا رؤ وسهم) وهذا اليوم لبكر على تغلب

على أن بني مرة قوم جساس كانوا قد أخذوا حذرهم وأهبتهم لقتال قبيلة تغلب وأنصارها ، ونجد أن هناك شعراً لا ينفذ مداده ولا تنتهي ذكراه من المهلهل لرثاء أخيه كليب ، من ذلك أن جساساً قال في ذلك قصيدة يبدي فيها استعداده

---

(١) الشارف من النوق : الهرمة المسنة .

(٢) النقائض ص ٧٣٢ ، الأغاني ٥/٣٢ ، ابن الأثير ١/١٨٣ ، مجمع الامثال للميداني ١/٣٤٢ ، العقد الفريد ٣/٣٤٨ ، معجم البلدان ١/١٣٩ ، خزانة الأدب ١/٤٢٥ .

للقتال ويظهر عدم الخوف من لقاء بني تغلب لأنهم في رأيه قوم معتدون[1] :

تــأهــبْ مــثــلَ أُهبــة ذي كِفَــاحِ ... فــإنَّ الأمــر جَــلّ عن التَــلاحِي[2]
وإني قــد جنيتُ عـلـيـك حـربـاً ... تعفّي الشيــخَ بــالمــاءِ الـقــراحِ
مــذكــرةً متى مــا يـصـحُ منهــا ... فتى نـشـبـت بــآخــرَ غيــرِ صــاحِ

فهو هنا يجمع قواه المادية والمعنوية تأهباً ليوم تشيب من هولـه الأطفال والشيوخ وتهلك الحرث والنسل ، ثم يقول :

تعــدتْ تـغــلبُ ظـلـمــاً عــلـيـنـا ... بــلا جــرمٍ يُــعــدُّ ولا جَــنَــاحِ
فــلمــا أن رأيــنــا واســتـبــنــا ... عـقــابَ البغي رافعــةَ الـجـنــاحِ
صــدقت إليــه نحســاً يــوم سَــوْءٍ ... لــه كــأسٌ من المــوتِ الـمتــاحِ

فهو يبرر هذا الاستعداد لأن بني تغلب قد ظلمت وجاوزت الحدود عندما قتل كليب ناقة خالته البسوس ولا شك أن روح العصبية بادية في هذه القصيدة ، حيث يعتمد جساس على بني وائل في مواجهة بني تغلب ثم إن جريرته النكراء في الأصل كانت تصرفاً خاطئاً أن يقتل سيد تغلب بناقة هرمة مسنة ، ولكن والد جساس عندما سمع ابنه جساساً يقول هذا الشعر ردِ عليه بقوله[3] :

فــإنْ تــكُ قــد جنيتَ عليَّ حــربــاً ... تــعضُ الشيــخَ بــالمــاءِ الـقــراحِ
جمعتَ بهــا يــديَــك عـلى كليبٍ ... فــلا وَكْــلٌ ولا رثَالــســلاحِ[4]

---

(١) أيام العرب ١٤٧ .

(٢) تأهب : استعد ، جل : عظم (وهو من الألفاظ المتضادة) أي عظيم وحقير ، ومذكرة : شديدة ، القراح : الصافية .

(٣) أيام العرب ص ١٤٧ .

(٤) وكل : عاجز ، ورث : بالي ، بنو العلات : بنو رجل واحد من أمهات شتى ، تشتجر تتداخل ، والعوالي : الرماح .

ولـكـنـي إلـى الـعـلات أجـري إلى المـوت المحيطِ مع الصبـاحِ
وإنـي حيـن تـشـتـجـر الـعـوالـي أعيـد الـرمـح في إثـر الجـراحِ
سـألبسُ ثـوبَهـا وأذبُّ عـنـهـا بـأطـرافِ الـعـوالي والـصـفـاحِ
فـمـا يبـقـى لـعـزتـه ذلـيـلٌ فـيـمـنـعـه من الـقـدرِ الـمتُـاحِ
فـإني قـد طـربتُ وهـاجَ شَـوقي طـرادُ الخيل عـارضَة الـرِمـاحِ
وأجمـلُ من حيـاةِ الـذلِ مـوتٌ وبـعضُ الـعـارِ لا يـمـحـوه مـاحِ

فإن مرة والد جساس هنا لم يتخلّ عن ولده ، بل صمد مع حماسة قبيلته بكر بن وائل لقتال تغلب ، وفي هذه القصيدة روح للعصبية القبلية واستهانة بالموت .

ويبدو أن جليلة بنت مرة كان ولاؤ ها لأبيها رغم حبها لزوجها[1] كليب ، إلا أنها أنذرت قومها عندما ذهبت إلى أبيها مرة قال لها : ما وراءك يا جليلة ؟ فقالت : ثكل العدد ، وحزن الأبد ، وفقد حليل ، وقتل أخ عن قليل ، وبين ذين غرس الأحقاد ، وتفتت الأكباد . فقال لها : أو يكف ذلك كرة الصفح وإغلاء الديات ؟ فقالت أمنية مخدوع ورب الكعبة .

أَبِالبدنِ تَدَعُ لكَ تغلبُ دَمَ رَبِّها .

وكان من جليلة أن ردت على أخت كليب حيث قالت لها : يا هذه اخرجي عن مأتمنا فأنت أخت واترنا وشقيقة قاتلنا . فخرجت وهي تجر أعطافها ، فقالت لها أخت كليب : رحلة المعتدي وفراق الشامت ، ويل غداً لآل مرة من الكرة بعد الكرة . فبلغ ذلك جليلة فقالت : وكيف تشمت الحرة بهتك سترها وترقب وترها أسعد الله جد أختي أفلا قالت نقرة الحياء وخوف الاعتداء ثم أنشأت تقول :

يـا إبـنـةَ الأقـوام إنْ شِئـتِ فَـلاَ تـعـجَـلِي بـالـلوم حـتـىَ تَـسـأَلـي

---

(١) أيام العرب ص ١٤٨ .

فــإذا أنــتِ تــبـيَّــنــتِ الــذي ... لــمــتِ فــيــهِ فـلومــي واعْــذِلــي

جــلّ عنــدي فعــلُ جسَــاسٍ فيــا ... حســرتي عمَــا انجـلتْ أو تنـجلي

فعــلُ جســاسٍ عــلى وجــدي بــهِ ... قــاطــعُ ظــهــري ومــدنٍ أَجــلي

لــو بعيــن فقئتْ عيــني ســوى ... أختِهــا فــانـفـقـأت لــم أحْـفُـلِ

يــا قــتيــلاً قــوَّضَ الــدهــرُ بــهِ ... سقفَ بيتــيَّ جـمـيعــاً من عــلِ

يَــا نِسَــائِي دونكــن اليــوم قَــدْ ... خصَّني الــدهــرُ بــرزءٍ مُعْـضِــلِ

خــصَّنــي قَـتــلُ كــليــبٍ بــلظىً ... من ورائـي ولــظىً مــسـتـقـبــلي

لــيتــه كَــانَ دمــي فــاحــتــلبــوا ... بــدلاً مــنــه دِمــاً مــن أكــحــلي

إنــنــي قــاتــلة مــقــتــولــةٌ ... ولــعــل الــلَّهَ أنْ يــرتــاحَ لــي

فإن جليلة من أصرة الزوج الوفي ومن منطلق الإخلاص النادر تبكي زوجها كليبا ، وتلوم أخاها أشد اللوم لتلك الجريرة النكراء التي أقدم عليها ، ثم تبدي عدة نبضات من قلبها الرقيق فهي تقول إن الحسرة والألم قد لازماها مدى الدهر ، وتتمنى لو أن عينها فقئت بدلاً من قتل هذا الزوج ، وقد سلط الدهر عليها أنيابه بالمعضلات الشديدة ، وهي لا شك وفية لهذا الزوج الذي كان ملكاً للعرب ، ولكنها كانت في نفس الوقت موالية لبني مرة حيث لم تنس أهلها ، وتتمنى لو أنها لم تكن مخلوقة في الوجود . وترجو أن تموت حتى لا ترى المآسي والأحزان العظام .

أما عن الأيام التي كانت بين بكر وتغلب فهي :

أولا : يوم النهى[1] (لتغلب على بكر) .

التقى بنو تغلب وبنو بكر على عين ماء تسمى النهى ، وكان رئيس تغلب المهلهل ، ورئيس شيبان الحارث بن مرة ، فكانت الدائرة لبني تغلب ، وكانت

---

(١) النهى : ماء كانت لبني شيبان (وقيل قرية بين اليمامة والبحرين لبني الشعيراء) ، معجم البلدان ٥/٣٢٩ .

الشوكة في بني شيبان ، واستمر القتل فيهم ولم يقتل في هذا اليوم أحد من بني مرة .

ثانياً ـ يوم الذنائب[1] :

التقت تغلب وبكر في يوم الذنائب ، وهي أعظم وقعة كانت لهم وظفرت بنو تغلب وقتلت بكر مقتلة عظيمة ، وفيها قتل شراحيل بن مرة بن همام بن شيبان ، وهو جد الحوفزان وهو جد معن بن زائدة ، والحوفزان هو الحارث بن شريك قتله عتاب بن سعد بن جشم ، وقتل الحارث بن مرة بن ذهل بن شيبان ، قتله كعب بن ذهل بن ثعلبة ، وقتل من بني ذهل ثعلبة بن سدوس ، وقتل من بني تيم الله جميل بن مالك بن تيم الله ، وقتل من بني قيس يسعد بن ضبيعة بن قيس وتميم بن قيس بن ثعلبة وهو أحد الخرفين ، وكان شيخاً كبيراً فحمل في هودج فلحقه عمرو بن مالك بن الفدوكس بن جسم ـ وهو جد الأخطل ـ فقتله . هؤلاء من أصيب من رؤساء بكر يوم الذنائب .

ولم يكتف المهلهل فارس تغلب والمطالب بثأر كليب بهؤلاء القتلى بل أصرّ على القتال حتى يبيد سراة بكر كما يقول وأعد العدة مرة ثالثة لقتال بكر .

ثالثا ـ يوم واردات[2] :

والتقى الفريقان في يوم واردات وعلى الناس الرؤساء الذين ذكرناهم وقد فتكت تغلب ببكر فتكاً ذريعاً ، واستمر القتل في بكر وكان ممن قتل الشعثمان شعثم عبد قيس وسيار بن الحارث بن سيار ، وفيه قتل بطل وفارس بكر همام بن مرة بن ذهل بن شيبان ، أخو جساس لأمه وأبيه ، فمر به مهلهل مقتولاً فقال : والله

(١) الذنائب : جمع أذنبة ، وأذنبة جمع ذنوب ، وهي الدلو الملأى بالماء ، وقيل هي ثلاث هضاب بنجد ، وسوق الذنائب قرية دون زبير من أرض اليمن ، وبه قبر كليب أخو المهلهل ، معجم البلدان ٨/٣ .

(٢) واردات : جمع واردة ، موضع عن يسار طريق مكة ، ويوم واردات معروف بين بكر وتغلب قتل فيه بجير بن الحارث بن عباد بن مرة ، معجم البلدان ٥/٣٤٧ .

ما قتل بعد كليب قتيل أعز علي فقداً منك وقتله ناشره . وكان همام رباه وكفله كم ربى حذيفة بن بدر قرواشاً فقتله يوم الهباءة .

وهكذا فإن نزيف الدماء بين بكر وتغلب لم يقف عند حد بل تجاوز كل الحدود والاحتمالات ، وقتل من الرؤساء من بكر أضعاف من قتل من تغلب، وهذا لا شك نتيجة أكيدة للفجور في القتال ، حيث كان ينبغي أن يتوقف هذا السيل من الدماء ، ولكن المهلهل كان يقصد الحرب إلى نهاية الشوط .

رابعاً ـ يوم عنيزة[1] :

ثم التقى الفريقان بعنيزة فظفرت تغلب ثم كان بينهما معاودة ووقائع كثيرة ، وكل ذلك كانت فيه الدائرة لبني تغلب على بني بكر من هذه الأيام يوم الحنو ويوم عويرضات ويوم أنيق ويوم ضرية ويوم القصيبات ، هذه الأيام لتغلب على بكر أصيبت فيها بكر حتى ظنوا أن ليس يستقبلون أمرهم وقال مهلهل يصف هذه الأيام وينعاها على بكر[2] :

أليلَتنا بذي جُشَمٍ أنيري ... إذا أنتَ انقضيتَ فلا تَحوري[3]

فإنْ يكُ بالذنائب طال ليلي ... فقد أبكي من الليلِ القصيرِ

وأنقذني بياض الصبحِ منها ... لقد أنقذت من شرٍ كبيرِ

كأن كواكبَ الجوزاءِ عوذٌ[4] ... معطفةٌ على ربعٍ كسيرِ

(١) عنيزة : موضع بين البصرة ومكة ، معجم البلدان ٤/١٦٣ .

(٢) العقد الفريد ٥/٢١٩ وأيام العرب ١٥٦ . والأصمعيات رقم ٥٣ ص ١٥٤ .

(٣) ذو حسم : موضع ، أنيري : أسفري ـ لا توري : لا ترجعي ، الذنائب : موضع فيه قبر كليب .

(٤) العوذ : الحديثات النتاج ، الربع : ما نتج بالربيع ، والمثناة : الحيل والريق ، والشد (أي كأن الجد شد بحبل مثنى) ، الزير : الذي يخالط النساء ويريد حديثهن لغير شر ، والذي سماه زيراً أخوه كليب والشعثمان : في رأي صاحب الأمالي موضع ، وقال

كأن الجدي في أفناءِ ربقٍ أسيرٌ أو بمنزلةِ الأسيرِ
فلو نبش المقابرُ عن كليبٍ فيخبر بالذنائب أيَّ زيرِ
ليوم الشعثمين لقرعيناً وكيف لقاء من تحت القبورِ
فإني قد تركت بواراداتٍ بجيراً في دم مثل البعيرِ
وهمامَ بن مرة قد تركنا عليه القشعمان من النسورِ
وصبحنا الوجوهَ بيوم سوءٍ يدافعن الأسنةِ بالنحورِ
كأنا غدوةً وبني أبينَا بجوف عنيزةٍ رحيا مديرِ
ولولا الريحُ أسمعَ أهلَ حجرٍ صليلَ البيضِ تُقرعُ بالذكورِ

فإن المهلهل هنا يشفي نفسه بكثرة القتلى الذين عاجلهم بالموت في الوغى ، ويعدد فرساناً أيضاً قد قتلهم مثل بجير بن الحارث بن عباد وبعض فرسان القوم من بني عامر ويقال إن المهلهل كان قد أنصف أعداءه عندما ذكر ثبات وشجاعة الفريق الآخر في بيته :

كأنا غدوةً وبني أبينا بجوف عنيزةٍ رحَيَا مديرِ

أما البيت الذي يقول فيه :

ولولا الريحُ أسمع أهل حجرٍ صليلَ البيضِ تُقرعُ بالذكورِ

فيقول فيه أبو علي القالي : هذا أول كذب سمع في الشعر . وقال المهلهل يهدد الحارث بن عباد البكري[1] :

بعضهم الشعثمان هما شعثم وعبد شمس قتلهما المهلهل يوم واردات ، وبجير بن الحارث بن عباد قتله مهلهل ، العبير : أخلاط من الطيب ، القشعم : المسن من الرجال والنسور والرخم ، الوخوم : بطن من بني عامر بن ثعلبة ، وحجر : مدينة باليمامة ، الذكور : السيوف .

(١) الأصمعيات رقم ٥٤ ص ٥٦ والعقد الفريد ٢٢٠/٥ .

يـا حـارِ لا تجهـلْ على أشيـاخنـا إنـا ذوو الـسـوراتِ والأحـلام[1]
منـا إذا بـلغ الـصبـيُّ فـطامَـه سـاسَ الأمـورَ وحـاربَ الأقـوام
قـتلوا كـليبـاً ثـم قـالـوا اربعـوا كـذبـوا وربِ الحـلِ والإحـرام
حـتى نـبيـدَ قـبيـلةً وقـبيـلةً قـهـراً ونفـلق بـالسيـوفِ الهـام
ويقمن ربـاتُ الخـدورِ حـواسـراً مـسحـن عـرضَ ذوائبِ الأيتـام

ويبدو أن المهلهل أخذ على نفسه عهداً بقتل جميع سادة بكر ، فهو يخاطب الحارث بن عباد زعيم بني بكر في حرب تغلب ويقول له : لا تجهل علينا ، ويحذره عاقبة الظلم والبغي . ويبدو أن المهلهل تجاوز كل حدود أخذ الثأر ، ولا شك أن هذا من العصبية الظالمة التي خرجت عن الشيء المقبول عقلاً وضميراً ، إذ استمرأ المهلهل حياة القتل والإجرام لأبرياء لا ذنب لهم ، وقد قتل في مقابل أخيه همام وجساس وبجير وغيرهم كثير ، ولكن العصبية الثائرة لا تعترف بذلك بل تتمادى إلى أبعد الاحتمالات والتوقعات . ويعترف بهذا الإسراف بقوله[2] :

أكثـرتَ قتـلَ بـني بـكـرٍ بـربِّهـم حتى بكيتُ ومـا يبكي لهم أحـدُ[3]
آلـيـت بـالله لا أرضـى بـقـتـلِهـم حتى أُبهـرجَ بكـراً أينمـا وَجِـدُوا

ثم إن المهلهل لا يفتأ يذكر أخاه كليباً في كل مناسبة ليلاً أو نهاراً من ذلك ما يقوله[4] مهدداً بني بكر تهديداً متواصلاً :

يـا لـبكـرٍ انـشـروا لـي كـلـيبـاً يـا لـبـكـر أيـن أيـنَ الـفـرارُ

---

(١) يا حار : ترخيم للحارث بن عباد ، والسورات بضم السُورة الرفعة والمنزلة وبفتح السين السَورة الحرة ، اربعوا : كفوا وتحبسوا ، وحواسر : كاشفات الرؤوس ، الخدور : جمع خدر (وهو بيت المرأة) ، والذوائب : جمع ذؤابة : وهي قطعة شعر .
(٢) العقد الفريد ٥/٢٢٠ .
(٣) أبهرج : أدعهم بهرجاً ، لا يقتل بهم قتيل ولا تؤخذ لهم دية والبهرج من الدراهم .
(٤) العقد الفريد ٥/٢٢٠ .

تلك شيبانُ تقول لبكرٍ صرحَ الشر وبان الشرارُ

خامساً ـ يوم قضة[1] :

لعل هذا اليوم كان آخر الأيام التي ترك فيها المهلهل قومه بني تغلب في حرب بني بكر ، وقد أسرف أيما إسراف في القتل ، ولم يبال بأي قبيلة من قبائل بكر أوقع ،ثم وقع آخر الأمر أسيراً في يدي الحارث بن عباد البكري رئيس بكر في حرب تغلب ، ويروى أن مهلهلاً أسرف في إبادة بني بكر[2] ولم يبال بأي قبيلة.

وكان أكثر بكر قعدت عن نصرة بني شيبان لقتلهم كليب بن وائل ، وكان الحارث بن عباد قد اعتزل تلك الحروب حتى قتل ابنه بجير وقيل ابن أخيه فلما بلغ الحارث قتله قال نعم القتيل قتيل أصلح بين ابني وائل ، وظن أن المهلهل قد أدرك به ثأر كليب وجعله كفؤا له ، فقيل له إنما قتله بِشِسْعِ نعل كليب وذلك أن المهلهل لما قتل بجيراً قال له : بؤ بشسع نعل كليب ، فغضب الحارث بن عباد ، وكان له فرس يقال له النعامة فركبها ، وتولى أمر بكر فقتل تغلب حتى هرب المهلهل وتفرقت قبائل تغلب فقال في ذلك الحارث بن عباد[3] :

كلُّ شيءٍ مصيرَه للزوالِ غيرَ ربي وصالحِ الأعمالِ[4]

---

(١) قضة : عقبة بعارض اليمامة ـ وهي الأرض التي ترابها رمل ، قال الأزهري قال ابن دريد : قضة موضع معروف كانت فيه وقعة بين بكر وتغلب تسمى يوم قضة ، وقد ذكره المهلهل بقوله :

فدى لبني شقيقة يومَ جاؤوا كأسدِ الغاب لجث في زئيرِ
كأن أرماحهم أشطانُ بئرٍ بعيد بين جاليها جرورِ
غداة كأننا وبني أبينا بجنب عنيزةٍ رحيا مديرِ

البلدان ٤/٣٦٨ .

(٢) العقد الفريد ٥/٢٢٠ .

(٣) أيام العرب ١٦٠ والعقد الفريد ٥/٢٢١ .

(٤) البيد : الصحراء ، عضال : شديدة ، العوالي : الرماح ، الضلال : الانحراف ، وصالي : مصطلي ، وواقع بها .

وتـرى النـاسَ ينـظرون جـميعـاً ... ليس فيـهم لـذاك بـعضُ احتيـالِ
قـل لأمِّ الأغـرِ تـبكـي بـجيـراً ... مـا أتى المـاءُ من رؤوسِ الجبـالِ
لـهفَ نـفسي على بـجيـرٍ اذا مـا ... جـالت الخيـل يَـومَ حرب عُضـالِ
يـا بجيـرَ الخيـرات لا صلحَ حتى ... نمـلأَ البيـدَ من رؤوسِ الـرجالِ
وتـقـرَ العـيـونُ بعـدَ بُـكـاهـا ... حين تسقي الـدما صـدورَ العوالي
أصبحـتْ وائـلُ تعـجُ من الحـر ... بِ عجيـجَ الجِمـال بـالأثـقـالِ
لا بـجيـر أَغـنـى قـتيـلاً ولا ... رهطُ كليبٍ تـزاجـروا عن ضـلالِ
لـم أكن من جنـاتهـا علم اللهُ ... وإنـي بـحـرهـا الـيوم صـالِ
قـد تـجنبت وائـلا كـي يفيـقـوا ... فـأبت تـغـلب عـلى اعـتـزالي
وأشـابـوا ذؤابـتـي بـبـجيـرٍ ... قـتـلوه ظـلمـاً بـغيـر قتـالِ[1]
قـتلوه بـشسـعِ نـعـلِ كـليـبٍ ... إنّ قتـلَ الكـريم بـالشسـع غـالِ
يـا بني تغلبَ خـذوا الحـذر إنـا ... قـد شـربنـا بكـاسِ مـوتٍ زلالِ
يـا بـني تـغلبٍ قـتلتم قـتيـلاً ... مـا سمعنـا بمثلهِ في الخـوالي
قـربـا مـربط الـنعـامـةِ مـني ... لقحـت حـربَ وائـلَ عن حيـالي
قـربـاهـا بـمـرهـفـاتٍ حـدادِ ... لـقـراعِ الأبـطالِ يـومَ الـنـزالِ
سـائِلوا كِنْـدة الـكـرامَ وبكـراً ... وأسـألـوا مِـذْحَجَـاً وحيَّ هِـلاَلِ
إذْ أَتـونـا بـعـسـكـرٍ ذي زُهـاءٍ ... مـكفـهـرِ الأَذى شـديـدِ المَصَالِ
فـقـريـنـاه حـيـن رام قِـرانـا ... كلَّ ماضي الـذبابِ عَضْبِ الصِقَالِ

وبعد فإن الحارث بن عباد الذي كان قد اعتزل الحرب من بدايتها ولكن

---

(١) الخوالي : الأيام السالفة ، النعامة : فرس الحارث بن عباد ، وأصل اللقاح ، الجمل ، وحالت إذا لم تحمل الأنثى ، والمرهفات : السيوف الحادة ، وذي زهاء : عدد كثير ، الذباب : السيف .

تغلب أرادت أن تقحمه في هذه الحرب إقحاما ، وهذا من صلف وغرور وإسراف المهلهل في قتل بني بكر ، ولكن الحارث لم يجد إلا الحرب وسيلة لردع أولئك المعتدين ، والذين تجاوزا كل حد وغالوا في أخذ الثأر ويلخص الحارث بن عباد موقفه عامة بقول :

لَمْ أَكُنْ من جُناتِها علم اللهُ وإني بحرِها اليومَ صَالي

وكان أن دخل الحارث بكل ثقله في المعركة وأذاق بني تغلب الويلات ، حتى أسر المهلهل ، وكان أول يوم شهده الحارث بن عباد يوم قضة الذي تحدثنا عنه ، وهو يوم كتحلاق اللمم الذي يقول فيه طرفة بن العبد[1] :

سائلوا عنا الذي يعرُفنا ما لَقُوا في يوم تِحْلاقِ اللِّمم[2]
يوم تُبدي البيضُ عن أَسؤُقِها وتلف الخيلَ أفواجُ النعَم

وفي يوم قضة أسر الحارث بن العباد المهلهل وهو لا يعرفه واسمه عدي بن ربيعة وقيل امرؤ القيس فقال له الحارث : دلني على عدي بن ربيعة وأخلي عنك ، فقال له عدي : عليك العهود بذلك إن دللتك عليه ؟ قال : نعم ، قال : فأنا عدي فجز ناصيته وقال فيه[3] :

لهفَ نفسي على عديّ ولم أعرفْ عدياً إذا أمكنتني اليدانِ

وفي هذا اليوم يوم قضة قتل عمرو وعامر التغلبيان ، قتلهما جحدر بن ضبيعة ، طعن أحدهما بسنان رمحه والأخر بزجه ، ثم إن المهلهل فارق قومه ونزل في بني جنبَ في مذحج فخطبوا إليه ابنته فمنعهم فأجبروه على تزويجها

---

(١) العقد الفريد ٥/٢٢١ ، الأغاني ١٥٠ .
(٢) أسوق : جمع ساق والمعنى يوم تكشف النساء عن سيقانها فزعاً ورعباً ، وتلف : تجمع والأفواج الجماعات ، وفي الأغاني بدل أفواج أعراج : جمع عرج وهو القطيع من الإبل .
(٣) العقد الفريد ٥/٢٢١ .

وساقوا في صداقها جلوداً من أدم فقال في ذلك :

أعـزْز عـلى تـغـلبٍ بـمـا لَـقِـيتْ　　أخت بـني الأَكـرمين من جُشَم[1]
أَنـكَـحَـهـا فـقـدُهـا الأراقـمَ فـي　　جـنـب وكـان الـحـبـاء مـن أدَمِ

ويا للعجب كيف أن المهلهل أخا كليب ملك تغلب تصير بـه الحال إلى هذا المستوى ، حيث يجبر على تزويـج ابنته والصداق جلود . وعندمـا أسر المهلهل قال له الحارث بن عباد : كافئني بمـا صنعت لك بعـد جرمـك ودلني على كفء لبجير فقـال لا أعلمـه إلا امـرأ القيس بن أبـان هذاك علمـه وقصد الحارث امرأ القيس فشد عليه فقتله وقال في ذلك[2] :

طُـلَ من طُـلَ في الحـروب ولم أو　　تـر بـجـيـراً أبـأتـه ابـن أبـانِ
فـارسُ يضـربُ الكتيبـة بـالسيفِ　　وتـسـمـو أمـامـه الـعـيـنـانِ

وعندما رجع المهلهل بعد وقعة قضة وبعد وقوعه في الأسر إلى أهله جعل النساء والولدان يستنجدونه بعد أن مـلّ المهلهل القتـل والقتال ومسيـل الدمـاء الجاري .

قال لقومـه : قد رأيت أن تبقوا على قومكم فإنهم يحبون صلاحكم وقد أتت على حربكم أربعون[3] سنة ، وما لمتكم على ما كان من طلبكم وتركم فلو مرت هذه السنون في رفاهية عيش لكانت تمل من طولها فكيف وقد فني الحيان وثكلت الأمهات ويتم الأولاد ورب نائحة لا تزال تصرخ في النواحي ودموع لا ترقأ وأجساد لا تدفن وسيوف مشهورة ورماح مشرعة وإن القوم سيرجعون إليكم غداً بمودتهم ومواصلتهم وتتعطف الأرحـام حتى تتواصلوا ، أمـا أنا فمـا تطيب نفسي أن أقيم فيكم ولا أستطيع أن أنـظر إلى قاتـل كليب وأخاف أن أحملكم

---

(١) العقد الفريد ٥/٢٢٢ .
(٢) أيام العرب ١٦٤ .
(٣) أيام العرب ١٦٥ .

على الاستئصال وأنا سائر عنكم إلى اليمن .

وعندما علم قومه أن ابنته قد زوجت غصباً في مذحج غضبوا أو أنفوا وقصدوا بلاد القوم ، فأخذوا المرأة وأرجعوها إلى أبيها بعد أن أسروا زوجها ، وقد ألحت عليه ابنته سلمى بالرجوع إلى الديار فأجابها إلى ذلك ، ورجع نحو قومه حتى قرب من قبر أخيه كليب ، وكانت عليه قبة رفيعة فلما رآها خنقته العبرة وكان تحته بغل نجيب فلما رأى البغل القبر في غلس الصبح نفر منه هارباً فوثب عنه المهلهل وضرب عرقوبيه بالسيف وقال[1] :

رَماكَ اللهُ من بغلٍ   بمشحوذٍ من النبلِ
أما تبلغْني أهلَك   أو تبلغني أهلي
ألا أبلغْ بنِي بكرٍ   رجالاً من بني بكر
بدأتم قومكم بالغد   رِ والعُدوانِ والقتلِ
قتلتم سيِّدَ الناسِ   ومن ليس بذي مثلِ
وقلتم كفؤه رجلٌ   وليس الرأس كالرجلِ
فتى كان كألفٍ من   ذوي الإنعام والفضلِ

ومن هذا فإن جراحه على أخيه كليب ما زالت حية وتحمل الحقد والثأر إلى أن يموت ، وقد وصل قومه وما وكده إلا الحرب لا يتم لصلح ولا يشرب خمراً ولا يلهو بلهو ولا يحل لأمته ولا يغتسل بماء ، حتى كان جليسه يتأذى منه من رائحة صدأ الحديد ، ولا شك أن هذا الفارس كان خير وفي لدم أخيه كليب ، ولكن كان وبالاً على قبيلتي بكر وتغلب ، فلما كان ذات يوم دخل عليه رجل من تغلب اسمه ربيعة بن الطفيل وكان له نديماً ، فلما رأى ما به قال أقسمت عليك أيها الرجل لتغتسلنَّ بالماء البارد ولتبلن ذوائبك بالطيب . فقال المهلهل : هيهات هيهات يا ابن الطفيل هبلتني هبلتني إذا يمبني وكيف باليمن التي

---

(١) ربما كان هذا الشعر منحولاً لأنه سهل .

آلت كلا أو أقضي من بكر أربي ثم تأوه وزفر وقال[1] :

إن في الصـدورِ من كليبٍ شجونـاً ... هـاجسـاتٍ نكـأنَ منه الجـراحَـا
أنكـرتـني حـليلتي مـذ رأتـني ... كـاسفَ اللونِ لا أطيقُ الـمـزاحَـا
يـا خـليـليَّ نـاديـا لـي كـليـبـاً ... ثـم قـولا لـه نـعـمـت صَبـاحَـا
يـا خـليـليّ نـاديـا لـي كـليـبـاً ... قبـل أن تبصر العيـون الصبـاحَـا

ولا شك أن مقتل كليب كان ثمرة نافعة للأدب بصرف النظر عن الدوافع والنتائج ، لأنها أغنت الأدب العربي بثروة لا تنفذ من المعاني الجميلة والأحاسيس الفياضة ، ثم أعطتنا كثيراً من القيم التي تصلح للدراسات لتقويم الحياة الجاهلية من حيث وسائل العيش والعصبية القبلية ، ومن حيث أخلاقية المحارب إلى عديد من الفوائد الأدبية والعلمية واللغوية والجغرافية في الصحراء العربية .

وكعادته في نقض العهد أغار المهلهل على بني بكر بجمع من تغلب ، ولكنه في هذه المرة هزم وأخذ أسيراً ، حيث ظفر به عمرو بن مالك أحد بني قيس بن ثعلبة فأسره وأحسن إساره ، فمر عليه تاجر يبيع الخمر وكان صديقاً للمهلهل فأهدى إليه وهو أسير زقاً من خمر ، فاجتمع شبان من قيس بن ثعلبة ونحروا عنده بكراً وشربوا عند المهلهل في بيته الذي أفرد له ، فلما أخذ فيهم الشراب تغنى المهلهل بشعر ناح فيه على أخيه كليب فقال[2] :

طَـفْلَةٌ مـا ابنـةَ المـحللِ بـيضَـا ... ءُ لـعـوبُ لـذيـذةٌ في الـعنـاقِ[3]
فـاذهـبي مـا إلـيـك غيـر بَـعيـدٍ ... لا يؤاتي العنـاق من في الـوثـاقِ

---

(١) أيام العرب ص ١٦٧ .
(٢) الأغاني ١٥٤ ، وأيام العرب ١٦٧ ، والعقد الفريد ٥/٢٢٣ .
(٣) الطفلة : الرخصة الناعمة ، الأوافي : جمع وافية وهي الحامية ، الصدف : اسم فرس الربيع ، الإيقاف : وضع السهم للرمي .

ضربتْ نحرَها إلي وقالت : يا عدياً ، لقد وقتك الأواقي
ما أَرجي في العيش بعد نداما ي أراهم سقوا بكاسِ حلاقِ
بعد عمروٍ وعامرٍ وحيي وربيعِ الصدوقِ وابني عناقِ
وامرىء القيسِ ميت يوم أودى ثم خلى على ذات العراقيِ
وكليب سُمُّ الفوارس إذ حمـ ـم رماه الكماة بالإيفاقِ
إنَّ تحت الأحجار حداً ولينا وخصيماً ألد ذا معلاقِ

كل ذلك من أجل القتيل كليب الذي كان اعتداؤه على ناقة البسوس سبباً في حدوث كل هذه الفتن والصراعات وتولد الأحقاد إذ ما من أسرة إلا وقد قتل فيها أحد أفرادها .

فلما سمع عوف ذلك غاظه وقال : لا جرح إن لله علي نذراً أن شرب عندي قطرة ماء ولا خمر حتى يورد الخضير[1] ، فقال له أناس من قومه بئس ما حلفت فبعثوا الخيول في طلب البعير فأتوا به بعد ثلاثة أيام وكان المهلهل مات عطشاً[2] .

وكان للمهلهل وهو فارس تغلب حقاً مراثٍ باكية على أخيه حيث لا ينساه

---

(١) الخضير : اسم بعير لعوف وهو لا يرد الماء الا في اليوم السابع .

(٢) أورد صاحب الخزانة رواية أخرى غير هذه في وفاة المهلهل حيث قال : لما أسن المهلهل وخرف ، كان له عبدان يخدمانه وفحلاه ، وخرج بهما إلى سفر فبينما هما في بعض الفلوات عزما على قتله ، فلما عرف ذلك كتب على رحله :

من مبلغ الحيين أن مهلهلا لله دركما ودر أبيكما

ثم قتلاه ورجعا إلى قومه فقالا : مات . ولكن بنته قرأت على القتب فقالت : إن مهلهلا لا يقول هذا الشعر وإنما هو أراد :

من مبلغ الحيين أن مهلهلا أمسى قتيلا في الفلاة مجدلا
لله دركما ودر أبيكما لا يفلت العبدان حتى يقتلا

فضربوا العبدين حتى أقرا بقتله ، الخزانة ١١٥/٤ .

ليلاً ونهاراً، ثم جادت قريحته بتلك المراثي التي تزودنا بكثير من قيم العرب في الجاهلية ، من حيث الإصرار الذي لا نجده عند أمة من أخذ الثأر ثم المغالاة في القتل ، وقد أسرف المهلهل في هذا إسرافاً اعترف به خصومه قبل أنصاره ، وقتل بكليب فرساناً عظاماً وأبطالاً كراماً أمثال همام وجساس وبجير وغيرهم من صناديد بكر فضلاً عن القتلى من تغلب .

وإن كثرة الحروب بين بكر وتغلب كانت مجالاً رحبا لنشأة الفرسان والأبطال لحاجة القبيلة لهم إذ كان الفارس في القبيلة عمادها وحامي حماها ، وأرى أن هذا الرثاء الذي كان يقوله المهلهل بعاطفة جياشة كان سبباً في إثارة الأحقاد والكراهية في الأجيال التالية فيما وقع بين بكر مع أنصارها من جهة وبين تغلب وأنصارها ضد بكر من جهة أخرى ، وكانت سبباً في المهاجاة بين شعراء القبيلتين ، وظهر هذا حسب ما أرى في رثاء المهلهل الذي يكاد يستولي على معظم شعره حيث أخذ على نفسه عهداً بعدم الصلح والاستمرار في القتال :

لا أَصلح الله منا من يصالحكُم ... ما لاحت الشمسُ في أَعلى مجاريها

فلا صلح ولا سلام بل قتال أبدي أبدية شروق الشمس وغروبها .

وأورد الآن بعض مراثيه في أخيه كليب :

قال في رثاء أخيه[1] :

كليبُ لا خيرَ في الدُّنيا ومنْ فيها ... إذ أنت خلّيتَها فيمن يُخلِّيها[2]

كليَبُ أيَّ فتى عزٍ ومكرمةٍ ... تحت السقائفِ إذ يعلوك سافيها

نعى النعاةُ كليباً لي فقلتُ لهم ... مالت بنا الأرض أو زالت رواسيها[3]

---

(١) العقد الفريد ٥/٢١٧ ، الأغاني ١٥١ .

(٢) خليتها : تركتها ، السقائف : جمع سقيفة وهي حجارة القبر، والسافي : التراب .

(٣) نعى : أخبر بالموت، آلائه : نعمه ، زهواً : فخراً ، خضبوها : صبغوها بالدم ، الخطي : الرمح ، الكمت : التي لونها بين السواد والحمرة ، الكوم : جمع أكوام وكوماء ، وهي الناقة الضخمة السنام .

الحـزمُ والعَـزمُ كـانـا من صنيعتـه ... مـا كـلُّ آلائـه يـا قـومُ أحصيهـا
القـائـدُ الخيـلَ تـردى في أعنتهـا ... زهـواً إذا الخيـل لجت في تعـاديهـا
من خيـلِ تغلبَ مـا تُلقي أَسنتهـا ... إلا وقـد خضبـوهـا من أعـاديهـا
يهـزهـزون من الخـطي مُـدمجـةً ... كُمتـاً أنـابيبهـا زرقـاً عـواليـهـا
تـرى الـرمـاحَ بـأيـدينا فنـوردُهـا ... بيضـاً ونصـدرهـا حمـراً أعـاليهـا
ليـت السمـاء على من تحتها وقعتْ ... وأنشقت الأرض فـانجابت بمن فيهـا
لا أصلح الله منـا من يصـالـحكم ... ما لاحتْ الشمسُ في أَعلى مجاريها

فإن المهلهل هنا في هذه الأبيات الدامية الحزينة يبكي على أخيه سيد ربيعة بكاءً مراً ، ويلبسه بصفات الشجاعة والإقدام والكرم ، وهو سيد الفرسان ، ثم يأخذ على نفسه عهداً بعدم الصلح مع قاتليه من بني بكر مدى الدهر.

ومن مراثيه المبدعة التي أجاد فيها غداة قتل أخوه ودفن ، وهي ساعة كلها حزن وحسرة وألم ، لأنه يتجسد فيها الفراق الأبدي بين الأحباب فلا لقاء إلا يوم يجمع الله فيه الناس[1] :

أهـاجَ قـذاءَ عـيـنـي الادكـارُ ... هـدوءاً فـالـدمـوعُ لهـا انحـدارُ[2]
وصـارَ الـليـلُ مشتـمـلاً علينـا ... كـأن الـلـيـلَ لـيس لـه نـهـارُ
وبـتُّ أراقـبُ الـجـوزاءَ حـتـى ... تـقـاربَ مـن أوائـلِهـا انـحـدارُ
أقـلب مـقـلتـي فـي إثـر قـومٍ ... تـبـاينـت الـبـلادُ بـهـم فـغـاروا
دعـوتـك يـا كـليبُ فـلم تجبني ... وكـيف يـجـيـبـني الـبلدُ الـقـفـارُ
أجـبـني يـا كـلـيـبُ خـلاك ذمٌّ ... لـقـد فـجـعـت بـفـارسـهـا نـزارُ

(١) الأغاني ١٥٠ ، وتاريخ الأدب العربي ١/١١١ .
(٢) أهاج : أثار ، وهناك رواية بدل الادكار الاذكار وكلتاهما صحيح لغة ، خلاك ذم : خلوت من كل عيب ونقصان ، وشَعوبا : بفتح الشين المنية ، والقفار بالذي لا سكان فيه .

وإنـك كـنـت تـحلمُ عـن رجـالٍ وتـعـفـو عــنـهــم ولــكَ اقـتــدارُ
وكنت أعــد قــربـي منــك ربـحــاً إذا مــا عــدت الــربـحَ التِـجَـارُ
يـعـيش الـمــرءُ عـنــد بنـي أَبـيــه ويــوشـك أن يصيــرَ بحيث صـاروا
كــأني إذ نعى الـنــاعـي كـليـبــاً تــطايــرَ بــيـن جـنـبـي الـشــرارُ

وقد اختار المهلهل هذه اللحظة الحرجة الحاسمة وقال هذه القصيدة التي تقطر دماً وحزناً ، ولا شك أن المهلهل هو سيد ربيعة بعد وفاة أخيه امتزج حزنه بعاطفة مشبوبة من الرثاء الأبدي لفراق عزيز عليه وهو كليب فارس نزار ، وهو الذي جمع قبائل معد كلها يوم خزازي ، وقهر قبائل مذحج وأعاد العرب اعتبارهم ومنزلتهم وما تخلى كثير من قبائل بكر عن مساندة قبيلة بكر ضد تغلب إلا دليل على هذا الذي تقول .

ولكن المهلهل تجاوز الحدود وبالغ وأسرف في القتل والإبادة حيث لم يترك مندوحة للائميه ليقول عذره في تفتيت قبيلتي بكر وتغلب ، وكانتا أمة واحدة ، وخاصة يوم ذي قار ، حيث اجتمع العرب لأول مرة وقاتلوا الفرس وانتصروا لأن الحبل اتسع على الراقع كما يقال ، ثم استمرت الحروب إثر ذلك على ما تجمع عليه الروايات أربعين عاماً ، وإذا كان هناك من ضرر في تفريق قبيلتي بكر وتغلب حرباً وقتالاً ومسيلاً للدماء فلا شك أن هذه الحروب أغنت الأدب العربي بفوائد أدبية ولغوية وتاريخية وجغرافية عن جزيرة العرب وقبائلها .

سابعاً : صخر ومعاوية ابنا عمرو بن الشريد السلمي (١) :

هما ابنا عمرو بن الحارث بن الشريد من بني سليم بن منصور بن قيس عيلان ، وكان صخر رجلاً شجاعاً وسيداً في قومه كريماً ، وكان معاوية أخاً

(١) العقد الفريد ٥/١٦٣ ، تاريخ الأدب العربي ١/١٦٧ ، الشعر والشعراء ٢/٣٤٣ ، الأغاني ٤٣٧ ، وأيام العرب .

للخنساء من أمها وأبيها ، أما صخر فكان أخاها لأبيها .

وكان لبني سليم أيام حروب مع غطفان حيث قتل معاوية من غزاة[1] له على بني مرة قتله هاشم بن حرملة المري . وتفصيل ذلك أن معاوية بن عمرو بن الشريد أراد أن يغزو هاشم بن حرملة المري فنهاه أخوه صخر فقال كأني بك إن غزوتهم علق تحميك حسك العرفط ، فأبى معاوية وغزاهم يوم حوزة[2] الأول ، فرآه هاشم بن حرملة قبل أن يراه ، وكان هاشم ناقهاً من مرض أصابه فقال لأخيه دريد بن حرملة إن هذا إن رآني لم آمن أن يشد علي وأنا حديث عهد بشكية فاستطرد له دوني حتى نجعله بيني وبينك ، ففعل . فحمل عليه معاوية وأردفه هاشم فاختلفا طعنتين فأردى معاوية هاشماً عن فرسه الشماء ، وأنفذ هاشم سنانه عن عانة معاوية . وكر عليه دريد فظنه قد أردى هاشماً فضرب معاوية بالسيف فقتله وشد خفاف بن عمير على مالك بن الحارث الفزاري فقتله ثم إن الشماء فرس هاشم دخلت في جيش بني سليم فأخذوها وظنوها فرس مالك بن حمار الفزاري الذي قتله خفاف بن عمير .

ورجع جيش معاوية حتى دنوا من صخر أخي معاوية فقالوا : أنعم صباحا أبا حسان فقال حييتم بذلك ، ما صنع معاوية ، قالوا : قتل ، قال : فما هذه الفرس : قالوا ، قتلنا صاحبها ، قال : إذاً قد أدركتم ثأركم هذه فرس هاشم بن حرملة . وقد حاول صخر أن يأخذ بثأر أخيه فلما دخل رجب ركب صخر بن عمرو الشماء صبيحة يوم حرام فأتى بني مرة . فلما رأوه قال لهم هاشم : هذا صخر فحيوه وقولوا له خيراً ، وهاشم مريض من الطعنة التي طعنه معاوية ، فقال : من قتل أخي ؟ فسكتوا فقال لمن هذه الفرس التي تحتي فسكتوا ، فقال هاشم هلم أبا حسان إلى من يخبرك ، قال : من قتل أخي ؟ فقال هاشم : إذا أصبتني أو دريداً فقد أصبت ثأرك . قال : فهل كفنتموه ؟ قال : نعم في بردين

---

(١) العقد الفريد ٥/١٦٣ وأيام العرب ٢٨٤ .

(٢) الحوزة : واد بالحجاز ، الأغاني ١٢/١٤١ .

أحدهما في خمس وعشرين بكرة ، قال : فأروني قبره . فأروه إياه ، فلما رأى القبر جزع عنده ثم قال : كأنكم قد أنكرتم ما رأيتم من جزعي ، فوالله ما بت منذ عقل إلا واتراً أو موتوراً أو طالباً أو مطلوباً حتى قتل معاوية فما ذقت طعم نوم بعده .

يوم حوزة الثاني[1] :

وعندما عرف صخر قاتل أخيه جهز جيشاً من بني سليم لغزو بني مرة ، فلما دنا منهم مضى على الشماء وكانت غراء محجلة فسود غرتها وتحجيلها ، فرأته بنت لهاشم فقالت لعمها دريد : أين الشماء ؟ هي في بني سليم . قال : ما أشبهها بهذه الفرس . فاستوى جالساً فقال : هذه فرس بهيم والشماء غراء محجلة ، وعاد فاضطجع . فلم يشعر حتى طعنه صخر فثأر قوم دريد وتناذروا ، وولى صخر ، وطلبته غطفان عامة يومها ، وعارض دونه أبو شجرة بن عبد العزى ، وكانت أمه خنساء أخت صخر ، وصخر خاله ، فرد الخيل عنه حتى أراح فرسه ونجا إلى قومه ، وقال خفاف بن ندبة لما قتل معاوية : قتلني الله إن برحت من مكاني حتى أثار به . فشد على مالك سيد بني جمح فقتله فقال في ذلك[2] :

أقولُ له والرمحُ يأطرُ متنَه ... تأملْ خفافاً إنني أَنا ذلكا[3]

وقفتُ له علوى وقد خامَ صحبتي ... لأبني مجداً أو لأثأر هالكَا

لدن ذَر قرنُ الشمس حين رأيتُهم ... سراعاً على خيل تؤم المسالكا

فإن تك خيلي قد أصيب صميُمها ... فعمداً على عينِ تيممتُ مالكا

---

(١) أيام العرب ٢٨٩ ، والعقد الفريد ٥/١٦٤ .

(٢) العقد الفريد ١/١٦٥ وأيام العرب ٢٨٦ .

(٣) يأطر : يثني ويعطف ، علوي : فرس خفاف بن ندبه ، الصائك : اللاحق والمتن : الظهر والمقصود به الرمح .

فجـادت لـه يمنى يـديَّ بـطعنـةٍ كستْ متنَه من أسودِ اللونِ حـالكـا
أنا الفارس الحـامي الحقيقةَ والـذي بــه أدرك الأبـطال قــدماً كـذلكـا
فــإن ينج منهـا هــاشم فبـطعنــةٍ كستـه نجيعاً من دم الجـوفِ صائكـا

وكان خفاف بن ندبة ابن عم الخنساء وقد ساعد صخـراً على النجاة من قوم هاشم بن حرملة وكان قتل خفاف لسعد بني شميخ وقيل جميح وهو مالك بن حمار قد أكسبه مجداً في بني سليم ، وخفاف أحد أغربة العرب الشجعان[١] .
وبعد أن أدرك صخر بثأر أخيه معاوية رثاه أعذب المراثي ، حيث طلب منه قومه أن يهجو بني مرة فقال ما بيننا أجل من القذع وأنشأ يقول[٢] :

وعــاذلــةٍ هبّـتْ بـلـيـلٍ تـلومـني ألا لا تلوميني كفى اللومَ مــا بِيَـا[٣]
تقــول ألا تهجــو فــوارسَ هــاشمٍ ومــالي وإهــداءُ الخَنَـا ثم مــاليَـا
أبى الهجـو أني قد أصـابوا كـريمتي وأن ليس إهـداءُ الخَنـا من شمـاليـا
إذا مـا امـرؤ أهــدى إليك تحيـةً فحيــاك ربُّ النـاسِ عني مُعَــاويـا
لَنِعْمَ الفتى أَدى ابـن صـرمــة بـزَه إذا راحَ فحـلُ الشولِ أحـدَب عَاريـا
إذا ذكــر الإخــوان رقــرقـت عبـرةً وحَيِّيتُ رمـســاً عنــد لـيــةَ ثـاويـا
وطـيَّب نـفسـي أنني لـم أقــلْ لــه كــذبت ولم أبخَـل عليـه بمــاليـا
وذي إخــوة قــطعت أقــرانَ بينهِـم كمــا تـركوني واحــداً لا أخــاليـا

فقد تمثلت في هذه الأبيات أخلاقية حميدة لصخر بعدم الفحش في القول

---

(١) الشعر والشعراء ١/٣٢١ .
(٢) أيام العرب ٢٨٧ ، والعقد الفريد ٥/١٦٥ .
(٣) الخنا : الفحش في القول ، كريمتي : حرمتي ، الشمـال : الخصلة ، ابن صرمـة : هاشم بن حرملة قاتل معاوية ، البز : السلاح ، الشـول ، النوق التي جف ضرعها ، وأحد : عار ، لية : اسم موضع وثاوي : مقيم ، أقران : حيال ، البين : الفراق .

حتى ولو كان الهجو للأعداء ، وهذا لا شك من الشمائل التي كان يختص بها بعض فرسان العرب في الجاهلية .

ثم قال صخر في دريد الذي اشترك مع أخيه هاشم بن حرملة في قتل معاوية[١] .

ولقد دفعتُ إلى دريد طعنةً نجلاءَ توغر مثلَ غط المنخرِ

وقال أبو عبيدة : وأما هاشم بن حرملة فإنه خرج منتجعاً ، فلقيه عمرو بن قيس الجشمي فتبعه ، وقال : هذا قاتل معاوية ، لا وألت نفسي إن وأل[٢] . فلما نزل هاشم كمن له عمرو بن قيس بين الشجر ، حتى إذا دنا منه أرسل عليه معبلة ففلق قحفه فقتله . فقال في ذلك :

لقد قتلتُ هاشمَ بنَ حرملةْ إذ الملوك حوله مغربلةْ[٣]
يقتل ذا الذنب ومن لا ذنبَ لهْ

وعندما علمت الخنساء بقتل هاشم بن حرملة[٤] :

فدىً للفارسِ الجُشمي نَفسي وأفديه بِمْن لي من حَميم
أفديه بكلِّ بني سُليمٍ بطاعتهم وبالأنس المقيم
ما من هاشمٍ أقررتُ عيني وكانت لا تنام ولا تُنيمُ

يوم ذات الأثل[٥] :

غزا صخر بن عمرو بن الشريد وهو فارس سليم وقائد فرسانهم بني

---

(١) العقد الفريد ٥/١٦٥ .

(٢) وأل : نجا .

(٣) في رواية العقد الفريد : لقد قتلت ، وفي رواية أيام العرب : إني قتلت .

(٤) ديوان الخنساء ١٢٩ .

(٥) موضوع في بلاد تيم الله بن ثعلبة كانت لهم وقعة مع بني أسد ، معجم البلدان ١/٩١

أسد بن خزيمة واكتسح إبلهم فأتى الصريخ بني أسد ، فركبوا حتى تلاحقوا بذات الأثل فاقتتلوا قتالاً شديداً ، فطعن ربيعة بن ثور الأسدي صخراً في جنبه وفات القوم بالغنيمة ، وجرى صخر من الطعنة ، فكان مريضاً قريباً من الحول حتى مله أهله فسمع امرأة من جاراته تسأل امرأته سلمى : كيف بعلك ؟ قالت : لا حي فيرجى ولا ميت فينسى . لقد لقينا منه الأمرين وكانت تسأله أمه : كيف صخر ؟ فتقول : أرجو له العافية إن شاء الله ، فقال في ذلك (البحر الطويل) [1] :

أرى أُمَّ صخرٍ لا تملُّ عيادتي	وَمَلَّتْ سُليمى مضجعَي وَمكاني[2]
وما كنت أَخشى أَن أكون جِنَازةً	عليك ومن يغترُّ بالحدثانِ
وأيّ أمرىءٍ ساوى بأمٍّ حليلةً	فلا عاش إلا في أَذى وهوانِ
أَهمُّ بأَمرِ الحزمِ لو أستطيعه	وقد حيل بين العيرِ والنزوانِ
لعمري لقد أنبهتُ من كَانَ نَائِماً	وأسمعت من كانت له أُذنانِ
وللموتُ خيرٌ من حياةٍ كأنَّها	محلةُ يعسوبٍ برأسِ سِنَانِ

ثم نكس بعد ذلك من طعنته فمات فكانت أخته خنساء زينة ولم تزل تبكيه حتى عميت .

وهكذا رأينا أن سيرة هذين الفارسين معاوية وصخر ابني عمرو بن الشريد السلمي كانت حافلة بالحروب المتواصلة بين بني سليم وبين غطفان حيث كانت النهاية مأساة دامية إذ قتل الفارس الأول حيث قتله هاشم بن حرملة وقتل الفارس الثاني صخر حيث قتله ربيعة بن نور الأسدي .

وترك موتهما أختاً مخلصة وفية رثتهما بأعذب فنون الشعر العربي حيث لم

---

(١) الشعر والشعراء ١/٣٤٥ ، والعقد الفريد ٥/١٦٦ ، والأصمعيات رقم ٤٧ .

(٢) جنازة : سرير الموت ـ والعير الحمار ، النزوات : الوثب ، اليعسوب : أمير النحل .

تترك النوح عليهما والبكاء لفراقهما إلا بعد أن عميت وقد تدخل كثير من أجلاء الصحابة ونهوها عن هذا البكاء فلم تسمع ، من أولئك عائشة رضي الله عنها وعمر بن الخطاب . وقد كانت خاتمة الحزن أشد حسرة من الأولى حيث خرجت مع أبنائها الأربعة لقتال الفرس في القادسية وحثتهم على الجهاد وقد استشهدوا جميعاً في معركة القادسية فلما جاءها النعي لم تزد على أن قالت : (الحمد الله الذي شرفني بقتلهم ، وأرجو أن يجمعني بهم في مستقر رحمته)[1] .

بعض مراثي الخنساء في أخويها معاوية وصخر :

اذا كانت الخنساء شاعرة العرب في الجاهلية والإسلام وشهد لها بذلك فحول الشعراء مثل النابغة حيث قال : (والله لولا أن أبا بصير (الأعشى) أنشدني لقلت أنك أشعر الجن والإنس) ثم اعترف لها حسان بالشاعرية المبدعة حيث قال : والله ما رأيت ذات مثانة أشعر منك . فقالت الخنساء : والله ولا ذا خصيين[2] . وإذا كانت الخنساء قد أبدعت في الشعر عامة فإنها أبدعت في فن الرثاء خاصة ، وذلك لعدة أسباب معروفة : وهي أنها فقدت أخويها صخراً ومعاويةً في حروب مع بني مرة ، ثم فقدت أولادها الأربعة في معركة (معركة القادسية) ضد الفرس ، وبكت عليهم جميعاً بكاءً مراً مزق شغاف قلبها وعميت أخر الأمر .

والآن أذكر بعض القصائد التي رثت بها أخويها وأباها في الجاهلية ، وكانت هذه القصائد واضحة المعنى جميلة السبك رفيعة القدر صادقة العاطفة لا أجد لها مثيلاً عند أي شاعر في فن الرثاء، ثم لكون النساء رقيقات العاطفة كما يقول ابن رشيق ، على أن التأمل لديوان الخنساء يجد أن معظم قصائد الخنساء

---

(١) تاريخ الأدب العربي ١/٣١٨ .

(٢) الشعر والشعراء ١/٣٤٤ .

قيلت في الرثاء وما قالته في الفخر والحماسة بالنسبة للرثاء نادراً جداً من ذلك ما تقوله في رثاء أخيها صخر[1] :

قـذىً بعينيـك أَم بـالـعيـنِ عـوَّارُ ... أم ذرفت إذ خلت من أهلِهـا الدارُ[2]

كـأن عـيني لـذكـراه إذا خـطرتْ ... فيضٌ يسيـلُ على الخـدينِ مـدرارُ

تبكي خنـاسُ على صخـرٍ وحُقَّ لهـا ... إذ رابهـا الـدهـر إن الـدهـر ضَـرارُ

قـد كـان فيكم أبـو عمـرو يسـودُكم ... نـعم الـمـعّـمـمُ لـلداعـيـن نـصـارُ

صلبُ النحيـزة وهَّـاب إذا مـنعَـوا ... وفي الحروب جريءَ الصـدرِ مهصارُ

وإن صـخـراً لـواليـنـا وسـيـدنـا ... وإنَّ صـخـراً إذا نـشـتـو لـنَـحـارُ

وإن صـخـراً لـتـأتـمُّ الـهـداةُ بـه ... كـأنـه عـلـمٌ فـي رأسـه نـارُ

جلدٌ جميـلُ المحيّـا كـامـلٌ وَرِعٌ ... وللحـروبِ غـداةً الـروعِ مسعـارُ

حـمَّـالُ ألـويـةٍ هـبّـاطُ أوديـةٍ ... شـهّـادُ أنـديـةٍ لـلجـيش جـرَّارُ

لم تـره جـارةٌ تمشي بـسـاحتـهـا ... لـريبـة حين يخلي بيتَـه الجـارُ

ومـطعمُ القومِ شحمـاً عنـد مسغبهم ... وفي الجـدوب كـريمُ الجـد ميسـارُ

جهم المحيـا تضيء الليـلَ صـورتَـهُ ... آبـاؤه من طـوال السمـك أحـرارُ

فـرعٌ لفـرعٍ كـريمٍ غيـرِ مؤتشبٍ ... جلدُ المـريـرةِ عنـد الجمعِ فخّـارُ

وتمثل هذه الأبيات بما فيها صدق عاطفة ، وجلال موقف ، وروعة بيان ، وسمو معان ، وعظمة فارس ، وأخلاقية عربية أصيلة للفروسية ، تمثل الأبيات

---

(١) الديوان ص ٤٧ ، وتاريخ الأدب العربي ١/٣١٩ .

(٢) العوار : وجمع في العين كالرمد ، العبرى : الدامعة الحزينة ، المعمم : المسود ، النحيزة : الطبيعة ، المهصار : الذي يهصر الأعناق يدمنها ، ونحار : كثير ذبح الإبـل للأضياف ، العقار : كثير العقر : وتأتمه : تهتدي الهـداة جمع هـادي ، والعلم : الجبل ، ومسعار الحرب : موقدها .

ما تغبط عليه الخنساء من كونها شاعرة العروبة في العصر الجاهلي ثم شاعرة الإسلام في الإسلام ، حيث بدأت بالتوجع والألم وهذا من وفائها ثم وصف لشمائل أخيها صخر من كرم فاق حد الوصف ، ثم شجاعة فريدة في مواجهة التحديات ، وقد قتل قاتل أخيها فعلاً ولم يبال بالنتيجة حيث كانت عاقبته سيئة له إذ قتل في آخر غزوة له يوم ذات الأثل .

ثم لا تنسى أن تعلن الخنساء بكل صراحة ووضوح أن أخاها نادرة الزمان إقداما وإطعاما للأضياف ، وهو يتأسى بأجمل الأخلاق التي أقرها الإسلام ، وهي البعد عن مواطن الريبة بعدم خيانة زوجة جاره في غياب جاره ، وهو عباس لأعدائه حيث لايعطيهم فرصة صدوق وشهم . وهذا ليس بغريب على الخنساء لأن أخاها من أصل كريم توارث المجد عن أجداده كابراً عن كابر ، فهو سيد شجاع وفارس مغوار في معارك بني سليم ضد أعدائهم جميعاً ، وهي لا تنسى أن تذكر مصابها الجلل بفقدها أباها وأخويها صخراً ومعاوية ، حتى يروى أنها كانت تقف بالموسم وتعاظم العرب بمصيبتها بأبيها عمرو بن الشريد وأخويها صخر ومعاوية ابني عمرو وتنشدهم فتبكي(١) .

ويقال إن أباها كان يأخذ بيدي ابنيه صخر ومعاوية ويقول : أنا أبو خيري مضر . فتعترف له العرب بذلك . ثم قالت الخنساء بعد ذلك : كنت أبكي لصخر من القتل ، فأنا أبكي له اليوم من النار .

الخنساء في الإسلام :

عندما عم نور الإسلام في الجزيرة العربية وأسلمت جميع القبائل العربية ودخل الناس في دين الله أفواجاً ، قدمت الخنساء مع قومها بني سليم فأسلمت ، وعندما رآها عمر بن الخطاب قال : ما قرح مآقي عينيك ؟ قالت : بكائي على السادات من مضر . قال : يا خنساء إنهم في النار ، قالت ذلك

---

(١) الشعر والشعراء ١/٣٤٦ .

أطـول بعويلي عليهم ، إني كنت أبكي لهم من الثـأر وأنا اليـوم أبكي لهم من النار[١] .

ويقال أنها أقبلت مرة في خلافة عمر بن الخطاب فنزلت بالمدينة في زي الجاهلية ، فقام إليها عمر في ناس من أصحابه فـإذا هي على ما وصف لـه ، فعذلها ووعظها وقال لها : إن الـذي تصنعين ليس صنع الإسـلام ، وإن الذين تبكين هلكوا في الجاهلية هم أعضاء اللهب وحشو جهنم . فقالت : اسمع مني ما أقول في عذلك إياي ولومك لي . فقال : هاتي . فأنشدته[٢] :

سقَى جـدثـاً أكنـافُ غمـرةَ دونـه   من الغيثِ ديمـاتُ الربيـعِ ووابلُهُ[٣]
أعيـرُهم سَمَـعي إذا ذُكـر الأسـى   وفي القلب منـه زفـرةٌ مـا تـزايلهُ
وكنت أعيـرُ الـدمـعَ قبلك من بَكى   فـأنت على من مـاتَ بعـدك شَـاغِلُه

فقال عمر : دعوها فإنها لا تزال حزينة أبداً ، وقد غرست الخنساء روح الفداء والفروسية في أبنائها إذ أنها لم تكتف أن تفقد أباها وأخويها بل أرادت أن يكون أبناؤ ها كأخوالهم فرساناً أباةً شجعانـاً ، وذلك أن الخنسـاء اشتركت مـع جمـوع المسلمين في حرب الفـرس في معـركـة القـادسيـة ، وكـانـوا في سن الشباب ، فقالت لهم من أول الليل :

(يـا بني إنكم أسلمتم طـائعين ، وهـاجـرتم مختـارين ، والله الـذي لا إله إلا هو إنكم لبنو رجل واحد كما أنكم أبناء امرأة واحدة ما ضنت أباكم ولا فضحت خالكم ولا هجنت حسبكم ولا غيرت نسبكم ، واعلموا أن الدار الآخرة خير من الدار الفانية اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون ، فـإذا

---

(١) تاريخ الأدب العربي ١/٢٢٩ .

(٢) الديوان ١٢٦ ، وتاريخ أدباء العرب ١/٢٢٩ .

(٣) الجـدث : القبـر ، والأكنـاف : جمـع كنف وهـو النـاحيـة ، وغمـرة : اسم مـوضـع والديمات : الأمطار الدائمة ، الوابل : المطر الغزير ، تزايله : تفارقه .

رأيتم الحرب قد شمرت عن ساقها فتيمموا وطيسها وجالدوا رئيسها تظفروا بالغنمة والكرامة في دار الخلد والمقامة)[1] .

فلما أصبحوا باكروا مراكزهم فتقدموا واحداً بعد واحد وهم يرتجزون ، ذاكرين وصية العجوز حتى قتلوا عن آخرهم ، فبلغها الخبر فقالت : الحمد لله الذي شرفني بقتلهم ، وأرجو من ربي أن يجمعني بهم في مستقر رحمته .

وهكذا عشنا شيئاً من الزمن مع خنساء الشاعرة ومع خنساء الصحابية الجليلة ومع خنساء التي حثت أبناءها على نصرة الإسلام وما زال شعرها الباكي الحزين من أعذب الشعر العربي في الرثاء على الإطلاق .

ومن جميل رثائها لأخيها صخر قولها[2] :

يؤرقني التذكرُ حينَ أُمسي ... فأصبحَ قد بليت بفرطِ نكسِ
على صخرٍ وأيَّ فتىً كصخرٍ ... ليوم كريهةٍ وطعانِ حلس
فلم أر مثله رزءاً لجنٍّ ... ولم أَر مثله رزءاً لإنس
وضيفٍ طارقٍ أو مستجيرٍ ... يروع قلبَه من كلّ جرسِ
يذكرني طلوعُ الشمسِ صخراً ... وأذكره لكل غروب شمسِ
ولولا كثرة الباكينِ حولي ... على إخوانهم لقتلتُ نفسيَ
ولكن لا أزال أَرى عجولاً ... وباكيةً تنوح ليوم نحسِ
وما يبكون مثل أَخي ولكن ... أعزي النفس عنه بالتأسي

---

(١) شاعرات العرب ١/٤٥ ، وتاريخ أدباء العرب ١/٢٣٠ .

(٢) ديوانها ص ٨٤ ، نكس : عود المريض بعد فترة شفاء ، الجرس : الصوت الخفي ، طلوع الشمس : وقت الغزوات صباحاً ، غروب الشمس ، وقت إكرام الأضياف ، العجول : الثكلى ، التأسي : الصبر ، أعزي : أصبر .

فلا واللهِ لا أنساكَ حتى أفارقَ مهجتي ويشقَّ رمسي
فقد ودّعتُ يوم فراق صخرٍ أبي حسان لذاتي وأُنسي
فيا لهفي عليه ولهفَ أُمي أيصبحُ في الضريحِ وفيه يمسي

وبعد فإن الخنساء اتخذت من مظاهر الحياة في عهد صخر وسيلة إلى بيان فضائله بعد أن أبرزت لنا في لوحة فنية مدى حرقتها وحسرتها على أخيها الفقيد صخر من هذه المظاهر أنه مقدام فارس في يوم الوغى ثم أنه يستقبل أضيافه بكل بشر وترحاب حيث يصدق عليه قول الشاعر :

أُضاحك ضيفي قَبل إنزال رحلِه ويخصب عندي والمحلُ جديبُ

وهي تبدع حقا وتحلق في عالم لا نظير له ، حيث أنها أبرزته عندما ذكرته غازياً في الصباح الباكر الوضاء ، ثم مرحباً بالضيوف وقت المساء ، وهذه صورة منتزعة من واقع حياتها النابض بالحياة ، ثم تربط حزنها بحزن الآخرين ، حيث أنها واحدة ممن فقد خلانه وأحبابه ، ولكن مصيبتها تفوق مصائبهم . وتأخذ الخنساء على نفسها عهداً بعدم نسيان أخيها صخر ما دامت فيها نبضة حياة ، ثم أنها فارقت كل لذيذ ومرغوب بعد قتله .

ونلاحظ أن الخنساء قد غالت مغالاة شديدة في البكاء على أخيها ولم تقف عند حد رغم أن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وعظتها ورغم أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب عذلها على كثرة بكائها حتى أنه قال آخر الأمر : دعوها فإنها لا تزال حزينة أبداً . ولا نجد في ألفاظ الخنساء صعوبةً أو تعقيداً ، بل إن شعرها واضح الدلالة عميق المعنى جليل الغاية رفيع الأسلوب . وهو يشبه في هذا المهلهل أخاه كليب الذي لم ينس أخا كليباً حتى فارق الحياة .

ومن أبلغ ما قالت في الرثاء[1] :

قيل : أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه دخل البيت الحرام فرأى الخنساء

---

(١) الديوان ص ١٠٣ .

تطوف بالبيت محلوقة الرأس وتلطم خدها ، وقد علقت نعل صخر في خمارها ، فوعظها ، فقالت: إني رزئت فارساً لم يرزأ أحد مثله . فقال : إن في الناس من هو أعظم مرزأة منك ، وإن الإسلام هدم ما كان قبله ، وإنه لا يحل لك كشف رأسك ولطم وجهك . فكفت عن ذلك وقالت ترثي أخاها صخراً وأخاها معاوية :

هَريقي من دموعِك أو أَفيقي ... وصبراً إن أطقتِ ولن تُطِيقي[1]
وقولي إنَّ خيرَبَني سُليمٍ ... وفارسهَم بصحراءِ العَقيقِ
وإني والبكا من بعدِ صَخرٍ ... كسالكةٍ سوى قصدِ الطريقِ
ولكني وجدت الصبرَ خيراً ... من النعلين والرأسِ الحَليقِ[2]
وإذ يتحاكمُ الساداتُ طُرّاً ... إلى أبياتنا وذوو الحقوقِ
وإذ فينا فوارسُ كلِّ هَيجا ... إذا فزعوا وفتيان الخروقِ
وإذ فينا معاويةُ بنُ عمروٍ ... على أدماءِ كالجملِ الفنيقِ
فبكيه فقد ولى حميداً ... أصيلَ الرأي محمود الصديقِ

وكما رأينا في مراثي الخنساء السالفة فإنها هنا تنوح بعين دامية وقلب مكلوم على هذين الفارسين اللذين فقدت بفقدهما متعة الحياة عيشاً وحلاوة الحنان براً ، فهي تعدد مصيبتها في أخويها اللذين كانا خير بني معد ولكنها تدرك في نهاية الأمر أن الصبر لا بد منه .

ومن جميل رثائها لصخر قولها[3] :

ألا يا صخرُ إن أبكيت عيني ... لقد أضحكتني دِهراً طويلا

---

(١) هريقي : صبي . الديوان ص ١٠٣ .

(٢) تقول إنها وجدت الصبر خيراً من أن تحلق رأسها وتضربه بنعلين فتعفره كعادة النساء الجاهليات إذا فقدن عزيزاً عليهن .

(٣) الديوان ص ١١٩ .

بكيتك في نساءٍ معولات		وكنت أحقَ من أبدى العويلا
دفعتُ بك الجليل وأنت حيٌّ		فمن ذا يدفع الخطَب الجليلا
إذا قبح البكاء على قتيل		رأيت بكاءك الحسنَ الجميلا

وهذه الصور الجميلة التي تجعل الخنساء بين البكاء والضحك والقبح والجمال هي لا شك مما جعل الخنساء الإنسانة تزداد حسرةً وألماً ، كيف لا وقد خاطبت عالماً آخر إنه عالم الفناء وهي لا ترى بعد وفاة أخيها صخر إلا الشقاء والحرمان والقلق ، ولا شك أن هذا من اهتزاز الإيمان عند هذه المرأة في العصر الجاهلي ولكنها انقلبت إلى صابرة متأسية في الإسلام ، وهل هناك أفضل من مبادىء الإسلام في كسب المؤمن اليقين والتأسي والصبر على منغصات الحياة . ونجد الألفاظ في هذه المرثية سهلة قريبة التناول غير معقدة ولا تحتاج إلى لبس في الفهم .

ومن جميل رثائها لأخيها صخر قولها[1] :

يا عينُ بَكّي على صخرٍ لأشجانٍ		وهاجسٍ في ضميرِ القلبِ خزَّانِ[2]
إني ذكرتُ ندى صخرَ فهيّجني		ذكرُ الحبيب على سُقْمٍ وأحزانِ
فابكي أخاكِ لأيتام أضرَّ بِهم		ريبُ الزمانِ وكل الضرِّ يغشاني
طَلاّع مرقبةٍ منّاع مغلقةٍ		ورّاد مشربةٍ قطّاع أقران
وابكي المعممّ زَين القائدين إذا		كان الرماحُ لديهم خَلع أشطانِ
شهَّادُ أَنديةٍ حمّالُ ألويةٍ		قطّاعُ أوديةٍ سَرحانُ قيعانِ
ويتركَ القرنُ مصفراً أَناملُه		كأنَّ في ريطتيه نضحُ أرقانِ

---

(١) الديوان ١٣٦ .
(٢) الهاجس : ما خطر في البال ، السقم : المرض ، الأشطان : جمع شطن وهو الجبل ، المرقبة : المكان العالي المشرف قربه مورد الماء ، أقران : جمع قرن وهو الجبل ، القرن : الخصم المساوي له ، ريطتيه : ثوبيه ، النضح : الرش الأرقان : الصفرة .

يعطيك ما لا تكادُ النفسُ تُسلمه   من التلادِ وهوبٌ غيرُ منّانِ

في هذه الأبيات منحى جديد نحتته الخنساء إذ صورت أخاها صخراً أنه ربيع الأيتام وحصن الأرامل ، وهذا مما زادها توجعاً عليه ، ثم إنها لا تنسى أن تذكر قيادته وزعامته لبني سليم في الغزو وهو يرتفع في الذرى حتى يكتشف الأعداء ويحذر قومه منهم ، ويحمل لواء بني سليم في المعركة وهي دليل البسالة والإقدام .

وبعد فقد أخذنا بعض النماذج من شعر الخنساء في رثاء أخويها الفارسين معاوية وصخر ، ويمكن أن نحدد الملاحظات الآتية على هذه النماذج :

أولاً : إن هذه المراثي جميعاً صادقة ونابعة من نفس محترقة لأنها رثاء أحب الناس إليها وهما أخواها ثم أبوها .

ثانياً : إنها بالغت كثيراً في هذه المراثي حيث لم تكف مطلقاً عن البكاء والعويل منذ أن قتل أخواها معاوية وصخر .

ثالثاً : لم تنس الخنساء الإنسانة الشاعرة أن أخويها كانا فارسين كريمين وشجاعين مغوارين وتباهت بذلك في شعرها .

رابعاً : إنها مزجت هذا الرثاء بالحديث عن أخلاق الفرسان العرب في الجاهلية من العفة والإباء والمروءة والشجاعة والكرم .

خامساً : إن معظم ألفاظ مراثيها سهلة يسيرة يفهمها غالب الناس .

سادساً : كانت نهاية الخنساء رغم البكاء والعويل أنها استسلمت لقضاء الله حين اتخذت الصبر رداء واحتسبت أبناءها الأربعة شهداء في معركة القادسية .

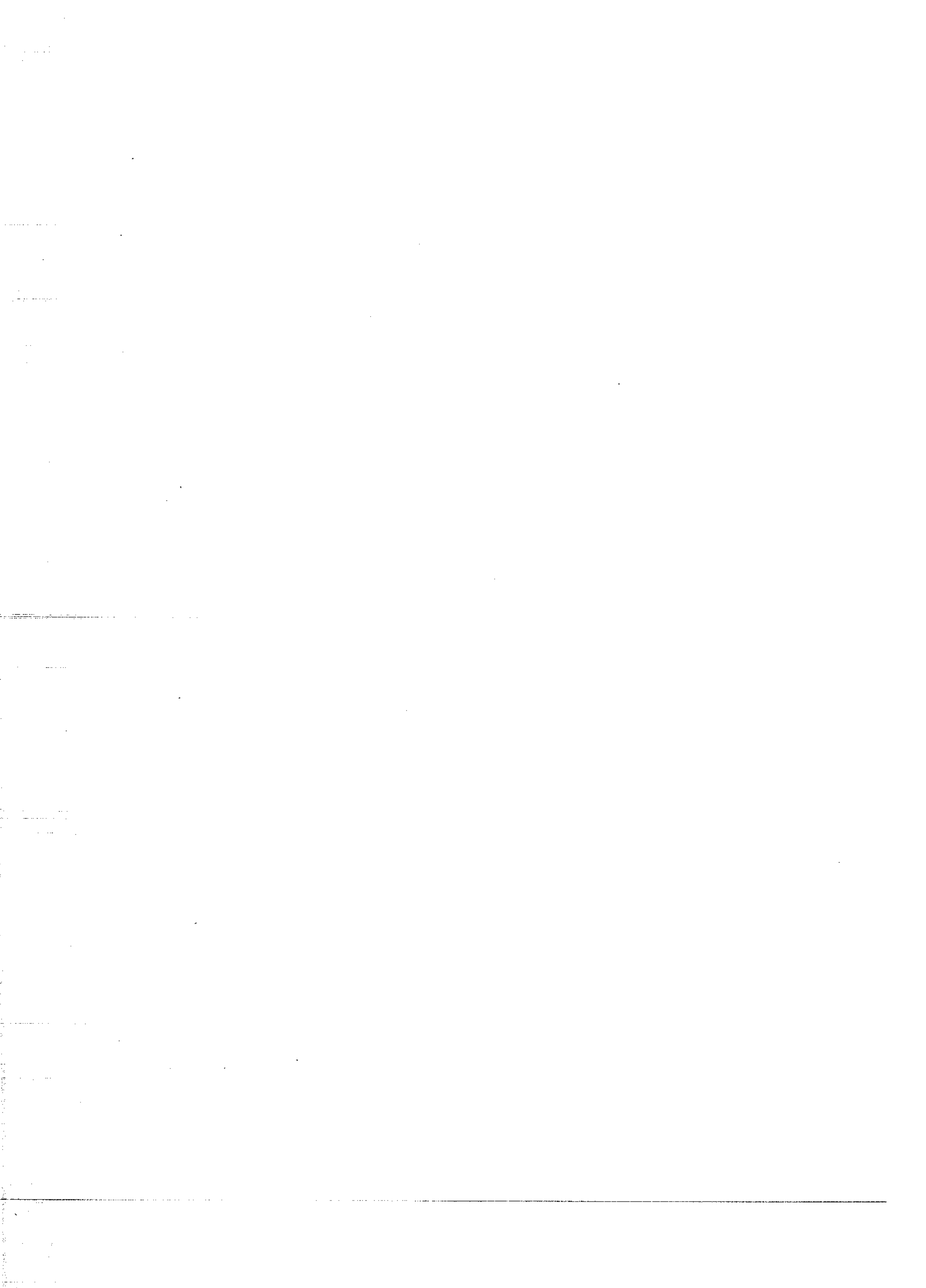
ومن هنا تجسدت كل معاني البكاء في نفسية هذه الشاعرة على أنها والهة

فقـد كل عـزيز من أب وأخ وزوج وابن وقـالت القولـة المأثـورة عندمـا علمت باستشهاد أولادها الأربعة :

« الحمد لله الذي شرفني بقتلهم ، وأرجو الله أن يجمعني بهم في مستقر رحمته » .

أي أنها كانت مؤمنة بكل ما روعها بفقدانها الأعزة من أهلها وذويها .





القسم الثاني

فرسان الصعاليك في العصر الجاهلي :

تناولت في بداية هذا الفصل أبرز فرسان القبائل العربية في العصر الجاهلي ، وحاولت جهدي أن ألم بأخبارهم واستشهد على مواطن بطولتهم ، وذلك للتدليل على أهمية هذه الفروسية العربية الأصيلة ، واتخذت من كثرة الغزوات وشهادة الأبطال الفرسان من الأعداء وسيلة لتقديم هؤلاء الفرسان . ولا يعني هذا أنني نسيت الفرسان الآخرين أو أنهم غير جديرين بالذكر ، ولكنني اكتفيت بالأشهر الأعم من الفرسان ثم قسمت هذا الفصل إلى قسمين هما :

أولاً : فرسان العرب الكبار الذين يمثلون القبيلة والمشهود لهم بالبطولة والإقدام مثل عامر بن الطفيل وعنترة ودريد بن الصمة وصخر بن الشريد وغيرهم .

ثانياً : الفرسان الصعاليك الذين كونوا فيما بينهم عصبة لها مبادؤها وتقاليدها ، وهم لا شك محافظون على هذه المبادىء سائرون على نهجها مثل عروة بن الورد والشنفرى والسليك بن السلكة وتأبط شراً . وسآخذ بعض هؤلاء الشعراء الصعاليك كنماذج دون تفصيل وأختار بعض قصائدهم التي قيلت إثر غزوة أو فتك أو قتال فيما بينهم وبين أعدائهم ، وسأعرض شرحاً موجزاً لهذه القصائد ، وتراجم موجزة لهؤلاء الشعراء الصعاليك ثم ألخص أهم أفكارهم

حتى يخرج القارىء بشيء من الفائدة المتوخاة من عرض هذا الموجز لحياة هذه الفئة :

أولاً ـ عروة بن الورد[1] :

هو عروة بن الورد بن زيد بن عبد الله بن ناضب من بني عبس من قيس عيلان كان والده عروة من الفرسان الذي خاضوا حرب داحس والغبراء ، وكذلك كان عروة نفسه فارساً شجاعاً مقداماً ، ولكن كان صعلوكاً فقيراً مغامراً له طابع خاص في الفروسية من حيث الكر والفر والهجوم والغزو ، وكان مقدماً على الصعاليك لفروسيته وشجاعته وكرمه . فقد كان يقوم بأمرهم إذا أخفقوا في غزوة ، ويعولهم إذا لم يكن عندهم معاش حتى سمي عروة الصعاليك ، وقد فضله بعض الخلفاء على حاتم في الكرم ، قال معاوية بن أبي سفيان : لو كان لعروة بن الورد ولد لأحببت أن أتزوج إليهم[2] وقال عنه كذلك عبد الملك بن مروان[3] : ما يسرني أن أحداً من العرب ولدني ممن لم يلدني إلا عروة بن الورد لقوله[4] :

إني امرؤ عافي إنائي شركةٌ   وأنت امرُؤٌ عافي إنائك واحدُ[4]

أقسِّمُ جسمي في جسوم كثيرةٍ   وأحسو قراحَ الماءِ والماءُ باردُ

أتهزأُ مني أن سمنتَ وأنْ ترى   بجسمي مسَّ الحقِّ والحق جاهدُ

وبهذا فقد بلغ عروة الذروة العليا في الكرم ، حيث آثر الآخرين على

---

(١) الأصمعيات رقم ٤٣/١٠ ، الحماسة ١٥٩/٠ ، أغاني الأغاني ٧٦ ، تاريخ الأدب العربي ١/٢١٢ ، الشعر والشعراء ٢/٦٧٥ .

(٢) الأغاني ٧٦ .

(٣) الشعر والشعراء ٢/٦٧٥ .

(٤) العافي : الضعيف ، والجسم : الطعام ، والماء القراح : الذي لا يخالطه لبن .

نفسه حتى ولو لم يكن فقيراً فإنه يقدم ما عنده من زاد لأولئك الجياع وحقاً فإنه ينطبق عليه لقب عروة الصعاليك ، ولا شك أن هذا نابع من إحساس إنساني صادق ، وبهذا فقد عرف العرب في جاهليتهم القيم الرفيعة التي تفوقت على المبادىء التي تزعم أنها أنصفت الإنسان في العصر الحاضر كالاشتراكية الحديثة وغيرها . ومن المأثور في الحديث (خياركم في الجاهلية ، خياركم في الإسلام إذا فقهوا)[1] .

وكان عروة من شعراء الجاهلية الكرام ومن فرسانها الأبطال ومن صعاليكها الشجعان المعدودين المقدمين الأجواد .

وكان شعره يحث على الرحلة وطلب الغنى وترك حياة المذلة والمهانة . ومما يروى أن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب كان يقول لمعلم ولده لا تروهم قصيدة عروة بن الورد التي يقول فيها[2] :

ذَرِيني للغُلا أسعى فإني رأيتُ الناسَ شرُّهم الفقيرُ
ويقصيه النديُّ وتزدريهِ حليلتُه وينهرُه الصَغِيرُ
وُيلقي ذو الغنى وله جَلاَلٌ يكادُ فؤادُ صاحِبِه يَطِيرُ
قليلٌ ذنبُه والذنبُ جمٌّ ولكن للغني ربٌّ غفورُ

إن هذا يدعوهم للاغتراب ، وفعلا فإن أشعار عروة كانت تأتي بعد غزو يقوم به وأصحابه على القوافل في الصحراء ثم يقومون بتوزيع هذه على الفقراء والجياع .

والذي يعنينا من أمر عروة أنه كان عفيفاً صادقاً في فروسيته وفياً بالعهود من ذلك أنه سبى امرأة من بني كنانة في إحدى غزواته اسمها سلمى ، وقد اتخذها

---

(١) رواه أحمد بن حنبل ومسلم / المعجم المفهرس لألفاظ الحديث ٢/١٠٠ .

(٢) تاريخ الأدب العربي ١/٢١٣ ، الأغاني ١٦/٧٧ .

زوجة له ورزق منها أولاداً ، ولكنها فارقته والرواية كما يأتي[1] :

أغار عروة بن الورد على مزينة فأصاب منهم امرأة من كنانة بكر يقال لها سلمى ، فسباها واتخذها لنفسه ، وكانت ذات جمال فولدت له أولادا ، وكان شديد الحب لها ، وكان ولده يعيرونه بأمهم ، ويسمون بني الأخيذة ، أي السبية ، فقالت : ألا ترى ولدك يعيرون ؟ قال : فماذا ترين ؟ قالت : أرى أن تردني إلى قومي حتى يكونوا هم الذين يزوجونك . فأنعم لها ، فأرسلت إلى قومها أن ألقوه بالخمر ثم اتركوه حتى يسكر ويثمل فإنه لا يسأل حينئذ شيئاً إلا أعطاه ، فلقوه فسقوه فلما سكر سألوه سلمى فردها عليهم ، وشهد عليه بذلك جماعة ممن حضر ، وعندما ردت إلى قومها قالت : أما إني لا أعلم امرأة ألقت ستراً على خير منك ، وأغفل عيناً وأقل فحشاً وأحمى لحقيقته ، ولقد أقمت معك وما من يوم يمضي إلا والموت أحب إلي من الحياة وذلك أني كنت أسمع المرأة من قومك تقول : قالت أمة عروة كذا ، والله لا نظرت في وجه غطفانية فارجع راشداً وأحسن إلى ولدك . ولم يدرك هذه الحيلة إلا بعد وقوع الفراق بينهما ولهذا قال[2] :

ولَوَ كاليوم كانَ علي أمري ... ومن لكَ بالتَدبرِ بالأُمورِ[3]
إذن لملكتُ عصمة أمِّ عمروٍ ... على ما كان من حَسَكِ الصُدورِ
فيا للناس كيف أطعتُ نفسي ... على شيءٍ ويكرهُهُ ضَمِيريَ

وقد كان عروة فارس الصعاليك لا منازع حيث ضرب لهم المثل الأعلى في الإقدام والغزو والسلب ، حتى إنه في معظم شعره كان يحث الصعاليك على ترك حياة الخنوع ويطالبهم بالإقدام وبناء الأمجاد على ذرى سيوفهم ،

(١) المرجع السابق .
(٢) الشعر والشعراء ٢/٦٧٧ .
(٣) الحسك : نبات له شوك ، والمقصود هنا الضغن والعدواة .

ويبعث فيهم روح المغامرة وحرب الظلم ، ويصدق عليهم قول أحدهم :

متى تَملكِ القلبَ الذكيَّ وصارماً ... وأنفاً حمياً تَجتنبْكَ المظالمُ

وكان عروة فارساً مغواراً حتى إن زوجته سلمى لامته على كثرة غاراته وركوب الأخطار واستهانته بالحياة ورغبته في الكفاح المستمر ، ولعل أجمل ما قيل في الحث على طلب المعالي وبث روح المغامرة في الشباب ما يقوله في قصيدة تعد من عيون الشعر العربي في بابها ، وهي مما أوردتها معظم كتب الأدب وعدتها من القصائد المختارة[1] من فارس الصعاليك وإمامهم وزعيم مبادئهم :

١ ـ أقلي عليَّ اللومَ يا ابنةَ منذرِ ... ونامي فإن لم تشتهي النومَ فاسهري[2]

٢ ـ ذَرِيني ونَفْسِي أُمَّ حسانَ إنني ... بها قبلَ أَن أملك البيعَ مشتري

٣ ـ أحاديثُ تَبقى والفتى غيرُ خالدٍ ... إذا هو أَمسى هامةً تحتَ صبّرِ

٤ ـ ذريني أطوِّفْ في البلادِ لعَلّني ... أخليكِ أو أَغنيكِ عن سَوءِ مَحْضَرِ

٥ ـ فإنْ فازَ سَهْمُ للمنيةِ لم أَكُنْ ... جزوعاً وهلْ عن ذاكَ من مُتَأَخَّرِ

٦ ـ وإن فازَ سَهْمي كَفَّكم عن مقاعدٍ ... لكم خلف أَدبار البيوتِ ومنظرِ

٧ ـ تقول لك الويلاتُ هل أنت تاركٌ ... ضبوءاً برجلٍ تارةً وبِمنسرِ

---

(١) انظر الحماسة ١/١٥٩ ، وتاريخ الأدب العربي ٢١٢ ، وأغاني الأغاني ٧٦ ، والشعر والشعراء ٢/٦٧٥ ، والأصمعيات رقم ١٠ وغيرها .

(٢) ابنة منذر : زوجته سلمى ، وأم حسان : كنية زوجته ، وهامة : طائر كان يصيح على قبر الميت لأخذ ثأره ، الصبر : القبر ، التخلية : الطلاق ، أغنيك : أعطيك حاجتك من المال ، فوز السهم : خروجه ، جزوعاً : حزيناً ، ضبوءاً : الملصوق بالأرض ، المنسر : جماعة من الخيل من ثلاثين إلى أربعين ، الأقتاد : جمع قتد ، وهو خشب الرجل ، الصدماء : القليلة اللبن ، الصالحون عند ابن السكيت ذوو معروف وعند صاحب الجمهرة الرجال الذي يطلبون المعالي من الأمور ، الخفض : الدعة .

٨ - ومتشبثٍ في مالكِ العام إنني أراك على أقتادِ صَرماءَ مذكَرِ

٩ - فجوع بها للصالحين مزلةٍ مخوف رداها أن تصيبك فاحذرِ

١٠ - أبى الخفضُ منَ يغْشَاكَ من ذي قرابةٍ ومن كل سوداءِ المعاصِم تَعْتَري

١١ - ومستهنىءٍ زيدُ أبوه فلا أَرَى له مدفعاً فاقْنَي حياءَك واَصبِرِي

مناسبة القصيدة :

يوجه عروة خطابه هنا إلى زوجته سلمى وهي ابنة منذر ، وكانت تلومه على ركوبه الأخطار بنفسه وإدمانه الغارات والغزوات في أحياء العرب .

فرد عليها قولها بأنه إنما ينبغي بذلك المجد وجمع المال لها ليكفيها بعد موته ، ثم هو يرسم سياسة للصعاليك فهو لايرضيه الصعلوك الخامل الذي لا يسعى لالتماس المال ، وإنما يريده أن يكون غازياً جرئياً يخشاه الناس في المحضر والمغيب لا يأمنون غزوه ، ثم ينهج لسياسته التي جرى عليها بأنه يريد أن يكفي قبيلتي معتم وزيد ويسد حاجتهما ، ويعلن أن سيواصل الغارات متزعماً لأصحابه لكي يشبع رغبة الجود والبذل والعطاء الذي أخذ نفسه على هذا المبدأ الأصيل فطرةً .

ونلاحظ أن لومه منصب على الصعلوك الكسول الخامل ويحثه فردياً على طلب المعالي لا من أجل مجد القبيلة أو عزتها ، وإنما لدافع شخصي فردي هو جمع المال لتوزيعه على الفقراء والمساكين . ثم يواصل وصف هذا الصعلوك الخامل بقوله[1] :

لَحَى اللهُ صُعْلوكاً إذا جنَّ ليلهُ مُصَافي المشاشِ ألفاً كلَّ مجزرِ[2]

---

(١) الأصمعيات ١٠/٤٥ .

(٢) لحاه الله : قبحه ولعنه ، والصعلوك : الفقير ، المشاش (رؤوس العظام) ؛ والمصافي : من المصفاة ، وهي الاختيار والملازمة ، والمجزر : موضع نحر الإبل ؛

يعـدُّ الـغِنَـى مــن دهرِه كلَّ لـيلةٍ ... أصــاب قِراهــا من صَـدِيقٍ ميسَّــرِ

قليـلُ التمـاسِ المـال إلاّ لِنفسـه ... إذا هـو أضحى كـالعـرَيشِ المقـوَّرِ

ينـامُ عِشـاءً ثـم يصبـحُ قـاعِـداً ... يحتُّ الحَصىٰ عن جنبـه المُتـعفِـرِ

فهذا الصعلوك المهين الحقير الكسول لا هم له إلا أن يخدم نساء الحي ويملأ بطنه بالزاد دون أن يكون لـه رغائب في المجـد والعلا بعكس الصعلوك المجد المثابر المـدمن للغارات والذي لا يفتأ يكر ويفـر على القوافـل للسلب والنهب وإن القوم دائماً يفكرون في أمره ويتخذون كل إجراء لمنع هذا الصعلوك من الغزو .

أمـا روح هذه الأبيـات فإنهـا تحمل في طيـاتها الثـورة ضـد كـل أنـواع الخمول ، وتحارب حياة الدعة والاستقرار بل تدعو إلى روح المغامـرة وكسب القوت وتوفيره للطبقات المحتاجة ثم يقول :

١ ـ يعينُ نسـاءَ الحيِّ مـا يستعنـهُ ... ويُمْسي طَليحــاً كـالبعيـرِ المحسَّـرِ

٢ ـ ولله صعلوكٌ صفيحــةُ وجـهـهِ ... كضــوءِ شهـابِ القـابِسِ المَتنّـورِ

٣ ـ مـطلاً على أعـدائـه يـزجـرونَـه ... بســاحتهم زَجَـر المنيــحِ المشهّــرِ

٤ ـ وإن يَعْـدُ لا يـأمنــون اقتـرانــه ... تشــوف أهـلِ الغـائـبِ المتنـظَّرِ

٥ ـ فــذلـك إن يَلقَ المنيــةَ يلقَهــا ... حميـداً وإن يستغنِ يـومــاً فـأَجْـدِرِ

فهذا الصعلوك المهين الحقير الكسول لا هم له إلا أن يخدم نساء الحي

---

(١) طليحاً : المعيب العاجز وكذلك المحصر .

(٢) صفيحة وجهه : بشرة جلده ، الشهاب : شعلة من نار ساطعة ، المتنور : المضيء .

(٣) مطلاً : مشرفاً ، يغزوهم دائمـاً ، والمنيـح : قـدح سريـع الخـروج ، المشهـر : المشهور .

ويملأ بطنه بالزاد دون أن يكون له رغائب في المجد والعلا ، بعكس الصعلوك المجد المثابر المدمن للغارات الذي لا يفتأ يكر ويفر على القوافل للسلب والنهب ، وإن القوم دائماً يفكرون في أمره ويتخذون كل إجراء لمنع هذا الصعلوك من الغزو .

فإذا حدث وأن سقط هذا الصعلوك صريعاً في حومة الوغى فإنه حميد السيرة رفيع الشأن عالي المكانة ، وإذا لم يلق الموت فيكفي أنه أخذ مبتغاه من الأموال والأسلاب ثم يقول :

١ ـ سيفزَعُ بعَدِ اليأسِ من لا يخافُنا   كواسعُ في أَخرى السوام المنفّرِ[1]

٢ ـ نطاعن عنها أول القوم بالقَنا   وبيضٌ خفافٌ وقعُهن مشهَّرِ[2]

٣ ـ ويوماً على غارات نجدٍ وأَهلِهِ   ويوماً بأرضٍ ذات شثٍّ وعَرْعَرِ[3]

٤ ـ يُناقِلنَّ بالشمطِ الكرامِ أُولي النهى   نقابِ الحجازِ في السريعِ المسيّرِ[4]

٥ ـ يريحُ عليَّ الليلُ أضيافَ ماجدٍ   كريمٍ ومالي سارحاً مالُ مُقتَرِ[5]

وبعد فإنه يصف في نهاية قصيدته كيف أن خيولهم تطرد الإبل وتسلبها ، ثم يتخذون السيوف في القتال مع الرماح ، ثم يبين الأماكن التي يغزوها مع رفاقه الصعاليك المغامرين الأذكياء . ثم إنه يعد هؤلاء الصعاليك مع نفسه في ذروة المجد والنضال ، بل إن هؤلاء الصعاليك الجديرون بالحياة فقط لأنهم أهل للعيش الكريم .

---

(١) كواسع : خيل ، السوام جمع السائمة وهي الدواب ، المنفر : المذعور .

(٢) بيض : سيوف ، مشهر : مشهور وفيه إقواء وهو اختلاف حركة الروي من الكسر إلى الرفع .

(٣) الشث والعرعر : نوعان من أشجار الجبال .

(٤) الشمط : جمع أشمط (وهو الذي خالط سواد شعره بياض) والمقصود هنا الفرسان المجربون الأكفاء .

(٥) يريح : يرد ، ماجد : كريم ، الفقر : المقتر .

وقد كان عروة بن الورد إماماً في شعر الفروسية والبسالة حتى إن الحطيئة قال فيه عندما سأله عمر بن الخطاب رضي الله عنه كيف كنتم في حربكم ؟ قال كنا ألف حازم قال وكيف ؟ قال : كان فينا قيس بن زهير وكان حازماً ، وكنا لا نعصيه ، وكنا نقدم إقدام عنترة ، ونأتم بشعر عروة بن الورد ، وننقاد لأمر الربيع بن زياد ، فكنا كما وصفت لك فقال عمر : صدقت[1] .

وكان منهاج عروة طريقاً يسلكه الصعاليك عن رضى واختيار حيث اقتدوا به في مبادئه ، ثم يوجه خطاباً قاسياً لزوجته بعدم لومه على تطوافه بالبلاد لجمع المال لسداد حقوق الناس يقول[2] :

دعيني أُطوِّفْ في البلادِ لعلّني ... أفيد غنىً فيه لذي الحقِ محملُ[3]

أليس عظيماً أَن تَلمَّ مَلمةٌ ... وليس علينا في الحقوق معولُ

فإن نحن لم نملكْ دفاعاً بحادثٍ ... تلم به الأيام فالموتُ أجملُ

فهو يقول لزوجته دعيني أكثر الطواف في البلاد حتى أجمع المال سداداً لذوي الحاجات ، وهذا الوقت في الحياة ما دامت هناك حياة مناسبة لجمع المال فإذا لم يجمع المرء مالاً في حال سلامته فالموت خير له .

فهذه الروح عصارة فكر ثائر وقلب مضطرب وجنان شجاع ونفس جياشة متشوقة للقتال . وحب الموت من أبرز ما كان يحرص عليه هؤلاء الصعاليك الفرسان ومن أجمل هذه الأفكار الطموحة الشجاعة ما يتغنى به عروة بن الورد الفارس وعروة بن الورد الأمال وعروة المغامر[4] .

---

(١) أغاني الأغاني ٧٧ ، أدباء العرب ١/١٦٤ .
(٢) الحماسة ٢/٣٠ .
(٣) أفيد : بمعنى أستفيد ، الملمة : المصيبة والخطب .
(٤) الحماسة ٢/٣٣٨ .

١ - أَرى أمَّ حسانَ الغداةَ تلومني تخوفني الأعداءَ والنفسَ أخوفُ[1]

٢ - لعلَّ الذي خوفتنا من أمامِنا يصادفُه في أهلِهِ المتخلّفُ

٣ - إذا قلت قد جاء الغنى حالَ دونه أبو صبية يشكو المفاقَر أَعجفُ

٤ - له خُلّةٌ لا يدخلُ الحقُ دونَها كريمٌ أصابَته حوادثُ تَجْرِفُ

فعروة بأبياته هنا يحلق في عالم الإنسانية المانح المعطاء ، حيث يقول لزوجته ينبغي ألا تخوفه من الأعداء بل ينبغي أن يخاف من نفسه التي لا تحدثه بالغزو والفتك ، ذلك أن الموت يلقى المقيم والمسافر على حد سواء وربما كان في خروجه إصابة مال يعطيه لذوي العوز والعيال ولمن أصابته مصيبة فذهبت بماله .

وهكذا . . فإن الشعور هنا شعور جماعي من حيث منح المال لمستحقيه من الفقراء مهما كان طريق كسبه حلالاً أم حراماً .

ثانياً - السليك بن السلكة[2] :

السليك منسوب إلى أمه وكانت أمه سوداء واسم أبيه عمرو بن يثربي ويقال عمير وهو من بني كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم ، وهو أحد أغربة العرب وهجنائهم وصعاليكهم ، وكان له بأس ونجدة ، وكان أول الناس بالأرض وأجودهم عدواً على رجليه وكان لا تعلق به الخيل ، وقد شهد له عمرو بن معدي كرب بالفروسيةوالشجاعةحيث يقول : لو سرت بظعينة وحدي ما خفت أن أغلب عليها ما لم يلقني حراها أو عبداها فأما الحران فعامر بن الطفيل وعتيبة بن الحارث بن شهاب وأما العبدان فأسود بني عبس يعني عنترة ، والسليك بن

(١) المفاقر : الحاجات ، أعجف : هزيل ، والخلة : الحاجة ، والحق : القرابة .

(٢) الشعر والشعراء ١/٣٦٥ ، الأغاني ٥٨٩ ، السليك : تصغير سلك وهو فرخ القطا

السلكة وكلهم قد لقيت[١] . ومن أخباره ما يرويه أبو عبيدة قال[٢] : بلغني أن السليك رأته طلائع جيش لبكر بن وائل جاؤ وا يغيرون على تميم ولا يعلم بهم فقالوا إن علم السليك بنا أنذر قومه فبعثوا إليه فارسين على جوادين فلما هايجاه خرج يمحص كأنه ظبي فطارداه سحابة يومهما ، حتى إذا كان الليل أعياه ثم سقط أو قصر عن العدو فأخذاه ، فلما أصبحا وجد أثره قد عثر بأصل شجرة ونذرت قومه فانحطمت فوجدا قصرة منها قد ارتزت بالأرض فقال : ماله أخزاه الله ما أشده ؟ وهما بالرجوع ، ثم قالا : لعل هذا كان من أول الليل ثم فتر مبتغاه فإذا أثره متقاصاً (متباعداً) قد بال في الارض وخد فقالا : قاتله الله ما أشد متنه ، فانصرفا عنه وسار إلى قومه فأنذرهم فكذبوه لبعد الغاية فقال[٣] :

يُكذِّبُني العمران عمرُو بنُ جُنْدُبٍ ... وعمرو بِن سعدٍ والمكذِّب أَكذَبُ[٤]
ثَكَلْتُكُما إنْ لم أَكنْ قد رأيتُها ... كراديسَ يهديها إلى الحيّ كَوْكَبُ
كراديسُ فيها الحوفزانِ وقومُهُ ... فوارسُ همامٍ متى يدع يَرْكَبُوا

ومن أخباره أنه أغار على بني عوارة فلم يظفر منهم بفائدة[٥] ، وأرادوا مساورته فقال شيخ منهم إنه إذا عدا لم يتعلق به شيء ، فدعوه حتى يرد الماء فإذا شرب ثقل فلم يستطع العدو وظفرتم به . فأمهلوه حتى ورد الماء فشرب ثم بادروه فلما علم أنه مأخوذ قاتلهم وقصد لأدنى بيوتهم حتى ولج على امرأة منهم يقال لها فكيهة فاستجار بها فمنعته وجعلته تحت درعها واخترطت السيف ثم قامت دونه فكاثروها فكشفت خمارها عن شعرها وصاحت بأخوتها فجاؤ وها

---

(١) أغاني الأغاني ٤٤٢ .
(٢) الشعر والشعراء ١/٣٦٧ .
(٣) الشعر والشعراء ١/٣٦٧ .
(٤) الحوفزان : هو الحارث بن شريك من بني شيبان .
(٥) الأغاني ٥٩١ .

ودفعوا عنه حتى نجا فقال السليك في ذلك[1] :

لَـعَـمْـر أبيـكَ وَالأنبـاءُ تَـنمُـى ... لنعمَ الجـارُ أُختُ بنِي عَـوَارا[2]
من الحفـراتِ لم تَـفْضَـح أَبَـاهـا ... ولـم تـرفـعْ لأخـوتـهـا شـنـارا
كـأنّ مـجـامـعِ الأردافِ مـنـهـا ... نقىً درجـتْ عليـه الـريـحُ هَـارا
يعـافُ وصـالَ ذاتِ البـذِلِ قـلبي ... بنصـل السيف واستلبـوا الخِمَـارا

ومن هذا الذي مر نجد أن السليك مشهور بالعدو وهو فارس فاتك ، ولكنه لم يبلغ درجة أستاذه عروة بن الورد أو الشنفرى ، حيث كان معظم فتكه بالقوافل والنعم في الصحراء ، ولم يواجه معركة عنيفة قاسية كما فعل عروة بن الورد ، وهو لا شك شجاع بشهادة عمرو بن معدي كرب لأنه يسير على نهج حب الموت وبغض الحياة . وتتخلل أشعاره بعض القيم الرفيعة من الكرم وحفظ العهد وذكر الجميل كما فعل مع فكيهة المرأة التي أجارته وحمته من قومها .

تأبّط شرّاً[3] :

هو ثابت بن جابر وأمه أميمة وتأبّط شرّاً لقب لقب به ، أما سبب لقبه أنه أخذ ذات يوم سيفاً وخرج وسئلت أمه عنه فقالت : لا أدري تأبط شراً وخرج . وقيل بل لأنه خرج وأحضر أفاعي في جراب وألقاها في حجر أمه وعندئـذٍ قيل تأبط شراً .

وكان تأبط شـراً شاعـراً بئيساً من الصعـاليك ، حـاد البصر عـداء يلحق بالخيل والظباء ويغزو على رجليه وحده ، ويزعم تأبط شراً أنه لقي الغول ذات

(١) الأغاني ٥٩١ .
(٢) الشنار : العار ، النقى : قطعة من الرمل ، هار : انهار .
(٣) الأغاني ٦٠٥ ، الشعر والشعراء ١/٣٢٤ .

ليلة فأخذت عليه الطريق فلم يزل بها حتى قتلها وبات عليها ، فلما أصبح حملها تحت إبطه وجاء بها إلى أصحابه فقالوا لقد تأبطت شراً فقال في ذلك[1] :

أَلا مَنْ مبلغٌ فتيانَ فهمٍ	بما لا قَيْتُ عندَ رَحَى بطِانِ[2]
وإني قد لقيتُ الغولَ تِهوي	بسهبٍ كالصحيفةِ صَحْصَحانِ
فقلتُ لها كلانا نضوُ أيْنٍ	أخو سفر فخلي لي مكاني
فشدتْ شدة نحوي فأهوى	لها كفى بمصقولٍ يماني
فأضربُها بلا دهشٍ فَخَرَّتْ	صريعاً لليدينِ وللجِرَانِ
فقالت : عد . فقالت لها : رويداً	مكانك إنني ثبتُ الجِنَانِ
فلم أنفكَّ متكئاً لديها	لأنظرَ مصبحاً ماذا أتاني
إذا عينانِ في رأسٍ قبيحٍ	كرأسِ الهرِّ مشقوقِ اللسانِ
وساقا مَخْدَجٍ وشواةُ كلبٍ	وثوبٌ من عَباءٍ أو شَنانِ

فهذا مثل من أمثلة شجاعة تأبط شراً إن كان ثمة شيء اسمه الغول . وكان اسم تأبط شراً يثير الرعب عند الناس حتى إنه باع هذا اللقب مقابل حلة من ذلك .

يحكى أن تأبط شراً لقي رجلاً من ثقيف يقال له أبو وهب وكان جباناً أهوج وعليه حلة جيدة ، فقال له أبو وهب بما تغلب الناس يا ثابت وأنت كما أرى دميم ضئيل ؟ قال : باسمي إنما أقول ساعة ألقى الرجل أنا تأبط شراً فينخلع قلبه حتى أنال منه ما أردت ، فقال له : أبهذا فقط ؟ قال : نعم ، فقال : فهل لك أن

---

(1) الأغاني ٦٠٥ .
(2) صحصحان : أرض منبسطة ، والأين : التعب ، النضو : المهزول ، الجران : مقدم العنق .

تبيعني اسمك ؟ قال : نعم ، قال : فيم تبتاعه ؟ قال : بهذه الحلة . ففعلا ، ثم انصرف وقال في ذلك يخاطب زوجة الثقفي [١] :

ألا هل أتى الحسناءَ أَن حلِيلها   تأبّطَ شراً واكتنيتُ أَبا وهبِ
فَهْبهُ تَسَّمى اسمي وسمّاني اسمَهُ   فأين لَهُ صَبري على مُعْظمِ الخَطْبِ
وأين له بأسٌ كبأسي وثورتي   وأين له في كلِّ فادحةٍ قلبي

ولا شك أن الاسم لا يغير من طبيعة الإنسان إذا لم يكن المرء مفطوراً على الشجاعة والبأس . وهذا الصعلوك له من وقائعه فقط ما يؤيد شجاعته بصرف النظر عن اسمه وكان تأبط شراً يصف غزواته وفتكه بعد الانتهاء من ذلك يقول بعد غزوة وفتك[٢] :

أَلا عَجِبَ الفتيانُ من أمِّ مالكٍ   تقولُ أراكَ اليومَ أشعثَ أغبرا
تَبُوعاً لآثارِ السريةِ بعدمَا   رأيتُك براقِ المفارقِ أيسرا
فَقُلْتُ لها يومَانِ يومُ إقامةٍ   أهزُّ به غُصْناً من البانِ أَخضَرا
ويومٌ أَهزُّ السيفَ في جيدِ أَغيدٍ   له نسوةٌ لم تلق مثليَّ أَنكرا
دنوتُ له حَتى كأَنَّ قَمِيصَه   تشرَّبَ من نضح الأخادعِ عُصْفُرا[٣]

فأيام هذا الصعلوك مقسومة بين قتال مع الأعداء للغزو والفتك ويوم إقامة مع النساء . على أننا نلاحظ هنا أن الفخر خاص بالصعلوك نفسه ، لم يتحدث فيه عن قبيلته ولم يستخدم أسلوب الجمع وهذا من آثار المبادىء الصعلوكية التي انعتقت من ربقة العصبية القبلية .

فالإنفاق إما على الصعلوك نفسه أو على المحتاجين يقول تأبط شراً [٤] :

---

(١) أغاني الأغاني ٦٠٦ .   (٢) أغاني الأغاني ٦٠٧ .
(٣) الأخادع : جمع أخدع ، وهو عرق في العنق ، العصفر : صبغ أصفر .
(٤) تاريخ الأدب العربي ١/١٠٩ .

حمّالُ ألويةٍ شهّادُ أنديةٍ   قوّالُ محكمةٍ جوّابُ أفاقِ
سدْدْ خلالك من مالٍ تجمِّعُه   حتى تلاقي الذي كلُ امرءٍ لاقي
لتقرعنَّ عليَّ السِّنَّ من ندمٍ   إذا تذكرت يوماً بعض أخلاقي

على أن هذا الصعلوك لم ينس أصدقاءه الصعاليك بل حباهم بثنائه ومديحه بشجاعته في حروب الأعداء أثناء غزوهم . يقول[1] مشيداً بابن عم له صعلوك اسمه شمس :

وإني لَمُهْدٍ من ثنائي فقاصدُ   به لابن عمِّ الصدقِ شمس بنِ مالكِ[2]
أُهزُّ به في ندوة الحيّ عِطْفَهِ   كما هزّ عَطِفِي بالهجانِ الأوارك
قليلُ التَشكي للمهمِ يُصيبُه   كثيرُ الهوى شتى النوى والمسالِكِ
إذا هزه في عظمِ قرَنٍ تهللت   نواجذُ أفواه المنايا الضواحكِ
يرى الوحشة الأنس الأنيس ويهتدي   بِحيثُ اهتدت أُمُّ النجوُمِ الشوابِك

فهو يصف هذا الصعلوك بالبأس والشدة وأنه يقضي على عدوه ولا تأخذه رهبة في القتال ويستخدم السيف في تحقيق غرضه .

رابعاً ـ الشنفرى[3] :

هناك خلاف في نسب الشنفرى فقد قالوا إنه من بني الأواس بن الحجر ابن الهنء من الأزد، وقد أسرته بنو شبابه بن فهم . وقيل إنه من بني سلامان وقد

---

(١) الأدب العربي ١/١٠٨ .

(٢) المنايا : جمع منية الموت ، الوحشة : ضد الأنس .

(٣) تاريخ الأدب العربي ١/١٠٢ ـ الشعراء الستة الجاهليين ٢٢٢ ، حماسة أبي تمام ١/١٨٧ ، أغاني الأغاني ٢١/٦٠٨ .

بقي في بني فهم إلى أن أسرت بنو سلامان رجلاً من بني شبابة ففدته بنو شبابه بالشنفرى ، فكان الشنفرى في بني سلامان لا يحسب نفسه إلا أحدهم حتى نازعته بنت الرجل الذي كان في حجره ، وكان هذا الرجل قد اتخذه ابناً فقد قال لابنته ذات يوم : اغسلي رأسي يا أخية . فأنكرت أن يكون أخاها ولطمت وجهه ، وقيل بل إنه كان يرعى إبلهم مع هذه البنت وأراد أن يقبلها فلطمته ، فذهب مغاضباً حتى قدم الرجل الذي اشتراه وكان غائباً ، فقال له الشنفرى : ممن أنا ؟ قال من الأواس بن الحجر . فقال : أما إني لا أدعكم حتى أقتل منكم مئة رجل . فقام يقتلهم حتى قتل تسعة وتسعين رجلاً ، وتضيف الرواية أن رجلاً ضرب الشنفرى بعد موته فعقرت قدمه فمات منها وكمل العدد مائة رجل ، على أن الشنفرى مشهور بالمبالغة في القتل والفتك(١) .

حيث كان يتفنن في قتل بني سلامان ، وله أشعار في الصعلكة يدعو فيها إلى الثورة على الظلم ، كما أن له لامية مشهورة تسمى باللامية وهي تحكي سيرته ومبادئه وأهدافه في الحياة وهي مبدوءة بقوله

اقيموا بَني أُمي صُدورَ مطيِّكُمْ   فإني إلى قوم ٍ سِوَاكُم لأَميلُ(٢)

وقد سار الشنفرى في حياته على نهج الصعاليك في الغزو والفتك ولكنه تفوق عليهم بكثرة من قتل من الأبرياء ، وكان يتوقع النتيجة السيئة لنفسه وفعلاً وقع في يد أعدائه من بني سلامان وعذبوه وقتلوه شر قتله . وقد كان الشنفرى يطلب من الذين يقبضون عليه أن يرموه للضبع بعد قتله وألا يدفنوه كباقي الموتى . فيقول في ذلك(٣) :

---

(١) للمؤلف كتاب عن الشنفرى فيه دراسة وافية عن حياته وشعره .
(٢) الطرائف الأدبية ٣٤ ، تاريخ الأدب العربي ١/١٠٢ ، الأغاني ٦٠٨ وغيرها .
(٣) حماسة أبي تمام ١/١٨٨ . تاريخ الأدب العربي ١/١٠٣ والأغاني ٦٠٨ .

لا تَقْبِرُوني إنّ قَبْرِي مُحَرَّمٌ عليكم ولَكن أَبْشِري أمَّ عَامِرِ[1]
إذا احتملوا رأسي وفي الرأسِ أكثري وَغُودر عندَ الملتقى ثَمَّ سائِري
هنالك لا أَرجو حياةً تَسُرّني سجيسُ الليالي مبسلاً بالجرائرِ

والمعنى أنه يقول لا تضعوني في قبر بعد وفاتي ، ولكنه يبشر الضبع بأكله شهية من جسده ، ثم يقول للضبع أبشري يا أم عامر إذا احتملوا رأسي وتركوا باقي جسدي في الميدان ، وبعد هذا لا يكون هناك حياة سارة ويكون الأعداء قد أخذوا بغيتهم بقتلي والشماتة بي .

ومن هذا نرى أن روح المغامرة التي كان يبثها عروة بن الورد في الصعاليك نجد أثراً لها في شعر الشنفرى الذي تستوي عنده حياة الذل بالموت بل إنه يفضل أن يموت في المعركة على أن يكون ذليلاً في هذه الحياة ، ومن مظاهر هذا الرفض للذل أن لا يقبل فضل المتفضلين وزاد المتصدقين ، يقول في لا ميته[2] .

وأَستفُّ تُرَب الأرضِ كي لا يَرى لـه عليَّ من الطَّوْل امروٌ مُتطَوِّلُ

على أن هذا المبدأ كان عاماً لدى جميع الصعاليك إذ لا يقبلون أن يكون طعامهم إلا من كسب أيديهم ومن الأسلاب والغنائم التي يأخذونها من أعدائهم . وقد كان للشنفرى أشعار جميلة تحث على الرفعة والإباء وترفض الظلم والخنوع وهذا ورد في لا ميته ، كما أن له قصيدة في وصف أخلاقية المرأة العربية وتسمى بالتائية وصف المرأة العربية الجاهلية من حيث شرفها وحصانتها ورفعة شأنها وحرصها على زوجها وابتعادها عن مواطن السوء والعيب .

---

(١) أم عامر : كنية الضبع ، وفي الرأس أكثري : لأن في الرأس الدماغ ، سجيس الليالي : امتداده والحبس المسلم ، والجرائر : الجرائم .
(٢) تاريخ الأدب العربي ١/١٠٣ .

وأذكر الآن بعض النماذج من لا ميته : يقول[1] .

١ ـ أَقيمـوا بَني أُمي صُدورَ مَـطِيِّكم فـإني إلى قـومٍ سِـوَاكم لأميَـلُ[2]
٢ ـ فقد حُمَّتْ الحاجاتُ والليلُ مقمرٌ وشُـدَّتْ لِطَيّـاتي مـطَايـا وأرحـلُ
٣ ـ وفي الأرض منأى للكريم عن الأذى وفيهـا لمـن خَـاف القِـلى مُـتعـزَّلُ
٤ ـ ولي دونكم أهلون سيـدٌ عملس وأرقطُ زهـلولٌ وعـرفـاءُ جَـيـأَلُ
٥ ـ وليلهُ قَـرٍّ يصـطلي القـوسَ ربهـا وأنـبـله الـلائـي بـهـا يَـتـنـبَّـلُ

فهو هنا ينبه جماعته بضرورة التأهب للرحيل والعيش مع حيوان البر الذي هو خير من البشر الذين يأتي منهم النفاق والكذب والخداع أما أولئك فإنهم رفـاق أوفياء بعيدون عن مواطن الشك .

وإذا كان الصعاليك يعتمدون في طعـامهم على ما تتنـاوله أيـديهم غصباً ونهباً من الآخرين فإنهم أنفوا أن يقبلوا صدقة المتصدقين أو فضل المتفضلين بل إنهم يؤثرون أن يستفوا تـراب الأرض على أن يقبلوا من أحد فضـلاً من إنسان إحساناً يقول في لاميته[3] :

وإنْ مُدَّتْ الأيدي إلى الـزاد لم أَكُنْ بأعجلِهم إذا أجشعُ القـوم أَعجَلُ[4]

---

(١) الطرائف الأدبية ٣٤ ، تاريخ الأدب العربي ١/١٠٢ ، أشعار الستة الجاهليين ٢٢٢ ، أغاني الأغاني ٦٠٨ .

(٢) أقيموا : تأهبوا للسفر ، وحمت : قـدرت ، الطيـات : النيات ، القلى : الكـراهية ، سيد : ذئب ، عملس : القوي على السيـر ، أرقط : من كان في جلده قـطع ملونة ، الزهلول : الأملس ، عرفـاء : ضبع أو وحش ضـار ، جيأل : الضبـع : القر : البـرد الشديد .

(٣) الشعراء الستة الجاهليين ٢٢٣ ، تاريخ الأدب العربي ١/١٠٤ .

(٤) الجشع : النهم ، التفضل : الـزيادة في الإحسـان ، الطول : التفضـل ، أي التبجح بالإحسان ، الذام : العيب .

وما ذاك إلا بسطةٌ عن تفضُّلٍ | عليهم وكان الأفضلَ المتفضِّلُ
أُديمُ مطالَ الجوعِ حتى أُميتَهُ | وأَضربُ عنه الذكرَ صفحاً فأذهلُ
وأستفُّ تُرْبَ الأرضِ كي لا يَرى له | عليَّ من الطولِ امرؤٌ متطوِّلُ
ولولا اجتنابُ الذّام لم يبقَ مشَربٌ | يعاشُ به إلا لديَّ ومأكلُ
ولكنَّ نفساً حرَّةً لا تَقيمُ بي | على الذلِّ إلا ريثَما أتحوَّلُ

فهنا إباء لا نجده عند شاعر من شعراء العربية ، حيث يؤثر هذا الصعلوك حياة القسوة والشظف على أن يأخذ إحساناً من المحسنين أو فضلاً من ذوي الغنى ، ولولا العيب لكان عنده كل أنواع الطعوم والشراب . ولا شك أن هذه الامية التي أبدعتها قريحة الشنفرى الصعلوك تعبير مستقيم لحياة كان يحياها أولئك الصعاليك بمبادئهم وأفكارهم المتطرفة إجراماً في السلب والنهب تارة وقبول القليل من العيش تارة أخرى .

وللشنفرى تائية فرج فيها وصفاً للمرأة العربية الأصيلة ثم بين حرص النساء الصعلوكات كذلك على الاقتداء بأزواجهن الصعاليك من حيث الإيثار والبذل والعطاء[1] :

أرى أُم عمرو أجمعتْ فاستقلّتِ | وما ودَّعتْ جيرانَها إذ تَولّتِ[2]
أميمةُ لا يخزي نثاها حليلَها | إذا ذُكِرَ النسوانُ عَفَّت وجلّتِ

---

(١) المفضليات ص ١٠٩ طبعة ١٩٥٢ م تحقيق شاكر وهارون ، تاريخ الأدب العربي ١/١٠٥ ، أغاني الأغاني ٦٠٨ .

(٢) أجمعت : عزمت ، استقلت : ركبت ورحلت ، النثا : الحديث ، عفت : ارتفعت ، القناع : الغطاء ـ النسي : الشيء المفقود ، تقصه : تبحث عنه ،والأم : القصد ، تبلت : توجز في الكلام ، غبوقها : طعام العشي بعكس ، الصبوح : طعام الصباح. وقد كان قوامها نحيلاً ، جلّت : عظمت ، اسبكرت : طالت ، أكملت : كان خلقها كاملاً .

لقد أعجبتني لا سقوطاً قناعُها إذا ما مَشْت ولا بذاتِ تلفّتِ

تبيتُ بُعيدَ النومِ تُهدي غبوقَها لجارتِها إذا الهديةُ قَلّتِ

تحلُّ بمنجاةٍ من اللومِ بيتَها إذا ما بيوتٌ بالمذمّةِ حلّتِ

إذا هو أمسى آب قرةَ عينِه مآب السعيد لم يَسل أين ظَلّتِ

فَدقّتْ وجلّت واسبكرتْ وأكملِتْ فلو جُنَّ إنسانٌ من الحُسنِ جُنَّتِ

فقد وصف الشنفرى هنا بصدق زوجته الصعلوكة بأوصاف هي من مبادىء الصعلوك قريبة ومن أسلوبهم متشابهة ، حيث تترفع هذه المرأة عن كل ما يؤذي زوجها بالكلام غير المناسب . وإذا ذكر الحديث الطيب كانت في الذروة العليا ، وهي محتشمة بملابسها التي تحافظ فيها على حين سمعتها وعلى جميل كرامتها ، وإذا جاء وقت المساء فإنها تؤثر جارتها الفقيرة بزادها ، وهي بعيدة عن كل ما يدنس عرضها وشرفها ، أما إذا سارت فإنها تسير بكل أدب جم ، وإذا فرض عليها الكلام فإنها تتكلم بإيجاز مخافة الوقوع في الريبة والظن السيء ، أما اذا رجع زوجها بعد عناء وتعب وشدة فإنه يلقى القلب الحنون والصدر الذي يعبق بالود والرحمة وغاية السعادة في هذا البيت الذي هو سكن للروح قبل أن يكون سكناً للجسم .

وهكذا استعرضنا بعض فرسان الصعاليك وأخذنا شيئاً من أشعارهم ، ورأينا أن هؤلاء كانوا يشكلون فيما بينهم عصبة قوية لها مبادؤ ها التي يسيرون على خطاها وتختلف في غايتها عن أهداف الفرسان الآخرين من حيث الغزو وتوزيع الغنائم والتغني بالجانب الشخصي والانعتاق من العصبية القبلية والمبالغة في القتل والرغبة الدائمة في الغزو .

الفصـــل الثـالث

فرسان العرب في صدر الإسلام

يشتمل هذا الفصل على :

١ ـ أبرز فرسان العرب في عصر الرسول ﷺ .
٢ ـ أبرز المعارك التي شارك فيها هؤلاء الفرسان .
٣ ـ نماذج مختارة من أشعارهم في المعارك .



فرسان العرب في صدر الإسلام

تناولت في الفصل السابق أبرز فرسان العرب في العصر الجاهلي الذين كانت لهم شجاعة وإقدام ، وكان لهم أيام مشهورة فيما بينهم وبين أعدائهم وبينت أن أغلب هؤلاء الفرسان كانوا شعراء تحدثوا في أشعارهم عن انتصارهم وهزيمتهم .

ثم تناولت هؤلاء بشيء من التفصيل من حيث قيادتهم لأقوامهم وقبائلهم في الحروب الداخلية أو الحروب الخارجية ، ثم عطفت على فئة من الشعراء الفرسان الذين كانوا عصبة خاصة لها تفكيرها وتقاليدها ومبادؤها وهي عصبة الفرسان الصعاليك مثل عروة بن الورد . وقد بينت أن هدف هذه المعارك التي خاضوها كانت إما دفاعاً عن محارمهم أو لاحتلال مواطن الكلأ والعشب أو للمجد الشخصي الذي كان الفارس فيه يقدم إقداماً فائقاً إثباتاً لشجاعته وقهراً لأعدائه أو اعتداء على الأقوام الآخرين للغزو والسلب والنهب .

وعلى هذا فقد يكون من الجائز أن تكون هذه الحروب خالصة لوجه الحق كأن يدافع العرب عن أوطانهم كيوم ذي قار أو يكون هذه القتال لوجه الباطل لأتفه الأمور مثل يوم داحس والغبراء ويوم البسوس وغيرها .

أما فرسان الإسلام فهم ذوو خصائص فريدة يمتازون بها وهي الإيمان بالله

وبقيم الإسلام وبعقيدة راسخة دافعوا عنها وبذلوا في سبيل ذلك كل عـزيز من مالهم وأولادهم ، وقد اتخذ هؤلاء من الإسلام مبدءاً كريماً ينافحون عنه ووقفوا بجانبه وحاربوا كل عدو متربص بقيمه . فلم يعد الفخر من أجل مجد شخصي أو عصبية قبلية أو حمية جاهلية كما ألفناها عند فرسـان الجاهليـة أمثال عنتـرة وعامر بن الطفيل ودريد بن الصمة وغيرهم .

أما فرسان الإسلام فإنهم اعتزوا اعتزازاً عظيماً بالإسـلام ديناً وبـالإسلام عقيدةً وتشريعاً وبالإسلام بطولةً وبالإسلام طهراً وبالإسلام عدلاً واستقامةً . وإذا كان ثمة فرسان يفتخر بهم الإسلام أمثال مرثـد بن أبي مرثـد والزبيـر بن العوام والمقـداد بن الأسود وعليّ بن أبي طـالب وخالـد بن الوليـد وغيرهم فقـد كـان رسول الله ﷺ أشجع الشجعان وأعظم الفـرسان ورمـز الثبات في كـل ميدان ، ويكفينا دليلاً على ما نقول ما تحدثت به كتاب الأخبـار والسير من أنـه بقي في غزوة أحد ثابتاً كالطود الشامخ لا تهزه الأعاصير حتى (لما جرح رسول الله ﷺ جعل الدم يسيـل على وجهه وهـو يمسحه ويقـول كيف يفلح قوم خضبـوا وجه نبيهم بالدم وهو يدعوهم إلى الله)[1] ، وهو سيد الفرسـان وكان لـه ﷺ عدة أفراس وهي السكب وكانت فرسه يوم أحد[2] ، حكاه ابن قتيبة ومنها المرتجـز واللزاز والضرب اللجيف والورد . وقال غير ابن قتيبـة كان للرسـول ﷺ فرس يقال له سحة وكان معظم أصحابه رضوان الله عليهم فرساناً شجعاناً وهم أبو بكر والإمام عليّ وعمر بن الخطاب وخالد بن الوليد الملقب بسيف الله المسلول .

ولكن الذي يعنينا أن نذكر شيئاً بالتفصيل عن أبرز الفرسان الذين كان لهم عناية بـالخيل والـذين أبلوا بلاءً حسنـاً باستخـدام خيولهم في معـارك الإسلام الفاضلة كغزوة بدر الكبرى . وإذا ما تناولت هؤلاء الفرسان المسلمين فإني لا أقصد أن أغض من شأن الآخرين من الفرسان بل أريد أن أبرز بعض الخصائص

---

(١) الكامل في التاريخ ٢/١٠٨ .

(٢) العمدة ٢/٢٣٤ .

لهؤلاء الفرسان ومدى ما قدمه هؤلاء لخدمة الإسلام في معاركه .

وسأتناول بعض الفرسان ثم أوجز القول بقدر في حياتهم وأبين المعارك التي اشتركوا فيها وأختار بعض النماذج من أشعارهم وأخص بالذكر في الدرجة الأولى فرسان الصحابة الكرام رضوان الله عليهم وجزاهم عن الإسلام خير الجزاء .

ونرجو المولى عز وجل أن يهدي شباب العروبة والإسلام أن يقتدوا بهؤلاء الفرسان في أيام الإسلام السالفة .

أولاً ـ الزبير بن العوام

نسبه[1] :

هو الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد القرشي ، وهو حواري رسول الله ﷺ وابن عمته صفية بنت عبد المطلب وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة وأحد الستة أصحاب الشورى . أسلم وله اثنتا عشرة سنة ، وقيل ثمان سنين ، وكان صفية تضربه فعاتبها نوفل فردت وقالت :

من قال إني أُبغضهُ فَقَدَ كَذَبْ   وإنما أضربُهُ لِكي يَلَبْ

ويهزمُ الجيشَ ويأتي بالسلَبْ   ولا يكن لمالِهِ خِبّاً يَخُبْ

يأكلُ ما في البيتِ من تمرٍ وحبْ

وهاجر الزبير الهجرتين ، وقد مدحه حسان بن ثابت فيما رواه الزبير بن بكار :

أَقامَ على عهدِ النبيِّ وهديِهِ   حواريَّهُ والقولُ بالفعلِ يَعْدلُ

فما مثلُهُ فيهم ولا كان قبلَه   وليس يكونُ الدهرَ ما دام يذبلُ

---

(١) الإصابة ١/٥٤٥ ترجمة رقم ٢٧٨٩ .

مكـانته في الإسـلام :

كـان الزبيـر فيما يـروي عـروة وابن المسيب أول رجـل سـلّ سيفـه في سبيــل الله. وقـد كــان مثـلاً أعلى في الشجــاعـة والإقــدام في الـدفــاع عن رسول الله ﷺ . من ذلك أن ابن المسيب روى أنه عندما أشيع قتل الرسول ﷺ خرج الزبير متجرداً بالسيف صلتاً .

وكـانت للزبير عمـامة صفـراء معتجراً بهـا يـوم بـدر فقـال النبي ﷺ إن الملائكة نزلت على سيماء الزبير . وكان الرسول ﷺ شديد الحب والإعجاب بالزبير من ذلك ما يرويه الطبراني من حديث عروة بن الزبير قال لي الزبير ، قال لي رسول الله ﷺ : « فداك أبي وأمي » . وقد شهد الزبير أشهر معارك الإسلام وهي غزوة بدر الكبرى وكان فيه ضربتان من يوم بدر وضربة من يوم اليرموك . وقد كان يملك فرسـاً في حرب المشركين يوم بدر مع فارسين آخـرين[1] وهما المقداد بن عمرو البهراني وكان له فرس اسمه سبحة ، ومرثد بن أبي مرثد وكان له فرس يقال له السبل ، أما اسم فرس الزبير بن العوام فكان يقال له اليعسوب .

وهناك من يروي أنه كان مع المسلمين يوم بدر فرسان ، فرس لمرثد بن أبي مرثد الغنوي يقال لـه السبل ، وفـرس للمقداد بن عمـرو البهراني يقـال له سبحة ، وقيل كان الزبير مع الفرسان وله فرس اسمه اليعسوب[2] . ويروي ابن سعـد أن خيل المسلمين كـانت فـرسين أحـدهمـا للمقـداد بن عمـرو والآخـر لمرثد بن أبي المرثد الغنوي[3] .

من هذا نرى أن الزبير كان بطلاً من أبطال الإسلام العظام وفارسـاً مؤمناً حارب في أشهر معارك الإسلام الفاصلة وهي معركة بدر الكبرى ، ثم اشترك في

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/٢٢٤ ، مغازي الواقدي ١/٢٧ ، الكامل في التاريخ ٢/٨٢ .

(٢) الكامل في التاريخ ١/٨٢ .

(٣) طبقات ابن سعد ١/١٢ .

حرب المسلمين مع الروم وطعن طعنة عظيمة في معركة اليرموك ، وقد انتدبه الرسول ﷺ في كثير من المهام الصعبة من ذلك ما يرويه جابر أنه قال ، قال لي النبي ﷺ يوم بني قريظة من يأتيني بخبر القوم فانتدب الزبير فقال النبي ﷺ : « إن لكل نبي حوارياً وحواري الزبير »[١] .

حتى إن عمر بن الخطاب كان يقول فيه الزبير ركن من أركان الدين[٢] ، وفي غزوة أحد أمّر الرسول ﷺ الزبير بن العوام على الخيل وكان معه المقداد بن الأسود[٢] .

وكان الزبير في غاية البذل والكرم والصدقة على أبناء المسلمين ويروى أنه كان له ألف مملوك يؤدون إليه الخراج ، فكان لا يدخل منها في بيته شيئاً ليتصدق به كله ، وروى الحميدي في النوادر أنه أوصى إليه عثمان[٣] والمقداد وابن مسعود وابن عوف وغيرهم أن يحفظ أموالهم وينفق على أولادهم من ماله .

مقتله :

قتل الزبير بعد انصرافه من يوم الجمل، بعد أن ذكره علي ما روى أبو علي من طريق أبي جرو المازني قال شهدت علياً والزبير توافيا يوم الجمل فقال له عليّ : أنشدك الله أسمعت رسول الله ﷺ يقول إنك تقاتل علياً وأنت ظالم له قال نعم ولم أذكر ذلك إلى الآن[٤] . فانصرف وكان قتله في جمادى الأولى سنة ست وثلاثين وله ست أو سبع وستون سنة وكان الذي قتله رجل من بني تميم يقال له عمرو بن حرموز قتله غدراً بمكان يقال له وادي السباع[٥] .

وقد اشترك الزبير بن العوام في فتح مصر حيث تحدثت بعض الروايات أن

---

(١) طبقات ابن سعد ١/١٢ ، الإصابة ١/٥٤٥ .

(٢) الكامل ٢/١٠٥ .

(٣) الإصابة ١/٥٤٦ .

(٤) نفس المصدر السابق .

(٥) الاصابة ١/٥٤٦ .

عمر بن الخطاب عندما أشفق على جيش عمرو بن العاص أرسل الزبير بن العوام في اثني عشر ألفاً ، فشهد الزبير فتح مصر وأخبره بها ، وقد أشار على عمرو بن العاص بقسمة مصر بين الفاتحين كما فعل الرسول ﷺ وذلك بخيبر ولكن عمرو بن العاص رفض ذلك[1] .

وقد رأينا كيف أن الزبير كان دعامة للإسلام في معاركه الحاسمة وكان أحد الفرسان الثلاثة في معركة بدر . ثم اشترك في فتوح الإسلام كفتح مصر وفتح الشام في معركة اليرموك . وقد روى عروة بن الزبير أنه كان في الزبير ثلاث ضربات بالسيف كنت أدخل أصابعي فيها ثنتين يوم بدر وواحدة يوم اليرموك[2] .

وروى الواقدي أن الزبير أحد الثلاثة الذين بايعوا الرسول على الجهاد[3] . وهكذا فقد أدى الزبير بن العوام واجباً عظيماً وصنيعاً جليلاً للإسلام فاتحاً ومؤمناً ومحارباً ثم كان من أبنائه عبد الله ومصعب ـ رضي الله عنهم ـ حيث كان لهم شأن عظيم فيما بعد .

ثانياً ـ مرثد بن أبي مرثد الغنوي[4] :

هو صحابي جليل واسمه كناز بن الحصب ،وأبوه صحابي كذلك . وهما ممن شهد بدراً وكان مرثد بن أبي مرثد أحد أصحاب الأفراس الثلاث في معركة بدر وأبلى فيها بلاءً حسناً . قال ابن هشام وحدثني بعض أهل العلم أنه كان مع المسلمين يوم بدر من الخيل فرس مرثد بن أبي مرثد الغنوي ، وكان يقال له

---

(١) فتوح البلدان ٢١٥ .

(٢) الإصابة ١/٥٤٥ .

(٣) شرح نهج البلاغة ٤/٤٨٤ .

(٤) الإصابة ٣/٣٩٨ ، سيرة ابن هشام ٢/٢٢٤ ، الكامل في التاريخ لابن الأثير ٢/٨٢ .

السبل ،وفرس المقداد بن عمرو البهراني وكان يقال له سبحة ، وفرس الزبير بن العوام ويقال له اليعسوب وكان مع المشركين مائة فرس .

وقد استشهد مرثد كما يروي ابن إسحاق في صفر سنة ثلاث في غزاة الرجيع . حيث كان قد أرسله رسول الله ﷺ أميراً على رأس وفد مكون من عشرة أنفار وقيل سبعة نفر إلى قبيلتي عضل والقارة وقد قتل مرثد مع بعض أصحابه غدراً حيث لم يجد مرثد وبعض أصحابه بداً من القتال . . يقول عاصم بن ثابت بن الأجلح في قتال المشركين[1] :

مـا عـلّتـي وأنـا جـلدٌ نـابـلُ النبـلُ والقـوسُ لهـا بَـلَابِـلُ[2]
تـزلُّ عـن صفـحتهـا المَعَـابِـلُ الـمـوتُ حقٌ والـحيـاةُ بَـاطِـلُ
وكـل مـا حَـمَّ الإلَـهُ نـازلُ بـالـمـرءِ والـمـرءُ إلـيـهِ آيـلُ
إنْ لمْ أقاتْلكَم فأُمي هَابِلُ

وقد أثبت مرثد أنه من الفرسان الميامين في حرب المشركين ، سواء أكان ذلك يوم بدر حيث داست فرسه جماجم أعداء الإسلام ، أو في غزوة الرجيع حيث لم يستسلم عندما غدر به وبجماعته بنو عضل والقارة ، ووضع بذلك لبنة متينة في تاريخ حرب الإسلام مع الشرك وأهله . حيث أعز الله جنده ونصر دينه وأعلى كلمته رغم أنف الشرك والمشركين .

ثالثاً ـ المقداد بن عمرو البهراني [3]

هو المقداد بن عمرو بن ثعلبة بن مالك بن ربيعة بن عامر بن مطرود البهراني وقيل الحضرمي ، وفي نسبه بعض الروايات التي أوردها ابن الكلبي

(١) سيرة ابن هشام ، غزوة الرجيع ٢/٣٥٥ .
(٢) بلابلا : شدة الهم ، القاموس المحيط ٣/٣٣٧ ، هابل : فاقد .
(٣) الإصابة ٣/٤٥٤ ، الكامل في التاريخ ٢/٨٢ ، الطبقات لابن سعد ٢/١٤ .

حيث قال كان والد المقداد عمرو قد أصاب دماً في قومه فلحق بحضرموت فحالف فكان يقال له الكندي ، وتزوج هناك امرأة فولدت له المقداد فلما كبر المقداد وقع بينه وبين أبي شمر بن حجر الكندي خلاف ، ضرب المقداد رجل أبي شمر بالسيف وهرب إلى مكة فحالف الأسود بن عبد يغوث الزهري وكتب إلى أبيه فتبنى الأسود المقداد فصار يقال له المقداد بن الأسود وغلبت عليه واشتهر بذلك ، فلما نزلت الآية الكريمة ﴿ادعوهم لآبائهم﴾[1] قيل له المقداد ابن عمرو واشتهرت شهرته بابن الأسود، وكان المقداد يكنى أبا الأسود وقيل كنيته أبو عمرو وقيل أبو سعيد ، وقد أسلم المقداد في أول بدء الإسلام وتزوج ضباعة بنت الزبير بن عبد المطلب ابنة عم النبي ﷺ .

وقد هاجر المقداد الهجرتين وشهد بدراً والمشاهد بعدها ، وكان فارساً هماماً يوم بدر ، وفي رواية أنه لم يكن يوم بدر يملك فرساً إلا المقداد وفي فضله يقول زر بن حبيشي[2] عن عبد الله بن مسعود أول من أظهر إسلامه سبعة وذكره فيهم وذكر البغوي من طريق أبي بكر بن عياش عن عاصم عن زر أول من قاتل على فرس في سبيل الله المقداد بن عمرو وقد روت بنت المقداد واسمها كريمة عن أبيها قال (شهدت بدراً على فرس لي يقال له سبحة) .

وكان المقداد طويلاً آدم كثير الشعر أعين مقروناً .

مكانتـــه :

كـان رسول الله ﷺ يؤثـر المقداد بـالحب والتقديـر فقد روى أبـو ربيعة الإيادي[3] عن عبد الله بن بريدة عن أنسه عن النبي ﷺ قال : (إن الله عز وجل أمرني بحب أربعة وأخبرني أنه يحبهم عليّ والمقداد وأبو ذر وسلمـان)[4] وقد

---

(١) سورة الأحزاب آية (٥) .

(٢) الإصابة ٣/٤٥٤ .

(٣) نفس المصدر ٣/٤٥٥ .

(٤) أخرجه الترمذي وابن ماجه وسنده حسن .

روى المقداد عن الرسول بعض الأحاديث . وقد كان المقداد ذا رأي وبصيرة في أمور جليلة ، وقد تحدثت كتب السيرة أن الرسول ﷺ عندما جاءت قريش تحارب الرسول في غزوة بدر أقبل الرسول على أصحابه وقال هذه مكة[1] قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها ، ثم استشار أصحابه . فقال أبو بكر فأحسن ، ثم قال عمر فأحسن ، ثم قام المقداد بن عمرو فقال : يا رسول الله امضِ لما أمرك الله فنحن معك ، والله لا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى : ﴿اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون﴾[2] ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون . فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد[3] يعني مدينة بالحبشة لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه . فدعا له بخير . وقد ذكرنا من قبل أن المقداد كان أحد الثلاثة الذين حاربوا في غزوة بدر الكبرى ومعه فرس وقيل بل إن عدد الفرسان فارسان فقط والمقداد أحدهما[4] ولم يكن فيهم غير فارسين أحدهما المقداد بن عمرو الكندي ولا خلاف فيه والثاني قيل كان الزبير بن العوام وقيل كان مرثد بن أبي مرثد وقيل المقداد بن عمرو وحده .

وهكذا فقد كان هذا الصحابي الفارس بطلاً من أبطال الإسلام الذين حسن إسلامهم وحسن بلاؤهم وحسن رأيهم في الذب عن حياض الإسلام وقد مر بنا أن الرسول ﷺ كان يؤثر المقداد بن الأسود لحسن إسلامه وبلائه واستقامة عقيدته . هكذا وفي غزوة أحد أمر الرسول ﷺ الزبير بن العوام ومعه المقداد ابن الأسود على الخيل[5] .

---

(١) الكامل في التاريخ ٢/٨٣ ، طبقات ابن سعد ٢/١٤ .
(٢) سورة المائدة آية (٢٤) .
(٣) برك الغماد : اسم موضع على البحر الأحمر أو مدينة في اليمن أو في الحبشة .
(٤) الكامل في التاريخ ٢/٨٢ ، طبقات ابن سعد ١٢/ ، والإصابة ٣/٤٤٥ وسيرة ابن هشام ٢/٢٢٤ .
(٥) الكامل في التاريخ . ٢/٨٣ .

رابعاً ـ خالد بن الوليد[1] :

هو أبو سليمان خالد بن الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن المخزوم القرشي (سيف الله المسلول) وأمه لبابة بنت الحارث بن حرب الهلالية وهي أخت لبابة الكبرى زوج العباس بن عبد المطلب ، وهما أختا ميمونة بنت الحارث زوج النبي ﷺ .

مكانته في الجاهلية :

كان خالد بن الوليد أحد أشراف قريش في الجاهلية ، وكان له أعنة خيل قريش في الجاهلية ، وشهد مع الكفار حروباً كثيرةً ولعل أبرزها حرب المسلمين يوم غزوة أحد ، حيث كان له الفضل في التفاف خيل قريش على المسلمين من خلف الرماة الذين نزلوا عن الجبل وتحقق النصر بفضل هذا الالتفاف من خالد .

إسلامه :

أسلم خالد بن الوليد بعد فترة مع عمرو بن العاص وقيل أسلم سنة سبع بعد فتح خيبر وقيل سنة خمس[2] ، وفي ذلك يروي ابن إسحاق قصة إسلام خالد بن الوليد بشيء من الإيضاح حيث يقول (حدثني يزيد بن أبي حبيب عن راشد مولى حبيب بن أبي أوس عن حبيب حدثني عمرو بن العاص من فيه مباشرة قال خرجت عامداً الرسول ﷺ فلقيت خالد بن الوليد ، وذلك قبل الفتح وهو مقبل من مكة فقلت أين تريد يا أبا سليمان قال أذهب والله أسلم فحتى

---

(١) الإصابة ١/٤١٣ ترجمة ٢٢٠١ ، الكامل في التاريخ ٢/١٠ ، طبقات ابن سعد ٢/٤٠ ، مغازي الواقدي ١/٢٣٢ ، أيام العرب في الإسلام ٣٥ .

(٢) سيرة ابن هشام ٢/٢٤٠ .

متى ؟[1] قلت وما جئت إلا لأسلم فقدمنا جميعاً ، فتقدم خالد للرسول ﷺ فأسلم وبايع ثم دنوت من الرسول فبايعته ثم انصرفت .

غزواتـه :

ذكرت من قبل أن خالد بن الوليد شهد مع قريش في الجاهلية عدة غزوات وكان له أعنة الخيل ، أما في الإسلام فقد كان له عدة غزوات موفقة حيث ما حارب في معركة إلا انتصر بها وعند عودته سالماً من غزوة مؤتة من تبوك بعد أن خلص الجيش من هلاك محقق أطلق عليه الرسول ﷺ (سيف الله المسلول) وعندما استشهد زيد بن حارثة في غزوة مؤتة أخذ الراية فانحاز بالناس وخطب النبي ﷺ فأعلم الناس بذلك[2] .

وقد كلف رسول الله ﷺ خالد بن الوليد بغزوة أكيدر دومة الجندل وأرسل معه أربعمائة وعشرين فارساً وقال له[3] إنك ستجده يصيد البقر فأتاه خالد فلما كان من حصنه بمنظر العين خرجت بقرة تحك بقرونها باب القصر ، فخرج أكيدر لصيدها وكانت ليلة مقمرة فتلقاه خالد في خيله وجاء به إلى رسول الله ﷺ فحقن دمه وصالحه على ألفي بعير وثمانمائة رأس وأربعمائة درع وأربعمائة رمح وأقر بإعطائه الجزية فقاضاه على دفع جزية على قصبة دومة تبوك وأيله وتيماء .

وقد شهد مع رسول الله ﷺ فتح مكة فأبلى فيها بلاء حسناً ثم شهد حنيناً وأمره الرسول بهدم العزى وكان الرسول ﷺ يشهد له بالبطولة والإقدام والشهامة .

أخرج الترمذي عن أبي هريرة قال : (نزلنا مع رسول الله ﷺ منزلاً ، فجعل الناس يمرون ، فيقول رسول الله ﷺ : من هذا ؟ فأقول : فلان ، حتى

---

(١) الإصابة ١/٤١٣ .

(٢) الرحيق المختوم ٤٨٩ .

(٣) الرحيق المختوم ٤٨٩ ، والكامل في التاريخ ٢/١٩٢ .

مرَّ خالد ، فقال : من هذا ؟ فقلت : خالد بن الوليد، فقال نعم عبد الله ، هذا سيف من سيوف الله) . رجاله ثقات[1] .

وعقب وفاة الرسول ﷺ ارتدت بعض قبائل العرب في نجد عن الإسلام فأرسله أبو بكر الصديق إلى قتال أهل الردة فأبلى في قتالهم بلاءً عظيماً وانتصر عليهم وأرجعهم إلى طاعة الإسلام . ثم ولاه أبو بكر الصديق حرب فارس والروم في عدة معارك أشهرها معركة القادسية واليرموك وافتتح مدينة دمشق . وروى يعقوب بن سفيان من طريق أبي الأسود عن عروة قال لما فرغ خالد من اليمامة أمره أبو بكر بالمسير إلى الشام فسلك طريق عين التمر فسبى ابنة الجوديّ من دومة الجندل ومضى إلى الشام فهزم عدو الله .

وقد استخلفه أبو بكر على الشام إلى أن عزله عمر ، وفي عزل عمر رواية رواها البخاري في تاريخه[2] من طريق ناشرة قال خطب عمر واعتذر عن عزل خالد فقال أبو عمرو بن حفص بن المغيرة : عزلت عاملاً استعمله رسول الله ﷺ ، ووضعت لما رفعه رسول الله ﷺ .

فقال : إنك قريب القرابة حديث السن مغضب لابن عمك .

وقال ابن أبي الدنيا حدثني أبي حدثنا عباد بن العوام عن سفيان بن حسين عن قتادة قال : « أرسل النبي ﷺ خالد بن الوليد إلى العزى فهدمها » . وقال أبو زرعة الدمشقي ويروى أن أبا بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ عقد لخالد بن الوليد على قتال أهل الردة فقال : « إني سمعت رسول الله ﷺ يقول (نعم عبد الله وأخو العشيرة خالد بن الوليد سيف من سيوف الله سله الله على الكفار) » وقد أكد هذه الرواية أبو عبيدة عامر بن الجراح فقال سمعت رسول الله ﷺ يقول خالد سيف من سيوف الله نعم فتى العشيرة .

---

(١) الإصابة ١/٤١٣ .

(٢) المرجع السابق ١/٤١٤ .

ويروى كذلك أن الرسول ﷺ كان يـأمر أصحـابه بعـدم إيذاء خـالد بن الوليد فقال (لا تؤذوا خالداً فإنه سيف من سيوف الله صبه الله على الكفار) . وما خاض خالد معركة من معارك الإسلام الفاصلة إلا كان النصر حليفه ، وقد بين خالد سبب ذلك في الرواية الآتية[1] قال سعيد بن منصور حدثنا هيثم حدثنا عبد الحميد بن جعفر عن أبيه أن خالد بن الوليد فقد قلنسوته يوم اليرموك فقال اطلبوها فلم يجدوها فلم يزل حتى وجدوها فإذا هي خلقة ، فسئل عن ذلك فقال اعتمر النبي ﷺ فحلق رأسه فابتدر الناس شعره فسبقتهم إلى ناصيته فجعلتها في هذه القلنسوة فلم أشهد قتالاً إلا وهي معي حتى تبين لي النصر .

شجاعتـــه :

كان خالد على ما مرّ بنا سيفاً بتاراً من سيوف الله ، فقد روى أبو هريرة في قصة عن صدقته فقال النبي ﷺ (إن خـالداً احتبس أدراعـه وأعتاده في سبيـل الله)[2] وعن شجاعته يروي البخاري عن قيس بن أبي حازم عن خالد بن الوليد قال : « لقد اندق في يدي يوم مؤتة تسعة أسياف فما صبرت معي إلا صفيحـة يمانية »[3] حتى إنه عند موته قال (ما كان في الارض من ليلة أحب إلى من ليلة شديدة الجليد في سرية من المهاجرين أصبح بهم العدو فعليكم بالجهاد) .

عزلـــه :

أما عن أسباب عزل خالد عن قيادة الجيوش الإسلاميـة فقد ذكـر السبب الزبير بن بكار قال كان خالد إذا صار إليه المال قسمه في أهل الغنائم ولم يرفع لأبي بكر حساباً ، وكان فيه تقدم على أبي بكر يفعل أشياء لا يقرها أبو بكر من ذلك أنه أقدم على قتل مالك بن نويرة ونكح امرأته ، فكره ذلك أبو بكر وعرض

---

(١) الإصابة ١/٤١٤ .
(٢) الإصابة ١/٤١٤ .
(٣) نفس المصدر .

الدية على متمم بن نويرة أخي مالك ثم أمر أبو بكر خالداً بطلاق امرأة مالك ولم ير أن يعزله لبلائه وحسن جهاده .

أما عمر فإنه كان ينكر أمثال هذه التصرفات من خالد ولكن أبا بكر كان يقدر ويحترم خالداً إلى أبعد حدود التقدير إذ أنه كان أميراً موفقاً . وقد أرسله أبو بكر إلى طليحة فهزم طليحة ومن معه ثم مضى إلى مسيلمة الكذاب فحاربه وقتله . وقد أشار عمر على أبي بكر بأن يكتب إلى خالد بألا يعطي شيئاً إلا بأمر أبي بكر فكتب إليه بذلك ، فأجابه خالد إجابة فيها شيء من اللبس ، فقال إما أن تدعني وعملي[1] وإلا فشأنك بعملك . فأشار عليه عمر بعزله فقال أبو بكر فمن يجزي عني جزاء خالد ، قال عمر أنا وتجهز عمر فمشى أصحاب النبي ﷺ إلى أبي بكر فقالوا ما شأن عمر يخرج وأنت محتاج إليه ؟ ومالك عزلت خالداً وقد كفاك ؟ قال : فما أصنع ؟ قالوا تعزم على عمر فيقيم ، وتكتب إلى خالد فيقيم على عمله ، ففعل ، فلما قبل عمر كتب إلى خالد أن لا تعطي شاة ولا بعيراً إلا بأمري ، فكتب إليه خالد بمثل ما كتب إلى أبي بكر فقال عمر ، ما صدقت الله إن كنت أشرت على أبي بكر فلم أنفذه ، فعزله ، ثم كان يدعوه إلى أن يعمل فيأبى ، إلا أن يخليه يفعل ما يشاء ، فيأبى عمر .

وعلى هذا فقد كان سبب العزل أن عمر كان يريد من خالد الالتزام بأمر الخليفة ولكن خالد بن الوليد كان له رأي في توزيع الغنائم حتى صرح بذلك عمر فيما يذكره الزبير بن العوام قال : لما حضرت خالداً الوفاة أوصى إلى عمر فتولى عمر وصيته وسمع راجزاً يذكر خالداً فقال رحم الله خالداً فقال طليحة بن عبد الله :

لا أعرفنَّك بعدَ الموت تندبُني وفي حياتيَ ما زودتني زَادِي

ثم قال عمر[2] : (إني ما عتبت على خالد إلا في تقدمه وما كان يصنع

---

(١) الإصابة ١/٤١٤ .

(٢) نفس المرجع ١/٤١٥ .

في المال) . ومن هذا فقد كان عـزل خالـد رأياً شخصيـاً من عمر ـ رضي الله عنه ـ وفي أمور المال والغنائم ونحن لا نتدخل بآرائنا في الخلاف بين الصحابة ـ رضوان الله عليهم جميعاً ـ فلو أن أحدنا أنفق مثـل جبل أحـد ما وصـل إلى ما وصل إليه هؤلاء الصحابة الكـرام في الذب عن الإسـلام وتثبيت أركانـه ودعم بنيانه .

وفاتــه[1] :

توفي خالد في مدينة حمص سنة إحدى وعشرين للهجرة وقيل بـل توفي في المدينة المنورة ، ويروى عنه رضي الله عنه أنه لما حضرته الوفاة قال (لقد طلبت القتل مظانّه فلم يقدر لي إلا أن أموت على فراشي ، وما من عملي شيء أرجى عندي بعد أن لا إله إلا الله من ليلة بتها وأنا متترس والسماء تهلني تمطر إلى صبح حتى نغير على الكفار ، ثم قال إذا أنا متّ فانظروا في سلاحي وفرسي فاجعلوه عدة في سبيل الله . فلما توفي خرج عمر إلـى جنازته فقال : مـا على نساء آل الوليد أن يسفحن على خالد دموعهن ما لم يكن نقباً أو لقلقـةً ، وهذا يدل على أنه توفي في المدينة ولكن أكثر الروايات تدل على أنه توفي في حمص رحمه الله ورضي عنه وأرضاه وجزاه الله عن الإسلام خيراً .

خامساً ـ سعد بن أبي وقاص[2] :

نسبــه :

هـو سعد بن مـالك بن أهيب ويقـال بن عبد منـاف بن زهرة بن كـلاب القرشي الزهري بن أبي وقاص ، أحد العشرة المبشـرين بالجنـة وآخرهم مـوتاً وأمه حمنة بنت سفيان بن أمية بنت عم أبي سفيان بن حرب بن أمية . روى كثيراً

---

(١) الإصابة ١/٤١٥ ، الكامل ٢/١٠ ، طبقات ابن سعد ٢/٤٠ ، المغازي ٢/٢٣٢ .

(٢) الإصابة ٢/٣٣ ، ترجمة ٣١٩٤ ، فتوح البلدان ٢٥٥ ، الكامل في التاريخ ٢/٣٠٩ .

من أحاديث الرسول ﷺ ، وكان له أبناء كرام رووا كذلك الأحاديث وهم إبراهيم وعامر ومصعب وعمر ومحمد وعائشة .

شجاعته ومكانته في الفتوح :

كان سعد بن أبي وقاص فارساً وشجاعاً وهبه الله الحنكة الفذة في خوض المعارك وفي الرمي وقد تمثل هذا في قيادته لمعارك الإسلام الفاصلة في فتوح العراق وفارس بالأيام المشهورة في القادسية وهي يوم أرماث ويوم أغواث ويوم عمواس ويوم القادسية[1] ، حيث أبدى كل مهارة وفداء في قتال هؤلاء الفرس وتغلب عليهم . وهو أول من رمى بسهم في سبيل الله وقد ذكر ابن إسحاق في المغازي من حديث سعد بن أبي وقاص أنه رمى يوم أحد دون رسول الله ﷺ قال سعد[2] : (ولقد رأيت رسول الله ﷺ يناديني ويناولني السهم ويقول : (ارم فداك أبي وأمي) حتى إنه ليناولني السهم ماله نصل فأرمي به . وهو أحد الستة الذين جعل عمر بن الخطاب الشورى فيهم في انتخاب خليفة يخلفه بعد أن طعنه أبو لؤلؤة المجوسي . وقال عمر في ذلك : إن أصابته الإمرة فذاك ، وإلا فليستعن[3] به الوالي . وكان رأس من فتح العراق بعد أن تم إجماع أصحاب رسول الله ﷺ على أن يختاروه لهذه الغزوة النائية . وقد جمع عمر بن الخطاب الناس وقال لهم : إني كنت عزمت على المسير حتى صدني ذوو الرأي منكم ، وقد رأيت أن أقيم وأبعث منكم رجلاً ، فأشيروا علي برجل ، وكان سعد بن أبي وقاص على صدقات هوازن ، فكتب إليه عمر بانتخاب ذوي الرأي والنجدة والسلاح ، فجاءه كتاب سعد وعمر يستشير الناس فيمن يبعثه يقول : قد انتخبت لك ألف فارس كلهم له نجدة ورأي وصاحب حيطة يحوط حريم قومه ويمنع ذمارهم وإليهم انتهت أحسابهم ورأيهم . فلما وصل كتابه

---

(١) الكامل في التاريخ ٢/٣٢٤ .

(٢) الفروسية لابن القيم ص ١٥ .

(٣) الإصابة ٣/٢٣ ، الكامل في التاريخ ٢/٣١٠ ، فتوح البلدان ص ٢٥٥ .

وافق مشورتهم ، قالوا لعمر قد وجدته قال من هو قالـوا الأسد عـادياً سعـد بن مالك فانتهى إلى قوله وأحضره وأمره على حرب العراق ووصاه وقال : لا يغرنك من الله أن قيل خال رسول الله ﷺ وصاحب رسول الله ﷺ ، فإن الله لا يمحـو السيء بالسيء ولكن يمحو السيء بالحسن ، وليس بين الله وبين أحد نسب إلا طاعته ، فالناس شريفهم ووضيعهم في ذات الله سواء . الله ربهم وهم عباده . وقد وصاه بالصبر وسرحه فيمن اجتمع إليه من نفـر المسلمين وهم أربعة آلاف فيهم حميضـة بن النعمان بن حميضـة على بارق وعمرو بن معدي كـرب وأبـو صبرة بن ذؤ يب على مذحج ويزيد بن الحارث الصدائي على صداء . وحبيب ومسيلمة وبشر بن عبد الله الهلالي في قيس عيلان .

وخـرج إليه عمـر بفتية من السكـون مـع حصين بن نميـر ومعـاويـة بن خديج ، وبعد خروج سعد بهؤلاء المقاتلين أمد عمر بن الخطاب سعداً بألفي يمـاني وألفي نجدي ، وكـان المثنى بن حارثـة في ثمانيـة آلاف . وسـار سعـد والمثنى ينتظر قدومه فمات المثنى قبل قدوم سعد من جراحة انتفضت عليه إثر معركة مع أعداء الإسلام . وكان مـع سعد تسعـة وتسعون بـدرياً ، وثـلاثمائـة وبضعة عشر ممن كانت لهم صحبة فيما بين بيعة الرضوان إلى ما فوق ذلك ، وسبعمائة من أبناء الصحابة . وقد تزوج سعد سلمى زوجة المثنى وكان جميع من شهد القادسية بضعة وثلاثين ألفاً . وقد أقام سعد بالقادسية مدة شهرين حتى نصره الله نصراً مؤ زراً .

سعد مجاب الدعوة :

كان سعد بن أبي وقاص مجاب الدعوة ، ومن الأحاديث التي تروى في ذلك ما حدث في معركة يوم أرماث حيث كان في سعد دماميل وعرق النسا فلا يستطيع الجلوس وإنما هو مكب على وجهه وفي صدره وسادة على سطح القصر يشرف على الناس والصف في أصل حائطه لو تعداه الصف فواق ناقة لأخذ برمته

فما زادته هول تلك الأيام إلا شجاعة . وذكر ذلك الناس وعابه بعضهم بذلك فقال[1] :

نُقاتلُ حتىَ أَنزلَ اللّهُ نصرَه ... وسعدٌ ببابِ القادسيةِ مُعْصِمُ
فأبنا وقد آمتْ نساءٌ كثيرةٌ ... ونسوةُ سَعدٍ لَيس فيهن أَيِّمُ

فبلغت أبياته سعداً فقال : اللهم إن كان هذا كاذباً وقال الذي قاله رياء وسمعة فاقطع عني لسانه : فإنه واقف في الصف يومئذ أتاه سهم غرب فأصاب لسانه فما تكلم بكلمة حتى لحق بالله تعالى . ولم يكتف سعد بهذا الدعاء فيه إلى الله تعالى حتى يبرئه مما اتهم به بل أنه نزل ساحة الميدان فكشف ما به للناس وأراهم ما به من القروح في فخذيه وإليتيه فعذره الناس وعلموا حاله ، ولما عجز عن الركوب استخلف خالد بن عرفطة ثم خطب الناس وحثهم على الجهاد ، وكان فيهم صناديد من فرسان العرب منهم أبو محجن الثقفي والمغيرة وحذيفة وعاصم وطليحة وقيس وعمرو بن معدي كرب ، ومن الشعراء الشماخ والحطيئة وأوس بن فعراء وعبدة بن الطبيب ، وأمرهم بتحريض الناس على الجهاد ، وأمر سعد الناس بقراءة سورة الأنفال (الجهاد) فلما قرئت هشت قلوب الناس وعيونهم وعرفوا السكينة مع قراءتها ، فلما فرغ الشعراء منها قال سعد : الزموا مواقعكم ثم اشتد الضراب والطعان بين المسلمين والفرس حتى أنزل الله نصره وفي ذلك يقول غالب بن عبد الله الأسدي[2] :

قد علمتْ واردةُ المسائحِ ... ذاتُ اللسانِ والبيانِ الواضحِ
أني سِمامُ البطلِ المسالحِ ... وفارِسُ الأَمرِ المهمِ الفَادحِ

فخرج إلى هذا الشاعر هرمز وكان من ملوك الباب فأسره غالب وجاء به إلى سعد ورجع وخرج عاصم وهو يقول[3] :

---

(١) الكامل في التاريخ ٢/٢٢٤ .
(٢) الكامل ٢/٣٢٥ .
(٣) نفس المصدر ٢/٣٢٦ .

قــد علمتْ بيضــاءُ صفــراءُ اللبــب　　مثــلَ اللجـينِ إذ تـغشــاه الــذهـبْ
أنـي امــرؤ لا من يـعنيــه السـببْ　　مثلي عـلى مثـلك يغـريــه الـعتـبْ

فطارد فارسياً فاتبعه عاصم حتى خالط صفهم فحموه فأخذ عـاصم رجلاً على بغل وإذ هو خباز الملك معه من طعـام الملك وخبيصة ، فـأتى به سعـداً فنقله أهل موقعه . وخرج فارسي وطلب البراز فخرج إليه عمرو بن معدي كرب فأخذه وجلد به الارض فذبحه وأخذ سـواريه ومنـطقته ، وحملت الفيلة عليهم ففرقت بين الكتائب فنفرت الخيل ، وخرج إلى طليحة عظيم من الفرس فقتله طليحة ، وقام الأشعث بن قيس الكنـدي وحث بني كندة على القتـال ثم شدوا شدة صحيحة على الفرس ، ونادى سعد عاصم بن عمرو بن التميمي فقال له : يا معشر تميم ألستم أصحاب الإبل والخيل ؟ أما عندكم لهذه الفيلة من حيلة ؟ قالوا نعم ، ثم نادى عاصم رماة قومه فقال يا معشر الرماة ذبوا ركبان الفيلة عنهم بـالنبل ، ثم قـال يا معشـر أهل الثقـافةاستـدبروا الفيلة فقـطعوا وضنهـا، وأقبل أصحاب عاصم على الفيلة فأخذوا بأذناب توابيتها فقطعوا وضنها وارتفع عواؤ هم فما بقي لهم فيل إلا أوى وقتل أصحابها ونفسوا عن بعض أركان الجيش وردوا فارساً . وكان عاصم حامية الناس وهذا هو اليوم الأول هـو يوم أرمـاث ، وفي ذلك يقول عمرو بن شأس الأسدي[1] :

جـلبنــا الـخيــلَ مـن أَكنــافِ نـيقٍ　　إلـى كـســرى فــوافـقـهــا رِعَــالا
تــركنَ لهـم على الأقـســام شجــواً　　وبــالــحـقــويــن أيــامــاً طِــوَالا
قـتـلنــا رسـتـمــاً وبـنـيــه قَــســراً　　تـثيــرُ الـخيــلَ فــوقـهـم الـهـيَــالا
وداعــيــةٍ بـفــارسَ قــد تــركـنَــا　　تــبــكــي كــلمــا رأت الــهــلالا
تــركـنــا منـهـم حـيـث الـتـقـيـنــا　　قــيــامــاً مــا يــريــدون ارتـحَــالا
وفــرّ الـبـيــزران ولــم يـحــامــمِ　　وكــان عــلى كــتــيــبـتِــه وَبَــالا

---

(١) الكامل في التاريخ ٢/٣٢٧ .

ونجى الهرمزانَ حذارُ نفسٍ ... وركضُ الخيلِ موصلة عِجَالا

ومن هذا نجد أن الخيل والفرسان كانت تقوم بدور في غاية الأهمية من حيث الكرّ والفرّ وتحقيق الأهداف التي دافع من أجلها المسلمون للدعوة الإسلامية وكان على قمة تلك القيادة سعد بن أبي وقاص .

اعتزاز الرسول بسعد[1] :

روى الترمذي من حديث جابر قال أقبل سعد فقال النبي ﷺ : « هذا خالي فليرني امرؤ خاله » . وروى ابن إسحاق في المغازي كان أصحاب الرسول ﷺ يستخفون بصلاتهم فبينما سعد في شعب من شعاب مكة في نفر من الصحابة إذ ظهر عليهم المشركون فنافروهم وعابوا عليهم دينهم حتى قاتلوهم فضرب سعد رجلاً من المشركين بلحي جمل فشجه فكان أول دم أريق في الإسلام .

ومن اعتزاز الرسول ﷺ بسعد وحبه إياه أنه كان يدعو له ويقول : « اللهم استجب لسعد إذا دعاك »[2] فكان لا يدعو إلا استجيب له ، وقد ذكرنا في يوم القادسية كيف أنه دعا على الرجل الذي اتهمه فشق لسانه رمح من الأعداء .

اعتزال الفتنة :

عندما قتل عثمان بن عفان رضي الله عنه اعتزل الفتنة ولزم بيته ، وجاءه ابن أخيه هاشم بن عتبة فقال : ها هنا مائة ألف سيف يرونك أحق بهذا الأمر . فقال : أريد منها سيفاً واحداً ، إذا ضربت به المؤمن لم يصنع شيئاً وإذا ضربت به الكافر قطع .

وأخرج محمد بن عثمان[3] بن أبي شيبة في تاريخه بسند جيد عن ابن

---

(١) الإصابة ٣/٢٣ .
(٢) رواه الترمذي .
(٣) الإصابة ٣/٣٣ .

إسحاق قال : كان أشد أصحاب رسول الله ﷺ أربعة عمر وسعد والزبير . وقد قال عنه عمر عند وفاته إن أصابت الإمرة سعداً فذاك وإلا فليستعن به الذي يلي الأمر فإني لم أعزله عن عجز وخيانة . وكان عمر أمره على الكوفة سنة إحدى وعشرين ، ثم لما ولي عثمان أمّره فيها ثم عزله بالوليد بن عقبة سنة خمس وعشرين . وكان عمر يقول فيه تركته في ولايته أكرم الناس مقدرة ، وأقلهم قسوة ، هو لهم كالأم البرّة يجمع لهم كما تجمع الذرة ، أشد الناس عن البأس[1] ، وأحب قريش إلى الناس .

وتؤكد الروايات أن سعداً كان أول من رمى بسهم في سبيل الله ، وقد افتخر بذلك كثيراً ، من ذلك ما يرويه الزبير عن إبراهيم بن محمد بن عبد العزيز : كان سعد في جيش عبيدة بن الحارث حين بعثه رسول الله ﷺ إلى رافع يلقى عير قريش فترامو بالنبل وكان سعد أول من رمى بسهم في سبيل الله .

قال فحدثني محمد بن نجاد بن موسى عن سعد قال في ذلك[2] :

ألا هل أتى رسولَ اللّه أني ... حميتُ صحابتي بصدورِ نَبْلي

أذود بها عدوهم ذياداً ... بكلِّ حزونةٍ وبكلِّ سَهْلِ

فما يقيدُ رامٍ من معدٍّ ... بسهمٍ في سبيلِ اللهَ قبليَ

وفاته :

بعد أن أدى هذا الصحابي الجليل والفارس البطل والفاتح المغوار دوره في خدمة الإسلام توفي في سنة إحدى وخمسين ، وقيل سنة ست وخمسين هجرية في المدينة المنورة في إحدى ضواحيها التي تسمى العقيق ، ونقل إلى المسجد النبوي حيث صلي عليه ثم دفن في البقيع .

---

(١) الإصابة ٣/٣٤ .

(٢) الإصابة ٣/٣٥ .

من عجيب فتح القادسية

أرسل رستم إلى سعد بن أبي وقاص يسأله توجيه بعض أصحابه إليه للمناقشة والمشاورة ، فاختار سعد المغيرة بن شعبة أحد دهاة العرب ، فقد قصد سريره ليجلس معه وعليه ، فمنعته الأساورة من ذلك ، وكلمه رستم بكلام كثير ثم قال له : قد علمت أنه لم يحملكم على ما أنتم فيه إلا ضيق المعاش وشدة الجهد ونحن نعطيكم ما تشبعون به ونصرفكم بعض ما تحبونه . فقال المغيرة[1] : إن الله قد بعث إلينا نبيه ﷺ فسعدنا بإجابته واتباعه ، وأمرنا بجهاد من خالف ديننا ﴿ حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ﴾[2] . ونحن ندعوك إلى عبادة الله وحده والإيمان بنبيه ﷺ فإن فعلت وإلا فالسيف بيننا وبنيكم ، فنخر رستم غضباً ثم قال : والشمس والقمر لا يرتفع الضحى غداً حتى نقتلكم أجمعين . فقال المغيرة : لا حول ولا قوة إلا بالله وانصرف عنه .

وكان على فرس له مهزول وعليه سيف ولم يدر رستم أن جحافل المسلمين ستدك صروح دولته المتهاوية حيث لم يكن بد من انتصار الإيمان ضد أولئك الكفرة ، وفعل المسلمون المجاهدون الأفاعيل في دولة فارس حيث أزالوها من الوجود . وكان من رحمة ورأفة المسلمين بالعالم أجمع أن ينذروهم ويدعوهم إلى الإسلام ، فإن أجابوا الدعوة فلهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم ، وإن أبوا فليس بين المسلمين وبينهم إلا السيف .

ومما يحكى في هذه الصدد أن عمر بن الخطاب كتب إلى سعد يأمره أن يبعث إلى عظيم الفرس قوماً يدعونه إلى الإسلام ، فوجه سعد عمرو بن معدي كرب الزبيدي والأشعث بن قيس الكندي في جماعة فمروا برستم فأتى بهم فقال : أين تريدون ؟ قالوا : صاحبكم . فجرى بينهم كلام كثير حتى قالوا إن

---

(١) فتوح البلدان ٢٥٧ .

(٢) سورة التوبة الآية (٢٩) .

نبينا وعدنا أن نغلب على أرضكم[1] ، فدعا بزبيل من تراب فقال هذا لكم من أرضنا . فقال عمرو بن معدي كرب مبادراً فبسط رداءه وأخذ من ذلك التراب فيه وانصرف ، فقيل له ما دعاك إلى ما صنعت ؟ قال : تفاءلت بأن أرضهم تصير إلينا ونغلب عليها . ثم أتوا الملك ودعوه إلى الإسلام ، فغضب وأمرهم بالانصراف وقال : لولا أنكم رسل لقتلتكم وكتب إلى رستم يعنفه على إنفادهم إليه . وفي أثناء المعركة بين المسلمين وبين الفرس يقال إن عمرو بن معدي كرب الزبيدي اعتنق عظماً من الفرس فوضعه بين يديه في السرج وقال : أنا أبو ثور افعلوا كذا ثم حطم فيلاً من الفيلة . وقال الزموا سيوفكم خراطيمهم فإن مقتل الفيل خرطومه ، وكان سعد قد استخلف على العسكر والناس خالد بن عرفطة العذري لعلة وجدها . وكان مقيماً في قصر العذيب فجعلت امرأته وهي سلمى بنت حفصة امرأة المثنى تقول وامثيناه ولا مثنى للخيل فلطمها فقالت يا سعد أغيرة وجبنا .

وكان أبو محجن الثقفي بباضع (مكان) نفاه إليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه لشربه الخمر فتخلص حتى لحق بسعد ، ولم يكن فيمن شخص معه فيما ذكر الواقدي ثم إن أبا محجن الثقفي شرب الخمر في عسكر سعد فضربه وحبسه في قصر العذيب ، فسأل زبراء أن تطلقه يقاتل ثم يعود إلى حديده ، فأحلفته بالله ليفعلن إن أطلقته ، فركب فرس سعد وحمل على الأعاجم فخرق صفهم وحطم الفيل الأبيض بسيفه وسعد يراه فقال :

أما الفرس ففرسي وأما الحمل فحملة أبي محجن ثم إنه رجع إلى حديده . ويقال إن سلمى بنت حفصة أعطته الفرس . فلما انتهى أمر رستم وانتصر المسلمون قال سعد لأبي محجن والله لاضربتك في الخمر بعد ما رأيت منك أبداً فقال أبو محجن وأنا والله لا شربتها أبداً .

ومن آيات الفداء والشجاعة لهؤلاء الفرسان أنهم كانوا يدخلون المعركة لا

---

(١) فتوح البلدان ص ٢٥٧ .

يريدون إلا الشهادة أو النصر ، وقد أبلى طليحة بن خويلد الأسدي بلاء عظيماً ، حيث ضرب الجالينوس ضربة قدّت مغفره . وكان الفرسان في هذه المعركة الخالدة يتواصون بالصبر والاستبسال ، وقد قال قيس بن مكشوح : يا قوم إن منايا الكرام القتل ، فلا يكونن هؤلاء القلف أولى بالصبر وأسخى نفساً بالموت منكم ثم كرّ وقاتل قتالاً شديداً ثم قتل الله رستم قائد الفرس فوجد بدنه مملوءاً ضرباً وطعناً حتى لم يعرف قاتله من الأبطال الذين هجموا عليه وهم عمرو بن معدي كرب وطليحةبن خويلد الأسدي وقرط بن هجاع العبدي وضرار بن الأزور الأسدي . وكان قتال القادسية يوم الخميس والجمعة وليلة السبت في آخر السنة السادسة عشرة للهجرة[١] .

وكان المقاتلون المسلمون في معركة القادسية يجيدون في إصابة الهدف ضد الفرس حتى إنهم كانوا يرمون برعاية الله وحسن توفيقه فلا يخطئون الهدف بتاتاً ، من ذلك ما يرويه أبو رجاء الفارسي عن أبيه عن جده[٢] قال : حضرت وقعة القادسية وأنا مجوسي فلما رمتنا العرب بالنبل جعلنا نقول (دوك دوك) نعني مغازل فما زالت بنا تلك المغازل حتى أزالت أمرنا ، ولقد كان الرجل منا يرمي عن القوس الناوكية فما يزيد سهماً أن يتعلق بثوب أحدهم ، ولقد كانت النبلة من نبالهم تهتك الدرع الحصينة والجوس المضاعف مما علينا . فإننا نعلم من هذه الشاهدة أن المسلمين كانوا في غاية الدقة في الخطط العسكرية التي كان يضعها سعد بن أبي وقاص وغيره من القادة الفرسان ، وما دام هذا التخطيط من أجل رفع كلمة الله عالية خفاقة ، فلا شك أن الله مع هؤلاء المجاهدين الفاتحين ، وقد أوضح الله ذلك في محكم التنزيل فقال :

﴿ يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون ﴾[٣] .

---

(١) فتوح البلدان ٢٦٠ .

(٢) فتوح البلدان ٢٦٠ .

(٣) سورة آل عمران آية (٢٠٠) .

وقال: ﴿إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾ [1] .

وكان أول من قتل أعجمياً يوم القادسية ربيعة بن عثمان بن ربيعة من هوازن حسب ما يذكر ابن هشام الكلبي . وقد قال بعض الشعراء الفرسان في هذا اليوم شعراً خالداً يذكر انتصار المسلمين ومدى بلائهم وجهادهم في حرب الفرس . من ذلك ما قاله طليحة بن خويلد الأسدي في يوم القادسية :

أنا ضربتُ الجالينوس ضربهْ حينَ جيادُ الخيلِ وسطَ الكَبّهْ

فإننا نجد أن الخيل كانت في الميدان ، ويقول أبو محجن الثقفي الذي طلب من زوجة سعد أن تفك وثاقه حتى يحارب مع المسلمين [2] :

كَفَى حزناً أن تدعَس الخيلُ بالَقنا وأُتركُ قد شدوا عليَّ وثاقيا
إذا قمت عنَّاني الحديدُ وغلِّقت مصاريعُ من دوني تصمُّ المُنادِيَا

وقال زهير بن عبد شمس بن عوف البجلي[3] :

أنا زهيرُ وابنُ عبدِ شمسٍ أرديتُ بالسيفِ عظيمَ الفرسِ
رستم ذا النخوةِ والدمقسِ أطعتُ وشفيتُ نفسي

وقد مر بنا من قبل كيف أن رستم سخر من وفد المسلمين عندما أخذ زبيلاً ووضع فيه ترابا وقال هذا الذي تأخذونه من أرض فارس ، وقد أخذ عمرو بن معدي كرب شيئاً من هذا التراب تفاؤلاً باحتلال أرض فارس ، وفعلا فقد فتح الله على المسلمين ونالت أيدي المسلمين هذا الطاغوت الفارسي العنيد ، حيث قتله عمرو بن معدي كرب وقيل طليحة الأسدي . وهكذا فإن الأقدار قد هيأت أولئك الفاتحين لقهر الشرك وإعزاز الإسلام دين الإنسانية الخالد . ويقول

---

(١) سورة محمد آية (٧) .

(٢) فتوح البلدان ٢٦٠ ، والقنا : الرماح ، الوثاق : القيد ، الكامل في التاريخ ٢/٣٣٠ .
عناني : أتعبني ، مصاريع : جمع مصراع وهو الباب .

(٣) نفس المصدر .

الأشعث بن عبد الحجر بن سراقة الكلابي وكان قد شهد الحيرة والقادسية[1] :

وما عقرتْ بالسيلحين مطيتي | وبالقصرِ إلا خيفة أن أُعيرا
فبئسَ امرؤٌ يأبى علي برهطِهِ | وقد سادَ أَشياخي معداً وحميرا

وحق لهؤلاء الفرسان أن يعتزوا بنصر الله لهم في هذا اليوم المبارك ، حيث جالت خيولهم وداست جماجم أولئك الفرس العتاة .

وقال قيس بن المكشوح ويقال إنها لغيره[2] :

جلبتُ الخيلَ من صنعاءَ تُردى | بكلِّ مدججٍ كالليثِ سَامِ
إلى وادي القُرى فديارِ كلبٍ | إلى اليرموكِ فالبلدِ الشآمي
وجئنا القادسيةَ بعدَ شهرٍ | مسومةً دوابرُها دوامي
فناهضنا هنالك جمعَ كِسرى | وأبناء المرازيةِ الكرامِ[3]
فلما أن رأيتُ الخيلَ جَالتْ | قصدت لموقف الملكِ الهُمَامِ
فأضربُ رأسَهُ فهوى صريعاً | بسيفٍ لا أفلَّ ولا كهَامِ
وقد أبلى الإله هناك خَيْراً | وفعلُ الخيرِ عندَ اللَّهِ نامِ

فقد وصف هذا الشاعر كيف أن الفرسان المسلمين حاربوا من أجل إعلاء كلمة الله ، ثم إنهم نازلوا عتاة الفرس الأقوياء ذوي الشهرة والشجاعة ، وكيف أنهم قتلوا الملك نفسه ثم إن الله أمدهم بنصره وخذل أعداءهم . ثم قال عصام ابن المقشعري :

---

(١) فتوح البلدان ص ٢٦١ .

(٢) نفس المصدر ، مدجج : حامل السلاح ، الليث : الأسد ، مسومة : معلمة . دوامي : جمع دامية وهي المجروحة .

(٣) ناهضنا : قاتلنا ، المرازية : جمع مرزاي وهو السيد الشريف في قومه ، جالت : قاتلت في الميدان ، صريعاً : قتيلاً ، كهام : سيف غير حاد .

فلو شهدتني بالقوادس أبصرتْ جلادَ امرىء ماضٍ إذا القومُ أحجموا
أضارب بالمخشوب حتى أَفلَّه وأطعنُ بالرمح المتل وأقدمُ

فقد استخدم المسلمون في معركة القادسية كل أنواع الأسلحة من سيوف ورماحٍ ودروع إضافة إلى الرصيد المكين ألا وهو الإيمان بالله تعالى ، أما النتائج نصراً أو هزيمة فإن الذي يقدرها الله وحده لأنه أعلم بنيات المقاتلين .

وقد بدأ الشعراء الفرسان هذه الأشعار بذكر النساء كعادة الشعراء في الجاهلية تشويقاً للنفس ، وقد تكون هؤلاء النساء زوجات المحاربين من ذلك ما يقوله طليحة بن خويلد الأسدي(١) :

طَرَقتْ سُليمى أرحلَ الرَكْبِ إني اهتديتُ بسبسبٍ سُهْبِ
إني كلفت سلامَ بعدكم بالغارةِ الشعواءِ والحربِ
لو كنت يوم القادسية . إذ نازلتهم بمهندٍ عضبِ
أبصرتْ شداتي ومُنْصَرَفِي وإقامتي للطَّعنِ والضربِ

فالشاعر يذكر إقدامه وإغارته على جموع الفرس ثم يتحدث عن أهمية السيف في قتال الأعاجم . وقال بشر بن ربيعة بن عمرو الخثعمي(٢) .

ألم خيالٌ من أميمةَ موهناً وقد جُعلت أُولى النجومِ تغورُ
ونحن بصحراءِ العذيب ودارِها حجازيةٌ إن المحل شطير
ولا غروَ إلا جوبُها البيدَ في الدُجى ومن دوننا وعن أشمَّ وقورُ
تحن بباب القادسيةِ ناقتي وسعدُ بنُ وقاصٍ علي أميرُ
وسعدُ أميرٌ شره دون خيرِه طويل الشذى كأبي الزناد قصيرُ

---

(١) فتوح البلدان ٢٦١ ، طرق : جاء في الليل ، سبسب : صحراء الشعواء : الشديدة ، عضب : السيف الحاد .

(٢) فتوح البلدان ٢٦١ ، الكامل في التاريخ ٢/٣٣١ .

تـذكـرْ هـذَاك الله وقـعَ سيـوفِنـا ... بـبـابِ قـديس والمكـرِ عسَيـر
عشيـة وَدّ القـومُ لـو أن بعضهـم ... يـعـار جنَـاحي طـائـرٍ فيـطيـرُ

فقد تحدث هذا الشاعر عن رحلته إلى حرب الفرس في يوم القادسيـة ، ثم ذكر الصحراء وما فيها من قسوة وشدة وبـلاء ، ولكن الهدف من ذلـك كان لحرب الفرس وإعزاز دين الله ، ثم تمنى أن تعود الأيام التي كان فيها سعد أميراً موفقاً وقد قاد الفرسان المسلمين في حروب طاحنة بين الإسلام وبين الشرك ، حتى إن الفارس كان يحرص أشد الحرص على خوض المعارك حتى ولو كـان في سجن بسبب مخالفة في أمـر من أمور الـدين ، وقد مـر بنا من قبـل أن أبا محجن الثقفي كـان مسجونـاً بسبب ذكره الخمـر في بعض أبيات شعـره حيث يقول[1] :

أذا متُّ فـادفني إلى أصـلِ كـرمـةٍ ... تـروي عـظامي بعـد مـوتي عـروقُها
ولا تـدفـنـني بـالـفـلاةِ فـإنـني ... أخـافُ إذا مـا مُـتُّ أن لا أذوقُـهـا

ولهذا حبسه سعد بن أبي وقاص . وعنـدما اشتـد الكرب بين المسلمين والفرس في القادسية وكان مسجوناً في سجن صعد حين أمسى إلى سعد يستعفيه ويستقيله فزجره ورده ، فنـزل وقال لسلمى زوج سعـد وقيل قـال لزوجـة سعد الأخرى زبراء : هـل لك إلى خيـر ؟ قالت : ومـا ذاك ؟ قال : أن تخلي عني وتعيـرني البلقاء(فـرس سعد) على أن سلمني الله أن أرجـع إليك حتى أضـع رجلي في قيدي . فأبت ، فقال[2] :

كَفَى حُـزناً أن تـرتدي الخيـلُ بالَقنـا ... وأتـركُ مـشـدوداً علـي وِثَـاقِـيَـا
إذا قمتُ عنَّـاني الحـديـدُ وأغلقتْ ... مصـاريـع دوني قـد تصُمُّ المنـادِيَـا
وقـد كنت ذا مـالٍ كـثيـرٍ وأخـوةٍ ... فقـد تـركـوني واحـداً لا أخـاليـا

(١) الكامل في التاريخ ٢/٢٣١ .
(٢) فتوح البلدان والكامل في التاريخ ٣٣٠ .

ولله عــهــد لا أخــيسُ بــعــهــدهِ   لئن فــرجت أن لا أزورَ الـحَـوانيــا

وعنـدما سمعت سلمى زوج سعـد هذا الشعـر رقت له وأطلقتـه وأعطتـه البلقاء فرس سعد فركبها حتى إذا كان بحيال الميمنة كبر ثم حمل على ميسـرة الفرس ثم رجع خلف المسلمين وحمل على ميمنتهم وكان يقصف الناس قصفاً منكراً ، وتعجب الناس منه وهم لا يعرفونه . ولم يروه من النهار فقال بعضهم هو من أصحاب هاشم أو هاشم نفسه .

وكان سعد يقول وهو مشرف على الناس مكب من فوق القصر ، والله لولا محبس أبي محجن الثقفي لقلت هذا أبو محجن الثقفي ، وهذه البلقاء . وقال بعض الناس هذا الخضر وقال بعضهم لولا أن الملائكة لا تباشر الحرب لقلنا إنه ملك يثبتنا ، ولا يذكره الناس ولا يأبهون له لأنه بـات في محبسه فلمـا انتصف الليل وتراجع المسلمون والفرس عن القتال أقبل أبو محجن فدخل القصر وأعاد رجليه في القيد وقال[1] :

لـقـد علمتْ ثقيـفٌ غيـرَ فـخـرٍ   بــأنــا نـحـنُ أكـرمـهُـم سيــوفَــا

وأكــثــرهـــم دروعـــاً ســابــغـــاتٍ   وأصبـرُهم إذا كـرهــوا الــوقــوفــا

وأنــا وفــدُهــم فــي كــلِّ يــومٍ   فــإن عميــوا فســل بهـم عَــريفــا

ولـيـلةَ قــادسٍ لــم يـشــعــروا بـي   ولم أشعــر بمخــرجي الـزَحــوفــا

فــإن أُحــبس فــذلـكــم بــلائــي   وإن أتــرك أذيـقـهــم الـحُـتُــوفــا

وقد سألت سلمى أبا محجن في أي شيء حبسك هذا الرجـل ؟ فقال : والله مـا حبسني بحرام أكلتـه ولا شـربتـه ، ولكنني كنت صـاحب شـراب في الجاهلية وأنا امرؤ شاعر يدب الشعر على لساني بذكر الخمر .

وهكذا فقد اطلعنا على سيرة هذا الصحابي الجليل الذي أدى دوراً بارزاً

---

(١) الكامل في التاريخ ٢/٣٣٠ .

في الدعوة إلى الله ، ثم صبره على أذى المشركين ، ثم بينا شيئاً من غزواته في فتوحات الإسلام الكبرى فيالقادسية والعراق وقد كان سعد قدوة صالحة لجنوده الأبطال ، لأنه خاض غمار الحرب معهم وفي مقدمتهم . ولم يكن بعيداً عنهم . وقد كان فارساً موفقاً مؤيداً مستجاب الدعوة . فجزاه الله عنا وعن الإسلام خير الجزاء . وندعو المولى أن يشب شباب العروبة والإسلام كما شب سعد مؤمناً بالإسلام عقيدةً وداعياً الى الله بلسانه وسيفه وفرسه حتى تعود عزة الإسلام التي اهتزت في ديار الإسلام إلى ما كان عليه الفاتحون المسلمون الأول .

سادساً ـ عمرو بن العاص[1] :

نسبه :

هو عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم بن سعيد بن سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤي القرشي السهمي ، فاتح فلسطين ومصر وصاحب غزوة ذات السلاسل . يكنى أبا عبد الله وأبا محمد وأمه النابغة من بني عنزة ، وقيل عذرة[2] .

إسلامه :

أسلم عمرو قبل الفتح في صفر سنة ثمان ، وقيل بين الحديبية وخيبر ، وكان يقول عن نفسه : إنني أذكر الليلة التي ولد فيها عمر بن الخطاب . وقال داخر المعافري رأيت عمراً على المنبر أدعج أبلج قصير القامة . وقد وردت في أسلامه روايةرواها الزبير بن بكار والواقدي بسندين لهما أن إسلامه كان على يد النجاشي وهو بأرض الحبشة ، وذكر كذلك الزبير بن بكار أن رجلاً قال لعمرو ما

---

(١) الإصابة ٣/٢ ، طبقات ابن سعد ٤/٤٥٤ ، الكامل في التاريخ ٢/١٥٥ .
(٢) الكامل في التاريخ .

أبطأ بك عن الإسلام وأنت أنت في عقلك ؟ قال : إنا كنا مع قوم لهم علينا تقدم وكانوا ممن يوازي خلوبهم الخبال ، فلما بعث النبي ﷺ فأنكروا عليه فلذنا بهم ، فلما ذهبوا وصار الأمر إلينا نظرنا وتدبرنا فإذا حقٌّ بيِّن ، فوقع الإسلام في قلبي . فعرفت قريش[1] ذلك من إبطائي عما كنت أسرع فيه من عونهم عليه فبعثوا إلي فتى منهم فناظرني في ذلك فقلت : أنشدك الله ربك ورب من قبلك ومن بعدك أنحن أهدى أم فارس والروم قال : نحن أهدى ، قلت : فنحن أوسع عيشاً أم هم ، قال : هم ، قلت : فما ينفعنا فضلنا عليهم إن لم يكن لنا فضل إلا في الدنيا وهم أعظم منا فيها أمراً في كل شيء ، وقد وقع في نفسي أن الذي يقوله محمد من أن البعث بعد الموت يجزي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته حق ، ولا خير في التمادي في الباطل .

وهناك رواية أخرجها البغوي بسند جيد عن عمرو بن إسحاق أحد التابعين قال : استأذن جعفر بن أبي طالب رسول الله ﷺ في التوجه إلى الحبشة فأذن له قال عمير : فحدثني عمرو بن العاص قال لما رأيت مكانه قلت والله لأستقلن لهذا وأصحابه فذكر قصتهم مع النجاشي قال فلقيت جعفراً خالياً فأسلمت قال فبلغ ذلك أصحابي فغنموني وسلبوني كل شيء فذهبت إلى جعفر فذهب معي إلى النجاشي فردوا علي كل شيء أخذوه .

ولما أسلم كان النبي ﷺ يقربه ويدنيه لمعرفته وشجاعته . وهكذا نجد أن قصة إسلامه فيها شيء من الغموض ، فهناك من يروي أنه أسلم في الحبشة ، وهناك من يروي أنه أسلم على يد الرسول ﷺ ولكن مهما كان السبب في إسلامه فقد كان عمرو رجلاً ذكياً أديباً قربه الرسول ﷺ واستعمله على بعض الغزوات .

فتوحاته وغزواته :

كان عمرو بن العاص فارساً شجاعاً حكيماً وقد استعمله الرسول ﷺ في

---

(١) الإصابة ٢/٣ .

غزوة ذات السلاسل ، ثم استعمله على عمان ، وهذا في حياة الرسول ﷺ ، ثم كان له الفضل في فتح فلسطين ومصر وأجزاء من أفريقيا ، ثم فتح حلب ومنبج وأنطاكية .

غزوة ذات السلاسل[١] :

في هذه الغزوة أرسل الرسول ﷺ عمرو بن العاص ومعه ثلاثمائة من المهاجرين والأنصار إلى أرض بلى وعذرة يدعو الناس إلى الإسلام وكانت أمه من بلى فتألفهم رسول الله ﷺ بذلك ، فسار حتى إذا كان على ماء بأرض جذام يقال له السلاسل وبه سميت تلك الغزوة ذات السلاسل فلما كان به خاف فبعث إلى النبي ﷺ يستمده فبعث إليه رسول الله ﷺ أبا عبيدة بن الجراح في المهاجرين الأولين فيهم أبو بكر وعمر وقال لأبي عبيدة حين وجهه لا تختلفا . فخرج أبو عبيدة فلما قدم عليه قال عمرو : إنما جئت مدداً إلي ، فقال له أبو عبيدة : يا عمرو ، إن رسول الله ﷺ قال لا تختلفا فإن عصيتني أطعتك ، قال : فأنا أمير عليك ، قال : فدونك ، فصلى عمرو بن العاص[٢] .

والتقى المسلمون بأعدائهم فحمل المسلمون على الأعداء فتفرقوا ، وأراد المسلمون أن يتبعوهم فمنعهم عمرو وكانت ليلة شديدة فمنعهم من أن يشعلوا النار ، وأصبح جنباً فلم يغتسل فلما عاد اعتذر إلى رسول الله ﷺ بأن كره النار خشية أن يراها عدوهم فيرى قلتهم فيطمع فيهم ، وكره أن يتبعوهم خوفاً من أن يكون له مدد . فحمد رسول الله ﷺ أمره ويظهر أنه اكتفى بالتيمم وجعل البرد عذراً ، ويبدو أن التيمم كان مشروعاً في هذا الوقت ، وفي هذه الغزوة أرسل رسول الله ﷺ عمرو بن العاص إلى جيفر وعياذ ابني الجلندي بعمان فآمنا وصدقا وأخذ الجزية من المجوس .

---

(١) الكامل في التاريخ ٢/١٥٦ .

(٢) يقال إن عددهم كان إما ثلاثمائة أو مائتين . الكامل في التاريخ ٢/١٥٦ .

(٢) فتح فلسطين :

كان فتح فلسطين على يد البطل الفاتح والفارس المقدام عمرو بن العاص ثم امتدت فتوحاته من فلسطين حتى وصل مصر وبعض البلدان في أفريقيا وعن فتح فلسطين يقص علينا البلاذري صاحب فتوح البلدان فيقول[١] حدثني أبو حفص الدمشقي عن سعيد بن عبد العزيز عن أشياخه ، وعن بقية بن الوليد عن مشايخ من أهل العلم قالوا كانت أول وقعة واقعها المسلمون الروم في خلافة أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ أرض فلسطين وعلى الناس عمرو بن العاص ثم إن عمرو بن العاص فتح مدينة غزة في خلافة أبي بكر رضي الله عنه ، ثم فتح بعد ذلك سبسطيةونابلس على أن أعطاهم الأمان على أنفسهم وَأموالهم ومنازلهم وعلى أن الجزية على رقابهم والخراج على أرضهم ، ثم فتح مدينة اللد وأرضها ثم فتح ببني وعمواس وبيت جبرين واتخذ فيها ضيعة تدعى عجلان باسم مولى له ، وفتح مدينة يافا ويقال فتحها معاوية بن أبي سفيان ، وواصل عمرو بن العاص فتوحاته في فلسطين حتى وصل إلى آخر حدودها غرباً وهي مدينة رفح التي تقع على حدود مصر ، وقد قدم عليه أبو عبيدة عامر بن الجراح بعد أن فتح قنسرين ونواحيها وذلك في سنة ست عشرة وهو محاصر إيلياء ، وإيلياء مدينة بيت المقدس فيقال إنه وجهه إلى أنطاكية من إيلياء وقد غدر أهلها بالمسلمين ففتحها عنوة ثم عاد فأقام يومين أو ثلاثة ، ثم طلب أهل إيلياء من أبي عبيدة الأمان والصلح على مثل ما صولح عليه أهل مدن الشام من أداء الجزية والخراج والدخول فيما دخل فيه نظراؤ هم على أن يكون المتولي للعقد لهم عمر ابن الخطاب نفسه ، فكتب أبو عبيدة إلى عمر بذلك فقدم عمر فنزل الجابية من دمشق ثم صار إلى إيلياء فأنفذ صلح أهلها وكتب لهم به وكان فتح إيلياء في سنة سبع عشرة .

---

(١) فتوح البلدان ١٤٤ .

(٣) فتح مصر :

كان من بركات وفضل الله على عمرو بن العاص أن جعله سببا في فتح مصر حينما تم له فتح فلسطين وبيت المقدس ، فقد تحدثت الروايات أن عمرو بن العاص سار إلى مصر في سنة تسع عشرة فنزل العريش ثم أتى الفرماء[١] وبها قوم مستعدون للقتال فحاربهم فهزمهم وحوى عسكرهم ، ومضى قدماً إلى الفسطاط فنزل جنان الريحان وقد خندق أهل الفسطاط ، وكان اسم المدينة أليونة فسماها المسلمون فسطاطا لأنهم قالوا هذا فسطاط القوم ومجمعهم وقوم يقولون إن عمرو ضرب بها فسطاطاً فسميت بذلك ، وتضيف هذه الرواية أن عمرو بن العاص كان محاصراً أهل الفسطاط حتى جاءه الزبير بن العوام بأمر من عمر بن الخطاب ومعه عشرة آلاف مقاتل من المسلمين ويقال في اثني عشر ألفاً فيهم خارجة بن حذافة العدوي وعمير بن وهب الجمحي . وكان الزبير قد هم بالغزو وأراد إتيان أنطاكية فقال له عمر : يا أبا عبد الله هل لك في ولاية مصر ؟ فقال : لا حاجة لي فيها ، ولكني أخرج مجاهداً وللمسلمين معاوناً ، فإن وجدت عَمْراً قد فتحها لم أعرض لعمله وقصدت إلى بعض السواحل فرابطت به ، وإن وجدته في جهاد كنت معه .

فسار على ذلك وقالوا في هذه الرواية إن الزبير- رضي الله عنه - كان يقاتل من وجه ، وعمرو بن العاص من وجه آخر ، ثم إن الزبير أتى بسلم فصعد عليه حتى أرخى على الحصن وهو مجرد سيفه فكبر وكبر المسلمون واتبعوه ففتح الحصن عنوة واستباح المسلمون ما فيه ، وأقر عمله أهله على أنهم ذمة فوضع عليهم الجزية في رقابهم والخراج في أرضهم وكتب بذلك إلى عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - واختط الزبير بمصر وابتنى داراً معروفة وإياها نزل عبد الله بن الزبير حين غزا أفريقية مع ابن أبي سرح وسلم الزبير باقٍ في مصر .

---

(١) فتوح البلدان ٢١٤ ، الكامل في التاريخ ٢/٣٩٤ .

وعندما تم فتح مصر قام الزبير بن العوام فقال لعمرو بن العاص[1] : اقسمها يا عمرو. فأبى ، فقال الزبير : والله لتقسمنها كما قسم رسول الله ﷺ خيبر . فكتب عمرو إلى عمر بن الخطاب في ذلك ، فكتب إليه عمر أقرها حتى يغزو منها حبل الحبلة .

ويروي صاحب كتاب الكامل في التاريخ[2] أن فتح مصر كان سنة ست عشرة في ربيع الأول أي يعني أن يكون فتح مصر قبل عام الرمادة لأن عمرو بن العاص حمل الطعام في بحر القلزم من مصر إلى المدينة ، ويضيف ابن الأثير أن عمر بن الخطاب عندما أقام في بيت المقدس أياماً أمضى عمرو بن العاص إلى مصر وأتبعه الزبير بن العوام مدداً له ، فأخذ المسلمون بابليون وساروا إلى مصر فلقيهم هناك أبو مريم جاثليق مصر ومعه الأسقف بعثه المقوقس لمنع بلادهم ، فلما نزل بهم عمرو قاتلوه فأرسل إليهم لا تعجلونا حتى نعذر إليكم وترون رأيكم بعد ، وليبرز إلي أبو مريم وأبو مريام ، فكفوا وخرجا إليه فدعاهم إلى الإسلام أو الجزية ، وأخبرهما بوصية النبي ﷺ بأهل مصر بسبب هاجر أم إسماعيل عليه السلام ، قالوا : قرابة بعيدة لا يصل مثلها إلا الأنبياء آمنا حتى نرجع إليك ، فقال عمرو : مثلي لا يخدع ولكني أؤجلكما ثلاثاً لتنظرا . فقالا : زدنا فزادهم يوماً فرجعا إلى المقوقس فأبى أرطبون أن يجيبهما وأمر بمناهدتهم فقال لأهل مصر : أما نحن فسنجهد أن ندفع عنكم ولا نرجع إليهم .

فلما يفجأ عمْراً إلا البيات وهو على عدة ، فلقوه فقتل أرطبون وكثير ممن معه وانهزم الباقون ، وسار عمرو والزبير إلى عين شمس وبها جمعهم وبعث إلى فرما أبرهته بن الصباح فنزل عليها وبعث عوف بن مالك إلى الإسكندرية فنزل عليها وقيل كان الإسكندر وفرما أخوين ، ونزل عمرو بعين الشمس فقال أهل

(١) فتوح البلدان ٢١٥ .
(٢) الكامل في التاريخ ٢/٣٩٤ .

مصر لملكهم ما تريد إلا قتال قوم هزموا كسرى وقيصر وغلبوهم على بلادهم فلا تعرض لهم ولا تعرضنا فأبى وناهدوهم وقاتلوهم .

فلما التقى المسلمون والمقوقس بعين الشمس واقتتلوا جال المسلمون فذمرهم عمرو فقال له رجل من اليمن إننا لم نخلق من حديد فقال له عمرو اسكت إنما أنت كلب ، قال فأنت أمير الكلاب ، فنادى عمرو بأصحاب رسول الله ﷺ فأجابوه فقال : تقدموا فبكم ينصر الله المسلمين ، فتقدموا وفيهم أبو يردة وأبو برزة وتبعهم الناس وفتح الله على المسلمين وظفروا وهزموا المشركين ، فارتقى الزبير بن العوام سورها[1] فلما أحسوه فتحوا الباب لعمرو وخرجوا إليه مصالحين فقبل منهم ونزل الزبير عليهم عنوة حتى خرج على عمرو من الباب ومعهم ، فعقدوا صلحاً بعدما أشرفوا على الهلكة فأجروا ما أخذوه عنوة مجرى الصلح فصاروا ذمة وأجروا من دخل في صلحهم من الروم والنوبة مجرى أهل مصر ، ومن اختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ مأمنه .

واجتمعت خيول المسلمين بمصر وبنوا الفسطاط ونزلوه . وجاء أبو مريم وأبو مريام إلى عمرو وطلبا منه السبايا التي أصيبت بعد المعركة . فطردهما فقالا كل شيء أصبتموه منذ فارقناكم إلى أن رجعنا إليكم ففي ذمة فقال عمرو لهما أتغيرون علينا وتكونون في ذمة قالا : نعم فقسم عمرو بن العاص السبي على الناس وتفرق في بلدان العرب . وبعث بالأخماس إلى عمر بن الخطاب ومعها وفد فأخبروا عمر بن الخطاب بمالهم كله وبما قال أبو مريم ، فردّ عمر عليهم سبي من لم يقاتلهم في تلك الأيام الأربعة وترك سبي من قاتلهم فردوهم وحضرت القبط باب عمرو وبلغ عَمْراً أنهم يقولون ما أرث العرب وأهون عليهم أنفسهم ما رأينا مثلنا دان لهم فخاف أن يطمعهم ذلك فأمر بجزر فذبحت فطبحت بالماء والملح ودعا أمراء الأجناد فأعلموا أصحابهم فحضروا عنده وأكلوا أكلا عربيا ابتشكوا وحشوا وهم في العباء بغير سلاح[2] فازداد طمعهم

---

(١) الكامل ٢/٣٩٥ .

(٢) الكامل في التاريخ ٢/٣٩٦ .

وأمر المسلمين أن يحضروا الغد في ثياب أهل مصر وأحذيتهم ففعلوا وأذن لأهل مصر فرأوا شيئاً غير ما رأوا بالأمس وقام عليهم القوام بألوان مصر فأكلوا أكل أهل مصر ونحوا نحوهم فارتـاب القبط وبعث أيضا إلى المسلمين تسلحـوا للعرض غدا وأذن لهم فعرضهم عليهم وقال لهم علمت حالكم حين رأيتم اقتصاد العرب فخشيت أن تهلكوا فأحببت أن أريكم حالهم في أرضهم كيف كان ثم حالهم في أرضكم ثم حالهم في الحرب فقد رأيتم ظفرهم بكم وذلـك عيشهم وقد كلبـوا على بلادكم بما نالوا في اليـوم الثاني فـأردت أن تعلموا أن مـا رأيتم في اليوم الثالث غير تارك عيش اليوم الثاني .

وراجع إلى عيش اليوم الأول ، فتفرقوا وهم يقـولون لقـد رمتكم العرب برجلهم وبلغ عمر بن الخطاب ذلك فقال : والله إن حربه لمنية مالها سطوة ولا سورة كسورات الحروب من غيره ثم إن عَمْراً سار إلى الإسكندرية وكان من بين الإسكندرية والفسطاط من الروم والقبط قد تجمعوا له وقالوا نغزوه قبل أن يغزونا ويروم الإسكندرية فالتقوا واقتتلوا فهزمهم وقتل منهم مقتلة عظيمة وسار حتى بلغ الإسكندرية فوجد أهلها معدين لقتاله فأرسل المقوقس إلى عمرو يسأله الهـدنة إلى مدة فلم يجبه إلى ذلك . وقال لقد لقينا ملككم الأكبر هرقـل فكان منـه ما بلغكم ، فقال المقوقس لأصحابه صـدق فنحن أولى بالإذعـان فأغلظوا لـه في القول وامتنعوا ، فقاتلهم المسلمون وحصروهم ثلاثة أشهر وفتحها عمرو عنـوة وغنم ما فيها وجعلهم ذمة ، وقيل إن المقوقس صالح عَمْراً على اثني عشر ألف دينار على أن يخرج من الإسكندرية من أراد الخروج ويقيم من أراد القيام وجعل عمرو فيها جنداً .

وفلمـا فتحت مصر غـزوا النوبة فرجـع المسلمون بـالجراحـات وذهـاب الحدث لجودة رميهم فسموهم رماة الحدق ، فلما ولي عبد الله بن سعد بن أبي سرح مصر أيام عثمان صالحهم على هدية عدة رؤوس يؤدونهـا إلى المسلمين في كل سنة ويهدي إليهم المسلمون كل سنة طعاماً مسمى وكسوة وأمضى ذلك

الصلح عثمان ، ومن بعده من ولاة الامور . وقيل إن المسلمين لما انتهوا إلى بلهيت وقد بلغت سباياهم إلى اليمن أرسل صاحبهم إلى عمرو إنني كنت أخرج الجزية إلى من هو أبغض إلي منكم فارس والروم فإن أحببت الجزية على أن ترد ما سبيتم من أرض فعلت .

فكتب عَمْرو إلى عُمَرَ يستأذنه في ذلك ورفعوا الحرب إلى أن يرد كتاب عمر . فورد الجواب من عمر : لعمري جزية قائمة تكون لنا ولمن بعدنا أحب إلينا من غنيمة تقسم ثم كأنها لم تكن ، وأما السبي فإن أعطاك ملكهم الجزية على أن تخيروا من في أيديكم منهم بين الإسلام ودين قومه فمن اختار الإسلام فهو من المسلمين ومن اختار دين قومه فضع عليه الجزية وأما من تفرق في البلدان فإنا لا نقدر على ردهم فافعل .

فعرض عمرو ذلك على صاحب الإسكندرية فأجاب إليه فجمعوا السبي واجتمعت النصارى وخيروهم واحداً واحداً فمن اختار المسلمين كبروا ومن اختار النصارى جزعوا عليه وسار عليه جزية حتى فرغوا وكان من السبي عبد الله بن عبد الرحمن فاختار الإسلام وصار عريف زبيد وكان ملوك بني يقولون إن مصر دخلت عنوة وأهلها عبيدنا نزيد عليهم كيف شئنا ولم يكن كذلك[١] .

(٤) فتح برقة وزويلة :

روى الواقدي عن البلاذري[٢] أن عمرو بن العاص لما فتح الإسكندرية سار في جنده يريد المغرب حتى قدم برقة وهي مدينة انطابلس فصالح أهلها على الجزية وهي ثلاثة عشرة ألف دينار ويبيعون فيها من أبنائهم من أحبوا بيعه . وكان أهل برقة يبعثون بخراجهم إلى والي مصر من غير أن يأتيهم حاث أو

---

(١) الكامل في التاريخ ٢/٣٩٧ .
(٢) فتوح البلدان ٢٢٥ .

مستحث ، فكانوا أخصب قوم بالمغرب ولم يدخلها فتنة . وقال الواقدي كان عبد الله بن عمرو بن العاص يقول : لولا مالي بالحجاز لنزلت برقة فما أعلم منزلاً أسلم ولا أعزل منها .

وكتب عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب يعلمه أنه قد ولى عقبة بن نافع الفهري المغرب فبلغ زويلة ، وأن من بين زويلة وبرقة سلم كلهم حسنة طاعتهم قد أدى مسلمهم الصدقة وأقر معاهدهم بالجزية ، وأنه قد وضع على أهل زويلة ومن بينه وبينها ما رأى أنهم يطيقونه ، وأمر عماله جيمعاً أن يأخذوا الصدقة من الأغنياء فيردوها في الفقراء ، ويأخذوا الجزية من الذمة فتحمل إليه في مصر ، وأن يؤخذ من أرض المسلمين العشر ونصف العشر ومن أهل الصلح صلحهم .

(٥) فتح أطرابلس[١] :

لم يكتف عمرو بن العاص بفتح برقة وزويلة بل سار مع جنده الميامين من الصحابة الكرام حتى نزل أطرابلس في سنة اثنتين وعشرين فقوتل ثم افتتحها عنوة ، وأصاب بها أحمال بزبون كثيرة مع تجار من تجارها فباعه وقسمه بين المسلمين وكتب إلى عمر بن الخطاب : « أنا قد بلغنا أطرابلس وبينها وبين أفريقية تسعة أيام . فإن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لنا في غزوها فعلت . فكتب إليه ينهاه عنها ويقول ما هي بأفريقية ولكنها مفرمة غادرة مغدور بها ، وذلك أن أهلها كانوا يؤدون إلى ملك الروم شيئاً فكانوا يغدرون به كثيراً ، وكان ملك الأندلس صالحهم ثم غدر بهم وكان خبرهم قد بلغ عمر . وهناك رواية تقول (إن أطرابلس فتحت بعهد من عمرو بن العاص) .

وهكذا نجد أن عمرو بن العاص كان قائداً فذاً وسياسياً محنكاً وداهيةً من دهاة العرب في السلم والحرب ، وقصته مع أبي موسى الأشعري بشأن الخلاف

---

(١) فتوح البلدان للبلاذري ٢٢٧ .

الذي نشب بين الإمام علي كرم الله وجهه وبين معاوية مشهورة . وقد كان من فضله أن فتوح فلسطين ومصر وبرقة وطرابلس كانت على يديه بالإضافة إلى إمارته في غزوة ذات السلاسل من قبل الرسول ﷺ .

مكانته :

كان لعمرو بن العاص منزلة عظيمة لدى رسول الله ﷺ وقد ولاه غزوة ذات السلاسل كما ذكرت من قبل ، ويروى أن عمر بن الخطاب نظر إلى عمرو وهو يمشي[1] فقال : ما ينبغي لأبي عبد الله أن يمشي على الأرض إلا أميراً . وقال أحد العارفين وهو إبراهيم بن مهاجر عن الشعب عن قبيصة بن جابر صحبت عمرو بن العاص فما رأيت رجلا أبين قرآناً ولا أكرم خلقاً ولا أشبه سريرةً بعلانية منه . وقال محمد بن سلام الجمحي كان عمر إذا رأى الرجل يتلجلج في كلامه يقول أشهد أن خالق هذا وخالق عمرو بن العاص واحد . وكان الشعبي يقول دهاة العرب في الإسلام أربعة فعد منهم عَمْراً وقال فأما عمرو فللمعضلات .

وقد روى عمرو بن العاص عن الرسول ﷺ أحاديث وروى عنه ولداه عبد الله ومحمد وقيس بن أبي حازم .

مناقب عمرو وشمائله :

كان لعمرو بن العاص العديد من المناقب الحسنة والشمائل الكريمة التي نالت الإعجاب من سيدنا رسول الله ﷺ ومنها ثقة رسول الله ﷺ فيه حيث أمّره في غزوة ذات السلاسل ، وقد أخرج الإمام أحمد من حديث طلحة أحد العشرة المبشرين بالجنة ، حيث قال فيما يروى أن عمرو بن العاص من صالحي قريش[2] .

---

(١) الإصابة ٢/٣ .

(٢) الإصابة ٢/٣ .

وفي رواية أخرى (نعم عبد الله وأبو عبد الله وأم عبد الله) .

وأخرج الإمام أحمد[1] بسند حسن عن عمرو بن العاص قال بعث إليَّ النبي ﷺ فقال : « خذ عليك ثيابك وسلاحك ثم ائتني ، فقال إني أريد أن أبعثك على جيش فيسلمك الله ويغنيك وأرغب لك من المال رغبة صالحة ، فقلت يا رسول الله ما أسلمت من أجل المال بل أسلمت رغبة في الإسلام ، قال : يا عمرو نعم ما بالمال الصالح المرء الصالح » .

وفضائله أيضاً والتي كانت تدل على حسن إيمانه وثباته على الإسلام ما رواه الإمام أحمد والنسائي بسند حسن عن عمرو بن العاص قال : فزع أهل المدينة فزعا فتفرقوا ، فنظرت إلى سالم مولى أبي حذيفة في المسجد عليه سيف مختفياً ففعلت مثله . فخطب النبي ﷺ فقال : (ألا يكون فزعكم إلى الله ورسوله ، ألا فعلتم كما فعل هذان الرجلان المؤمنان ـ « يقصد سالم مولى أبي حذيفة وعمرو بن العاص ») .

ومن حسناته وفضائله أنه افتتح مصر ، وكان أميرها في زمن عمر بن الخطاب ، وأبقاه عثمان بن عفان قليلاً ثم عزله وولى مكانه عبد الله بن سعد بن أبي سرح وكان أخا لعثمان من الرضاعة ، فآل أمر عثمان بسبب هذا إلى بوادر الفتنة ثم لم يزل عمرو بغير إمرة إلى أن كانت الفتنة بين عليّ ومعاوية فلحق بمعاوية ، فكان معه يدبر أمره في الحرب إلى أن جرى أمر الحكمين ثم سار في جيش جهزه معاوية إلى مصر فوليها لمعاوية من صفر سنة ثمان وثلاثين إلى أن مات سنة ثلاث وأربعين ، وقيل توفي وهو ابن تسعين سنة وقيل بل ابن تسع وتسعين سنة .

وقد عاش بعد عمر بن الخطاب بعشرين سنة ، وفي صحيح مسلم من رواية عبد الرحمن بن شماسة قال ، لما حضرت عمرو بن العاص الوفاة بكى ،

---

(١) الإصابة ٢/٣ .

فقال عبد الله بن عمرو ابنه : ما يبكيك ؟ فذكر الحديث بطوله في قصة إسلامه ، وأنه كان شديد الحياء من رسول الله ﷺ لا يرفع طرفه إليه ، وذكر هذه الرواية ابن عبد الحكم في فتوح مصر .

ومما يروى عن وفاة عمرو بن العاص ما قاله ابن شماسة المهري[1] حيث قال حضرنا عمرو بن العاص وهو في سياقة الموت فحول وجهه إلى الحائط يبكي طويلاً وابنه يقول له : ما يبكيك ؟ أما بشرك رسول الله ﷺ بكذا ؟ أما بشرك بكذا ؟ قال وهو في ذلك يبكي ووجهه إلى الحائط ، قال ثم أقبل بوجهه إلينا فقال إن أفضل مما تعد عليّ شهادة أن لا اله إلا الله وأن محمداً رسول الله ﷺ ولكني كنت على اطباق ثلاث ، قد رأيتني ما من الناس من أحد أبغض إلي من رسول الله ﷺ ولا أحب إلي أن استمكن منه فأقتله فلو متّ على تلك الطبقة لكنت من أهل النار ، ثم جعل الله الإسلام في قلبي فأتيت رسول الله ﷺ لأبايعه فقلت : ابسط يمينك أبايعك يا رسول الله . قال : فبسط يده ثم إني قبضت يدي فقال : مالك يا عمرو ؟ قال : فقلت أردت أن أشترط فقال : تشترط ماذا ؟ فقلت : أشترط أن يغفر لي فقال : أما علمت يا عمرو أن الإسلام يهدم ما كان قبله ؟ فقد رأيتني ما من الناس أحد أحب إلي من رسول الله ﷺولا أجمل في عيني منه ولو سئلت أن أنعته ما أطقت لأني لم أكن أطيق أن أملأ عيني إجلالاً له ، فلو مت على تلك الطبقة رجوت أن أكون من أهل الجنة . ثم ولينا أشياء بعد فلست أدري ما أنا فيها أو ما حالي فيها فإذا أنا مت فلا تصحبني نائحة ولا نار ، فإذا دفنتموني فسنّوا على التراب سنّاً ، فإذا فزعتم من قبري فامكثوا عند قبري قدر ما ينحر جزور ويقسم لحمها فاني أستأنس بكم حتى أعلم ماذا أراجع به رسل ربي . ومما يروى كذلك عنه عند موته أنه قال اللهم لا بريء فأعتذر ولا عزيز فأنتصر وإلا تدركني برحمة أكن من الهالكين .

---

(١) الطبقات ٤/٢٥٨ .

ومما يروى[1] عنه كذلك أنه أوصى ولده عبد الله فقال : يا بني إذ متّ فاغسلني غسلة بالماء ثم جففني في ثوب . ثم اغسلني الثانية في ماء قراح ثم جففني في ثوب ، ثم اغسلني الثالثة بماء فيه شيء من الكافور ، ثم جففني في ثوب ، ثم إذا ألبستني الثياب فأزر علي فإني مخاصم ، ثم إذا أنت حملتني على السرير فامش بي مشياً بين المشيتين ، وكن خلف الجنازة فإن مقدمها للملائكة وخلفها لبني آدم ، فإذا أنت وضعتني في القبر فسنّ علي التراب سنّاً ، ثم قال : اللهم إنك أمرتنا فركبنا ، ونهيتنا فأضعنا ، فلا بريء فأعتذر ولا عزيز فأنتصر ولكن لا إله إلا الله ، فما زال يقولها حتى مات .

وبعد فقد درسنا شيئاً عن حياة هذا الصحابي الجليل والفارس الشجاع الذي أخلص للإسلام ديناً ، وأحب الرسول ﷺ حباً شديداً ، ونال ثقته ورضاه في إمرته على بعض الغزوات في عهده ﷺ، ثم كان له فضل عظيم على أمة الإسلام بأن شارك في فتح فلسطين وافتتح مصر وبرقة وطرابلس وزويلة وبعض الأجزاء الأخرى من أفريقية .

أما الخلاف الذي كان فيه طرفاً فإننا نترك الخوض فيه إلى الله تعالى . وحسبه شرفاً ومجداً أنه وضع ذكاءه وشبابه وحياته في خدمة الفتوح الإسلامية شرقاً وغرباً ـ فرضي الله عنه وأرضاه ـ ولله الأمر في خلافه مع الإمام عليّ كرم الله وجهه حيث أن الله هو الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور .

سابعاً ـ عمرو بن معدي كرب[2] :

نسبه :

هو عمرو بن معديكرب بن عبدالله بن عمرو بن عاصم بن زبيد الأصغر بن

---

(١) الطبقات ٤/٢٦٠ .

(٢) الإصابة ٣/١٨ ، الأصمعيات ترجمة ٣٤ ص ١٢١ ، أغاني ٤٤٢ ، حماسة أبي تمام ١/٤٣ ، المفضليات ٤٠٥ ، العقد الفريد ، خزانة الأدب ٢/٤٤٤ .

ربيعة بن حاسلمة بن مازن بن شيبة وهو زبيد الأكبر بن ضعف بن سعد العشيرة الزبيدي ويكنى أبا النور . كان فارس اليمن ويقدم على زيد الخيل (الخير) في الشدة والبأس ، وقدم عمرو على سيدنا رسول الله ﷺ في وفد مذحج ثم ارتد عن الاسلام حتى كانت غزوة تبوك ، فلقي رسول الله ﷺ في منصرفه فدعاه إلى الإسلام وبايع لقومه على الإسلام وشهد عمرو فتوح الشام والقادسية وهوابن مائة وست سنين وأبلى فيها بلاءً عظيماً .

مغازيه وحروبه :

كان عمرو بن معدي كرب فارساً مشهوراً في الجاهلية والإسلام وقد استحق لقب فارس زبيد في قصة تقول[1] :

بلغ معدي كرب والد عمرو أن خثعم تريد زبيداً فجمع بني زبيد وتأهبوا لهم فدخل عمرو على أخته وقال : أشبعيني إن غداً لكتيبة . فأخبرت أباها فقال سليه ما يشبعه فقال فرق من ذرة وعنزة رباعية ـ وكان الفرق ثلاثة أصوع ـ فصنع له ذلك فجلس عليه فسلته جميعاً . وأتتهم خثعم فلقوهم وجاء عمرو فإذا لواء أبيه قد زال فقام كأنه سرحة محرقة فتلقى أباه وقد انهزموا فقال : انزل عن الفرس . فقال له : إليك يا مائق[2] . فقال له بنو زبيد : خلّه أيها الرجل وما يريد فإن قتل كفيت مؤنته وإن ظهر فهو لك . فألقى إليه سلاحه فركب ثم رمى خثعم بنفسه حتى خرج من بين أظهرهم ثم كرّ عليهم وفعل ذلك مراراً ، وحملت عليهم بنو زبيد فانهزمت خثعم وقهروا فقيل له يومئذ فارس زبيد .

وكان يقول في الجاهلية[3] : لو سرت بظعينة وحدي ما خفت أن أغلب عليها ما لم يلقني حرّاها أو عبداها ، فأما الحران فعامر بن الطفيل وعتيبة بن

---

(١) الأغاني ٤٤٢ .
(٢) المائق : الأحمق .
(٣) أغاني الأغاني ٤٤٢ ، حماسة أبي تمام ١/٤٣ .

الحارث بن شهاب ، وأما العبدان فأسود بني عبس (يعني عنترة بن شداد العبسي) والسليك بن السلكة ، وكلهم قد لقيت .

هذه بعض غزواته في الجاهلية وانتصاراته على قبائل العرب .

غزواته في الإسلام :

كان عمرو بن معدي كرب قد أخذ على نفسه عهداً أمام أبي بكر - رضي الله عنه - بعد ارتداده مع الأسود العنسي أن يجاهد في سبيل الله ، والرواية كما في الخزانة للبغدادي[1] : ارتد عمرو بن معدي كرب مع الأسود العنسي فسار إليه خالد بن سعيد فقاتله ، فضربه خالد على عاتقه فانهزم ، وأخذ خالد سيف عمرو ، فلما رأى عمرو الأمداد من أبي بكر رضي الله عنه أسلم ، ودخل على المهاجر بن أبي أمية بغير أمان ، فأوثقه وبعث به إلى أبي بكر فقال له أبو بكر : أما تستحي كل يوم مهزوماً أو مأسوراً ؟ لو عززت[2] هذا الدين لرفعك الله ، قال : لا جرم لأقبلن ولا أعود فأطلقه وعاد إلى قومه ثم عاد إلى المدينة فبعثه أبو بكر إلى الشام فشهد اليرموك وأبلى فيها بلاءً حسناً ، وقد ذهبت في هذه المعركة إحدى عينيه ثم وجهه عمر بن الخطاب إلى العراق . وله في القادسية بلاء حسن ، وهو الذي ضرب خراطيم الفيلة بالسيف فانهزمت الأعاجم ، وكان سبب انتصار المسلمين على الفرس في معركة القادسية .

وهذا تفصيل عن معركة القادسية ، قال قيس بن أبي حازم الأحمسي[3]: شهدت القادسية ، وكان على الناس سعد بن أبي وقاص فجاء رستم فجعل يمر بنا ، وعمرو بن معدي كرب يمر على الصفوف يمضي الناس وهو ابن مائة وست سنين ويقول : يا معشر المهاجرين ، كونوا أسداً أغنى شأنه ، فإنما الفارسي

---

(١) خزانة الأدب ٢/٤٤٥ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) أغاني الأغاني ٤٤٣/ .

تيس بعد أن يلقى بنيزكه (رمح صغير) وحمل على العلج فاعتنقه فسقطا إلى الأرض فقلته عمرو وسلبه .

وقد كانت لعمرو شجاعة فائقة في ميادين القتال حين سخر شجاعته وبطولته في خدمة هذا الدين وإعزازه . ويقال إن فرس عمرو كانت ضعيفة فطلب غيرها . فأتي بفرس فأخذ بعكوة ذنبه وأخلد به إلى الأرض ، فأقعى الفرس فرده وأتي بآخر ففعل به مثل ذلك فتحلل ولم يقع فقال : هذا على كل حال أقوى من ذلك ، وقال لأصحابه : إني حامل وعابر الجسر ، فإن أسرعتم بمقدار جزر الجزور وجدتموني وسيفي بيدي أقاتل به تلقاء وجهي ، وإن أبطأتم وجدتموني قتيلاً ثم حمل ، فحملوا فانتهوا إليه وقد صدع عن فرسه وقد أخذ برجل فرس رجل من الفرس فأمسكها وإن الفارس يضرب الفرس فما تقدر أن تتحرك من يده ، فرمى الأعجمي بنفسه وخلى فرسه فركبه عمرو وقال أنا أبو ثور ، كدتم تفقدونني قالوا : أين فرسك ؟ قال : رمي بنشابه فشب فصرعني وعار[1] .

ومن أقوال عمرو بن معدي كرب المشهورة في القتال يوم القادسية[2] قوله : ألزموا خراطيم الفيلة السيوف فإنه ليس لها مقتل إلا خراطيمها ثم شد على رستم وهو على الفيل فضرب فيله فجذم عرقوبيه فسقط .

ومن أشعار عمرو بن معدي كرب التي يصف فيها صبره وجلده في الحرب وشجاعته وخبرته قوله[3] :

أعاذَلَ عُدَّني بزي ورُمحي ... وكلُّ مقلِّصٍ سلسِ القيادِ[4]
أعاذلَ إنَّما أَفنى شبابَي ... إجابتي الصريخَ إلى المُنادِي

---

(1) عار : ذهب .
(2) أغاني الأغاني ١٥/٤٤٣ .
(3) العقد الفريد ١/١٢٠ ، أغاني الأغاني ١٥/٤٤٣ .
(4) عدني : شكتي ، الصريخ : المستغاث به .

مـع الأبـطال حتى سـلَّ جسمي وأقـرحَ عـاتقي حمـلُ النِجَـادِ
ويـبقى بعـد حلم القـوم ِ حـلمي ويـفنـى قبـلَ زادِ الـقـوم ِ زادي
ومـن عجـبٍ عجبتُ لـه حـديثٌ بـديـعٌ ليس من بـدع ِ السَّـدادِ
تـمـنـى أن يـلاقـيـنـي أُبَـيٌّ وددت وأيـنـمـا مـنـي وِدادي
تـمنـانـي وسـابغتي قـيمصي كـأن قَتِيـرَهـا حَـدَقُ الـجـرادِ
وسيف من لَـدُنْ كنعـانَ عنـدي تُـخُـيِّـر نـصلُهُ مـن عـهـدِ عـادِ
فـلو لاقيـتـنـي لـلقـيت لـيثـاً هـصـوراً ذا ظـبـا وشـبـا حـدادِ
ولاستـيقـنـتَ أَنَّ الـموتَ حـقٌّ وصـرّحَ شـحمُ قـلبـك عن سـوادِ
أريـدُ حـيـاتـه ويـريـد قـتـلي عَـذيـرَك من خلِيلِكِ من مـرادِ

وكان علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ إذا نظر إلى عبد الرحمن بن ملجم المرادي[1] قال :

أريـدُ حـبـاءة ويـريـد قَـتـلي عـذيـرَك مـن خـليلِك مـن مـرادِ

ثم يقول : والذي نفسي بيده لتخضبن هذه[2] من هذا . وقد وصف عمرو ابن معدي كرب الحرب وصفاً دقيقاً مستمداً من وقائعه العديدة في الجاهلية وصدر الإسلام ، وقد تعرض فيها لوصف الخيل وفرسانها حيث يقول[3] :

ومـردٍ على جـردٍ شهـدتُ طـرادَهـا قبيـلَ طلوع ِ الشمس ِ أو حينَ ذرتِ
صبحتُهـم بيـضـاءَ يبـرِقُ بـيضُـهـا إذا نـظـرتْ فيهـا العيـونُ ازمهـرتِ
ولمـا رأيتُ الخيـلَ رهـواً كـأنهـا جـداولُ زرعٍ أُرسلت فـاسبـطرتِ

(١) هو الذي قتل علي بن أبي طالب غدراً .
(٢) يقصد أن لحيته سوف يملأها الدم من عبد الرحمن بن ملجم .
(٣) الأصمعيات ١٢١/٣٤ ، حماسة أبي تمام ١/٤٤ ، وتاريخ الأدب العربي ١/٢٧٦ .

وجــاشــت إلــى الـنـفـس أولَ وهــلـةٍ ... وروت على مكـروهِـا فـاستقـرت[1]

عــلامَ تقـولُ الـرمـحُ يثَقُـل عـاتقي ... إذا أنــا لم أطعن إذا الخيـلُ كـرّتِ

عقــرتُ جـوادَ ابني دريـدٍ كليهمــا ... ومـا أخـذتني في الختـونـة عـزتي[2]

لحــا الله جـرمــاً لكمــا ذر شــارقٌ ... وجـوهَ كـلابٍ هـارشْت فـازبـأرتِ

ظـللتُ كـأنــي لـلرمــاحِ دريئــةٌ ... أقــاتـلُ عن أبنــاء جـرم وفــرتِ[3]

فلم تغنِ جــرمُ نهـدهــا إذ تـلاقتــا ... ولكن جـرماً في اللقـاءِ ابـذعـرتِ[4]

فـلو أَن قَـومي أنطقتني رمــاحـهم ... نــطقْتُ ولـكـن الـرمــاحَ أجـرَّتِ

فلا شك أن هذا الفـارس الشاعر قد وصف هذه المواقف الحماسيـة من واقع حروبه ومغازيه في الجاهلية وصدر الإسلام ، وعمرو بن معدي كرب ليس غريباً في هذه المعاني المطروقة من ذكر البطولة والأبطال والجيـاد والكر والفر وهو منطقي مع نفسه فكراً وشعراً وكان صادقا في مواقف عدة حيث ذكر هروب قومه من أعدائه ، وهذا واضح في قوله[5] :

ولَــقــدْ أَجــمــعَ رجـلـي بِـهَــا ... حــذَر الــمــوت وإنــي لــفــرورْ

ولــقــد أعــطفــهــا كــارســة ... حين لـلنفس من المـوت هَــريــرْ

كــل مــا ذلــك مــنــي خــلق ... وبـكــلٍّ أنــا في الــرَوعِ جــديــرْ

ومما يؤ يد رأينـا أن عمر بن الخـطاب كان شـديد الإعجـاب بفـروسية وشجـاعة عمـرو بن معدي كـرب حيث أخرج الـطبراني عن محـمـد بن سـلام

---

(1) في الاصمعيـات ، وجاشت ، وفي الحمـاسة فجُاشت وفي الأصمعيات وهلة ، وفي الحماسة مرة .

(2) الختونة : الختن ، أبو امرأة الرجل وأخو امرأته .

(3) الدريئة : الحلقة التي يتعلم الرامي الطعن والرمي عليها .

(4) نهد قبيلة : لم تغنها جرم ، ابذعرت : فرت من الميدان وتفرقت .

(5) فرور : كثير الفرار ، الروع : الحرب أو الخوف .

الجمحي قال[1] كتب عمر إلى سعد : إني أمددتك بألفي رجل عمرو بن معدي كرب وطليحة بن خويلد .

وذكر ابن سعد عن الواقدي عن ربيعة بن عثمان لما ولي النعمان بن مقرن كتب إليه عندما توجه إلى نهاوند : إن في جندك عمرو بن معدي كرب وطليحة ابن خويلد فأحضرهما وشاورهما في الحرب .

وأخرج الدولابي في بعض الروايات قال في سنة إحدى وعشرين كانت وقعة نهاوند فقتل النعمان بن مقرن ثم انهزم المسلمون وقاتل عمرو بن معدي كرب يومئذ حتى كان الفتح ، فأثبتته الجراحة فمات بقرية روذة ، قال الوجيهي وأنشدني غيره في ذلك لدعبل بن علي الخزاعي :

لقد عادتْ الركبانُ يومَ تحملوا ... بروذةَ شخصاً لا جباناً ولا غَمْرا

فقل لزبيدٍ بل لمذحجَ كلِّها ... رزئتم أَبا ثورٍ قريع الوغى عَمْرا

وعن شجاعته يقول أبو عمرو بن العلاء لا يفضل عليه فارس في العرب ولعمرو بن معدي كرب قصيدة بلغت الحسن والجمال الأدبي فيموضوعها وهي قصيدته التي مطلعها :

أمن ريحانة الداعِي السميعُ ... يؤرقني وأصحابي هجوعُ[2]

ولهذه القصيدة قصة طريفة نوردها كما ساقتها كتب الأدب فصاحب الأغاني يقول إن ريحانة هي أخته وصاحب الأصمعيات يقول إنها زوجته ، أما صاحب الأغاني فيقول أغار الصمة بن بكر الجشمي(أبو دريد) في بني قيس على بني زبيد فاستاق أموالهم وسبى ريحانة بنت معدي كرب وانهزمت زبيد بين

---

(١) الإصابة ٢/١٩ .

(٢) أغاني الأغاني ١٥/٤٤٢ ، الإصابة ٢/٢٠ ، الأصمعيات ١٧٢/٦١ .

يديه وتبعه عمرو أخوها يناشده أن يخلي عنها فلم يفعل فلما يئس ولى وهي تناديه بأعلى صوتها يا عمرو فقال هذه القصيدة الرائعة :

أمن ريحانَة الداعي السميعُ ... يؤرقُني وأصحابي هجوعُ[1]

سبَاها الصّمةُ الجشَميُّ غصباً ... كأن بياضَ غّرتها صديعُ

وحالتْ دونَها فرسانُ قيسٍ ... تكشِّفُ عن سواعِدها الدروعُ

إذا لم تستطِعْ شيئاً فَدَعْهُ ... وجاوزه إلى ما تستطيعُ

وكيف تريدُ أَنْ تُدعْى حكيماً ... وأنت لكلِّ ما تهوى تَبُوعُ

أشابَ الرأسَ أيامٌ طوالٌ ... وهمٌّ ما تبلعه الضلوعُ

وسوقُ كتيبةٍ دلفت لأخرى ... كأنّ زهاءها رأسُ صَليعُ

وإسنادُ الأسنةِ نحو نحري ... وهزُّ المشرفيةِ والوقوعُ

فعمرو يصف هنا فراقه لأخته ريحانة وكيف أن فرسان قيس قدْ أحاطت ببني زبيد وأسروا أخته ، وقد كان في هذه القطعة كثير من الألفاظ الحربية والخيال الرفيع في تصوير بعض المشاهد في هذه الموقعة ولم ينس عمرو أن يذكر بسالته وشجاعته في قتال الصمة قائد بني جشم .

ويلخص عمرو أخر الأمر ما أعد للحرب من أدوات قتال ومن شجاعة ذاتية ومن خبرة بفنون الكر والفر ومن اعتماده على فرسه الشجاع فيقول[2] :

أعددتُ للحربِ فضفاضةً ... دلاصاً تثنى على الراهشِ[3]

وأجردَ مطرداً كالرشاءِ ... وسيفِ سلامةَ ذي فائشِ[4]

---

(١) سميع : بمعنى المسمع غيره لا السامع ، صديع : الفجر ، سباها : أسرها . تبلعه : تبلعه ، دلفت : مشت وقاربت ، والزهاء : القدر ، الصليع : جبل لا نبت فيه .

(٢) الأصمعيات رقم ٦٢/ ١٧٧ .

(٣) فضفاضة : واسعة ، دلاص : لينة ، الرواهش : عصب واحدتها راهش .

(٤) الأجرد: الرمح، مطرد: مستقيم، الرشاء : الحبل، سلامة: ذو فائش قيل من أفيال اليمن

وذات عــداد لــهــا أزمــلُ بــرتــهــا رمــاةُ بِــنــي وابشِ [1]
وكــل نــحــيض فــتــيــقِ الــغــرارِ عــزوف عــلى ظــفــرِ الــرائشَ [2]
وأجــردَ ســـاطَ كــشــاة الإرا ن ريــع فعَــن عــلى الــنــاجسِ [3]
وآوي إلــى فــرع جــرثــومــةِ وعــز يــفــوتِ عــلى الــنــاهشِ [4]
تــمــتــعــت ذاك وكَــنــت امــرءاً أصــدُّ عــنَ الــخَــلقِ الــفَــاحِش

وليس ذلك الوصف الأخاذ المنتزع من بيئة حربية ومن ألفاظ تعبق بالفخر والحماسة والنصر على الأعداء بالغريب ، ولم ينس أن يذكر حصانه الشجاع الذي كان عدة قوية له سرعته وكراً وفراً على أعدائه .

وكان من فضل الله على عمرو بن معدي كرب الذي كان له أيام مشرقة في الجاهلية وأسلم ثم ارتد في عهد أبي بكر الصديق ثم عاد إلى الإسلام بعد أن أخذ عهداً على نفسه أمام أبي بكر أن يجاهد في سبيل الله وأن يكون جندياً مخلصاً للإسلام وفعلاً خاض معارك الإسلام الفاصلة في اليرموك حيث فقد عينه ثم في القادسية حيث سحق قوة الفرس ثم في نهاوند حيث قاتل بكل بسالة وإقدام .

وكان عمر بن الخطاب شديد الإعجاب والتقدير لشجاعته حيث أرسله لسعد بن أبي وقاص وقيل للنعمان بن مقرن وعده مع طليحة بن خويلد بألفي فارس ثم استشهد عن عمر يناهز المائة والعشرين عاماً ـ فرضي الله عنه ـ صحابياً جليلاً وفارساً شجاعاً باسلاً ومسلماً باسلاً في إعزاز الإسلام ودين الله .

---

(١) وذات عداد : القوسس ، الأزمل : الصوت ، وبنو وابش : قبيلتان .
(٢) نحيض : سهم ، فتيق : عريض ، غرار : حد ، عزوف : من تسمع له صوتا .
(٣) الساط من الخيل : البعيد الخطوة ، شاة إران : الثور الوحشي ، وعن ظهر ، الناجشي : الذي يحوش الصيد .
(٤) الجرثومة : الأصل ، والناهش ، الذي تناول الشيء بفمه ليأكله .

وفاتـــه :

اختلف في وفاة عمرو فقيل مات عطشاً يوم القادسية[1] وقيل قتل في يوم القادسية مجاهداً وقيل قتل في وقعة نهاوند ، وقيل غير ذلك وكان عمره يوم وفاته مائة وعشرين سنة وقيل مائة وخمسين سنة على أن السجستاني لم يذكره في المعمرين .

ثامناً ـ النابغة الجعدي[2] :

نسبـــه :

هو أبو ليلى حسان بن قيس بن عبد الله بن جعدة بن كعب بن ربيعة ، أحد بني عامر بن صعصعة ، كانت مساكن قومه في الفلج (وهي إقليم فيه ماء كثير في جنوبي نجد) . وهو شاعر قديم معمر أدرك الجاهلية وأسلم وحسن إسلامه ، وكان أكبر من النابغة الذبياني ، وأنشد النبي ﷺ شعراً فأعجب به وقال له : لا يفضض الله فاك . ولقد أتت عليه مائة سنة وما نقص من فيه سن .

وكان ممن فكر في الجاهلية فأنكر الخمر وهجر الأزلام والأوثان وكان النابغة سيداً في قومه . وسكن النابغة المدينة زمناً ثم نازعته نفسه في أيام عثمان بن عفان إلى العيشة في البادية فاستأذن عثمان في ذلك وخرج إلى بلده فأقام فيها .

مغازيه وحروبه :

كان النابغة الجعدي فارساً شجاعاً وشاعراً مقدماً في قومه وفي العرب وقد استخدم شعره عندما أسلم في الدفاع عن الإسلام والدعوة إلى نصرة

---

(١) الخزانة ٢/٤٤٦ .
(٢) ترجمته في حماسة أبي تمام ١/٤٠١ ، الأغاني ٥/١٤٦ ، تاريخ الأدب العربي ١/٣٤٢ ، الإصابة ٣/٥٣٧ .

الرسول ﷺ ، وقد شهد النابغة الجعدي الشاعر الفارس مع جموع المسلمين فتوح بلاد فارس وشارك بسيفه في إعزاز دين الله ، ثم شهد معركة صفين مع الإمام علي بن أبي طالب وكان في ذلك الحين يسكن الكوفة .

منزلته الشعرية :

كان النابغة الجعدي شاعراً متقدماً بارعاً ، وكان مغلباً ، ما هاجى قط إلا غلب ، وهاجى ليلى الأخيلية ومطلع قصيدته في ليلى :

ألا حَيِّيا ليلى وقُولا لَها هَلا

وكلمة « هلا » كلمة زجر تزجر بها الإناث من الخيل لتقر وتسكن .

فردت عليه ليلى بقصيدة منها :

تعيرني داءٌ بأمِك مثلَه وأيُّ حَصَانٍ لا يُقال لها هَلا

فأفحمته . ومن شعره الذي كان يتغنى به قوله عندما خرج إلى صفين مع علي بن أبي طالب فساق به يوماً فقال يحدو[1] :

قد علم المصرانِ والعراقُ أنَّ عليّاً فحلُها العِتاقُ[2]
أبيض جحجاح كدرٍ واقِ وأُمه غالى بها الصداقُ
أكرتم من شُدَّ به نطَاقُ إن الأُولى جاروك لا أَفاقُوا
لهم سياقٌ ولكم سياقُ قد علمت ذلك الرفاقُ

ومن أخباره أن معاوية كتب إلى مروان بن الحكم فأخذ أهل النابغة وماله لأن النابغة كان من شيعة الإمام علي ، فدخل النابغة على معاوية وعنده مروان بن الحكم فأنشده :

---

(١) أغاني الأغاني ٥/١٤٦ .
(٢) المصران : الكوفة والبصرة والعتاق الكريم .

من راكبٌ يأتي ابنَ هندٍ بحاجتي على النأي والأنباء تنمى وتجلبُ
فإن تأخذوا مالي وأهلي بظنةٍ فإني لحراب الرجالِ محربُ
صبورٌ على ما يكره المرءُ كلّه سوى الظلمِ إني إن ظلمتُ سأغضبُ

فالتفت معاوية إلى مروان فقال : ما ترى ؟ قال : ألا ترد عليه شيئاً ؟ فقال : ما أهون والله عليك أن ينجد هذا في غار ثم يقطع عرضي علي ثم تأخذه العرب فترويه . اردد عليه كل شيء أخذته منه . ولا شك أن هذا دليل على ذيوع شأن النابغة بين العرب لخشية معاوية أن يهجوه النابغة فتسوء سيرته .

وفي رواية الإصابة[1] أن يعلى بن الأشدق تحدث في رواية طويلة فقال سمعت النابغة الجعدي يقول : أنشدت النبي ﷺ :

أتيتُ رسولَ اللهِ إذْ جاءَ بالهدى ويتلو كتاباً كالمجرة نيِّرا[2]
بلغنا السماءَ مجدُنا وجدودُنا وإنا لنرجو فوق ذلكَ مَظْهَرا

فقال النبي ﷺ أين المظهر يا أبا ليلى ؟ قلت الجنة قال : أجل إن شاء الله تعالى ثم قال :

ولا خير في حلمٍ إذا لم يَكُنْ لهْ بوادرُ تحمي صفوَه أن يكُدَّرا
ولا خيرَ في جهلٍ إذا لم يكن له حليمٌ إذا ما أورد الأمر أَصدرَا

فقال رسول الله ﷺ : لا يفضض الله فاك مرتين ، وهكذا أخرجه البزار والحسن بن سفيان في مسنديهما . وهناك رواية شبيهة بهذه أوردها مهاجر بن سليم عن عبد الله بن جراد قال سمعت نابغة بني جعدة يقول : أنشدت النبي ﷺ قولي علونا السماء (البيت) فغضب وقال أين المظهر يا أبا ليلى قلت الجنة : قال : أجل إن شاء الله ، ثم قال : أنشدني من قولك . فأنشدته ولا خير

---

(١) الإصابة ٣/٥٣٩ ، تاريخ الأدب العربي ١/٣٤٣ .
(٢) البيت الاول في تاريخ الأدب العربي ، والأبيات الأخرى في الإصابة ٣/٥٣٩ .

في حلم (البيتين) فقال لي أجدت لا يفضض الله فاك ، فرأيت أسنانه كالبرد المنهل ما انفصمت له سن ولا انفلتت .

ومن القصيدة التي تبلغ نحو مائتي بيت أولها[1] :

خليليَّ غُضَا ساعةً وتهجَرا ... ولوما على ما أَحدثَ الدهر أو ذَرَا

وجاهدت حتى ما أُحس ومَنْ معي ... سهيلاً إذا ما لاح ثم تَحَورا

أقيم على التقوى وأَرضى بِفعلها ... وكنت من النار المخوفةِ أَحذرا

فإننا نشاهد هنا شيوع الألفاظ الإسلامية والتعابير القرآنية التي كانت من دلائل إيمان النابغة الأصيل في الإسلام ويقول في وصف الخيل[2] :

وإنا لقومٌ ما نعوِّدُ خيلنَا ... إذا ما التقينا أن تحيدَ وَتْنفِرَا

وننكرُ يومَ الروعِ أَلوانَ خيلِنا ... من الطعنِ حتى نحسب الجونَ أَشقرا

وليس بمعروف لنا أن نردهَا ... صحاحاً ولاَ مستنكراً أَن تعفرا

حسبنا زماناً كلَّ بيضاء شحمةً ... ليالي إذ نغزو جذاماً وحميرا

إلى أن لقينا الحيَّ بكرَ بنَ وائلٍ ... ثمانين ألفا دارعين وحُسّرا[3]

فلما قَرعنا النبعَ بالنبع بعضَه ... ببعض أبتْ عِيدانُه أَنَ تكسرا[4]

سقيناهم كأساً سقونا بمثلها ... ولكننا كنا على الموتِ أَصْبَرَا

فقد اختار النابغة هذه الألفاظ الخاصة بالخيل ، ثم تباهى بأيام قومه وانتصاراتهم على أعدائهم ثم كان دقيقاً في وصف الجياد ، حيث أن خيلهم ما تعودت أن تفر من الميدان حتى إن خيولهم في الميدان لا تعرف ألوانها من كثرة

---

(١) أغاني الأغاني ٥/١٤٧ ، الإصابة ٣/٥٣٩ .

(٢) نفس المصدر .

(٣) دارعين : عليهم الدروع ، الحسر : من لا درع له .

(٤) النبع : الشجر الصلب .

خوض المعارك . ثم يذكر إيقاع قومه ببني حمير وجذام ، ثم كانت قبيلته تحتمل الصبر على المكاره في الميدان ثم إنهم ضربوا المثل الأعلى في الإقدام والشجاعة .

وكان النابغة مقدماً ومحبواً عند صحابة رسول الله ﷺ من ذلك ما يرويه عروة عن أبيه عن عمه عبد الله بن عروة قال ألحت السنة على نابغة بني جعدة فدخل على ابن الزبير في المسجد الحرام فأنشده[1] :

حكيتَ لنا الصدِّيقَ لما وليتَنا ... وعثمانَ والفاروقَ فارتاحَ مُعدِمُ

وسوّيتَ بين الناس في الحق فاستووا ... فعاد صباحاً حالكُ الليلِ مظلمُ

أتاك أبو ليلى تجوب به الدُّجى ... دُجى الليلِ جوابُ الفلاة عرمرمُ

لِتَجْبُرَ منه جانباً دعدعتْ بِهِ ... صروفُ الليالي والزمان المصمّمُ

فقال ابن الزبير هون عليك يا أبا ليلى فإن الشعر أيسر وسائلك عندنا ، لك في مال الله حقان : حق لرؤ يتك رسول الله ﷺ وحق لشركتك أهل الإسلام في نيتهم ، ثم أخذ بيده فدخل به دار النعم وأعطاه سبع قلائص وحملاً وخيلاً وأوقر الركاب براً وتمراً وثياباً ، فجعل النابغة يستعجل ويأكل الحب صرفاً ، فقال ابن الزبير : ويح أبي ليلى لقد بلغ به الجهد . فقال النابغة : أشهد لسمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما وُلِّيتْ قريش فعدلت واسترحمت فرحمت وحدثت فصدقت ووعدت خيراً فأنجزت ، فأنا والنبيون وأطر التابعين » .

وفاته[2] :

اختلف في وفاته فالأغاني تروي أنه عمر أكثر مائة وثمانين سنة اعتماداً على قوله :

---

(١) الإصابة ٣/٥٤٠ ، أغاني الأغاني ٥/١٤٧ .

(٢) الأغاني ٥/١٤٦ .

لبستُ أُناساً فأفنيتُهم وأفنيتُ بعد أُناسٍ أَناسَا
ثلاثة أهلين أفنيتُهم وكان الإله هو المستأسا

فقال له عمر بن الخطاب : كم عشت مع كل أهل قال : ستين سنة .
وقال عن النبي ﷺ : لقد رأيته وقد أتت عليه مائة سنة أو نحوها وما انفض من فيه سن .

أما حماسة أبي تمام فقال إنه عاش مائة سنة ، وكذلك يروي صاحب طبقات الشعراء أن وفاته كانت في أصفهان سنة ٦٥ هـ في آواخر خلافة مروان بن الحكم، وقد كف بصره وزادت سنه على مائة سنة .

وبعد . . فقد درسنا النابغة الجعدي الصحابي الجليل مؤمناً بالإسلام ومصدقاً بالرسول ومجاهداً في سبيل الله في معاركه الفاصلة في يوم القادسية مع الفرس ، ثم كان لنا وقفة مع شعره الإسلامي الذي اتخذه وسيلة نافعة في الدعوة إلى الله ولله دره في شعره الإسلامي :

الحمدُ لله لا شريكَ له من لم يقلْها فنَفَسه ظَلَمَا(١)

ويقول . . . . :

وعَمرت حتى جاء أحمدُ بالهُدى وقوارعُ تتلى من القُرآن
ولبست في الإسلام ثوباً واسعاً من سيب لا حرم ولا منّانِ

فقد ختم له بخاتمة الخير والموت على دين الإسلام والاعتزاز بهذا الدين الذي أنقذ العرب من الضلالة إلى النور فرحمة الله على النابغة وجزاه الله خير الجزاء .

---

(١) الإصابة ٣/٥٣٨ .

تاسعاً ـ العباس بن مرداس السلمي[1] :

نسبـه :

هو العباس بن مرداس بن أبي عامر بن حارثة بن عبد قيس بن رفـاعة بن يحيى بن الحارث بن بهثة بن سليم أبو الهيثم السلمي ، وأمه الخنساء الشاعـرة تماضر بنت عمرو بن الشريد .

كان العباس فارساً شاعراً مخضرماً شديد العارضة والبيان سيداً في قـومه مطاعاً فيهم وكان يهاجي خفاف بن ندبه السلمي ثم تمادى الأمر بينهما إلى ان احتربا وكثرت القتلى بينهما .

قصة إسلامـه :

روى ابن سعد رواية عن إسلام عباس بن مرداس[2] قال فيهـا : حدثني عكرمة بن فروخ السلمي عن معاوية بن جاهمة بن عباس بن مرداس قال : قال عباس بن مرداس : لقيته ﷺ وهو يسير حين هبط المشلل ونحن في آلة الحرب والحديد ظاهر علينا والخيل تنازعنا الأعنة فصففنا لرسول الله ﷺ وإلى جنبه أبو بكر وعمر ، فقال رسول الله ﷺ يا عيينة هذه بنو سليم قد حضرت فما ترى من العدة والعدد فقال : يا رسول الله جاءهم داعيك ولم يأتني ، أما والله إن قومي لمعدون مؤدون في الكراع والسلاح وإنهم لأحلاس الخيل ورجال الحرب ورماة الحدق . فقال عباس بن مرداس : اقصر أيها الرجل فوالله إنك لتعلم أنا أفرس على متون الخيل وأطعن بالقنا وأضرب بالمشرفية منك ومن قومك فقال عيينة :

---

(١) ترجمته ـ في الإصابة ٢/٢٧٢ ، تاريخ الأدب العربي ١/٢٧١ . حماسة أبي تمام ١/١٦٦ ، الشعر والشعراء ٢/٧٤٦ ، الأصمعيات ٢٠٤/٧٠ ، الطبقات ٤/٢٧١ .

(٢) طبقات ابن سعد ٤/٢٧١ .

كذبت وخنت لنحن أولى بما ذكرت منك . قد عرفته لنا العرب قاطبة ، فأومأ إليهما النبي ﷺ بيده حتى سكتا .

ويقال إنه وفد في وفد من قومه في تسعمائة رجل قبل فتح مكة بيسير وعندما علم أن الرسول قد توجه إلى فتح مكة فلحق به وأدركه في كريد وهو ماء في منتصف الطريق بين مكة والمدينة فأسلم ومن معه ، وانضموا إلى جيش الرسول ، واشتركوا في فتح مكة ، ويبدو أن إسلام العباس كان في أول الأمر كان لأهداف دنيوية[١]، فإنه بقي مدة في عداد المؤلفةقلوبهم ثم حسن إسلامه.

شاعريتـــه :

كان العباس بن مرداس شاعراً مقدماً وفارساً شجاعاً ، دارت أشعاره حول الفخر والحماسة والحروب بين بني سليم وأعدائهم ، وله شعر في الهجاء وله أشعار في يوم حنين وألفاظه خشنة عليها الجفاء والغلظة الأعرابية . ومن أخباره أن عبد الملك بن مروان سأل جلساءه من أشجع الناس فتكلموا في ذلك فقال : أشجع الناس العباس بن مرداس في قوله[٢] :

أكــرُّ عـلى الـكـتـيـبـةِ لا أُبـالـي   أَحــتـفــي كان فـيــهـا أَم سِــوَاهــا

نماذج من شاعريته في الفروسية :

قال في الحماسة والفخر[٣] .

لأسمــاءَ رسمُ أصبحَ اليــومَ دارســاً   وأقفــر منهـا رحــرحـان فَـراكِسَا[٤]

---

(١) تاريخ الأدب العربي ١/٢٧٢ .
(٢) الإصابة ٢/٢٧٢ .
(٣) الأصمعيات رقم ٧٠ ، حماسة أبي تمام ١/١٦٩ .
(٤) أقفر : إذا وجد قفراً ، رحرحان وراكس : موضعان . تضوع : انتشر ، والترجل ، تسريح الشعر وتنظيمه ، جرد : قطع ، الأنفس : الأحب .

تضوعَ منها المسكُ حتى كأنمّا ترجلُ بالريحانِ رطباً ويابِسَا

فبتنا قعوداً في الحديدِ وأَصبحوا على الركبان يحردون الأنافسا

فلم أر مثلَ الحي حياً مصبّحا ولا مثلنا يوم التقينا فوارسَا[1]

أكرُّ وأحمي للحقيقة منهم وأضرب منا بالسيوف القَوانِسَا[2]

إذا ما شددنا شدةً نصبوا لنا صدورَ المذاكي والرماحَ المداعسا[3]

إذا الخيلُ جالتْ عن صريعٍ نكرُّها عليهم فما يرجعن إلا عوابسا[4]

فعباس في أبياته هذه يفتخر بأنه يهجم على أعدائه مع فوارس بني سليم حيث لم يجد حياً داهمه إلا حلت الهزيمة به كهذا الحي الذي هجمنا عليه بفوارس شجعان من سليم ونحن أحمى للحقيقة وأثبت في الميدان منهم ونحن أضرب بالسيوف وأطعن بالرماح وهم إذا هجمنا عليهم ثبتوا في وجوهنا ونصبوا صدور الخيل والرماح ، وإذا جالت الخيل عن مصرع منهم لا يقنعنا ذلك بل نكرها عليهم .

ويقول[5] :

نطاعنُ عن أحسابِنا برماحِنا ونضربُهم ضربَ المذيد الخَوامِسَا[6]

---

(١) المصبح : الذي يغار عليهم في الصباح .

(٢) الأكر : الأكثر كراً ، الحقيقة : ما يدافع المرء عنه من مال وعرض ، القوانس : جمع قونس ، وهو أعلى بيضة الرأس .

(٣) المذاكي : جمع مذك ، وهي الخيل التامة السن الكاملة القوة ، المداعس : من الداعس ، وهو الرمح الشديد الذي لا ينثني .

(٤) جالت : أي دارت عنه ، عوابس : جمع عابس وهو الغضوب المكثر .

(٥) الأصمعيات ٧٠/٢٠٦ .

(٦) المذيذ الذي يعينك على ما تريد ، الخوامس : الإبل التي وردت خمساً .

وكنت أَمـام الـقـوم ِ أولَ ضـارب ٍ	وطـاعنت إذ كان الـطعان تَخـالُسَا[١]
فـإن يقتلوا منـا كـريـمـاً فـإننـا	أبـأنـا بـه قتلى تـذلُّ المعـاطسـا[٢]
قتلنـا بـه في ملتقى الخيـل ِ خمسةً	وقـاتله زدنـا مـع الليـل سَـادِسَـا[٣]
وكنـا إذا مـا الحـرب شَبَت نشبُّـهـا	ونضـرب فيهـا الأبلخ المُتَقـاعِسَـا[٤]
فـأبنـا وأبقى طعننـا من رمـاحِنـا	مـطاردَ خـطي وحمـراً مِـداعِسَـا
وجرداً[٥]كأن الأُسـدَ فـوق متـونهـا	من القـوم مـرؤ وِسـاً وآخـر رَائِسـا[٦]

ويكمل عباس بن مرداس بهذه التحفة الحربية الرائعة وصف معركـة بني سليم مع أعدائهم ، ثم يحشد هذه الألفاظ القتالية والمعاني الشجاعة والخيال الـرائع والعـاطفة المتأججة ، ويسـوق ذلك كله في أسلوب متين وعبـارة رفيعة للقارىء حتى يعرف منزلة العباس وقومه بين قبائل العرب .

ويبدو في هذه الأبيات صعوبة في الألفاظ وغـرابة في بعض التصـاوير ، وهذا غير مستغرب على شاعر بدوي عاش في البادية ولم يسكن المدن حتى في إسلامه لم يسكن المدينة ولا مكة[٧] ، وكان يغزو مع النبي ﷺ ويرجع إلى بلاد قومه وكان ينزل بوادي البصرة وكان يأتي البصرة كثيراً ، وروى عنـه البصريـون وبقية ولده ببادية البصرة وقد نزل قوم منهم البصرة .

---

(١) تخالسا : غرة .

(٢) أباءه به : قتله به : البواء : السواء والكف ، المعاطس : الأنوف .

(٣) قتلنا به : السيد الكريم المذكور .

(٤) الأبلخ : المتكبر ، المتقاعس : الذي لا يطأطىء رأسه .

(٥) المطرود : المطارد ، الرمح القصير ، الخطي : الرماح المنسوبة للخط بالبحرين .

(٦) جرداً : خيلاً ، متونها : ظهورها .

(٧) الشعر والشعراء ٢/٧٤٨ ، طبقات ابن سعد ٤/٢٧٣ .

قصته مع الرسول ﷺ في توزيع غنائم حنين :

بعد أن انهزم المشركون في حنين هزيمة منكرة في السنة الثامنة من الهجرة وزع رسول الله ﷺ الغنائم على المسلمين وقد أعطى عيينة بن حصن والأقرع بن حابس وسواهم مائة من الإبل وأعطى العباس بن مرداس أربعة من الإبل ، فقال يعاتب الرسول ﷺ :

كَانَتْ نِهَاباً تلافيتُها ... وكرّي على القوم بالأَجرعِ [(١)]

وحثي الجنودَ لكي يُدلجوا ... إذا هجعِ القومُ لم أَهجَعِ [(٢)]

فأصبح نَهبي ونهبُ العُبيدِ ... بين عيينة والأقرعِ [(٣)]

إلا أفائِلَ أُعطيتُها ... عديدُ قوائمِه الأربعِ [(٤)]

وما كان بدرٌ ولا حابسٌ ... يفوقان مرداسَ في المجمعِ [(٥)]

وقد كنتُ في الحربِ ذا تَدْرَأٍ ... فلم أُعطَ شيئاً ولم أُمنعِ [(٦)]

وما كنت دون امرىء منهما ... ومن تضَع اليومَ لا يُرفعِ

فالعتاب هنا رقيق من العباس بن مرداس لسيدنا رسول الله ﷺ فيقول إنه هو الذي استرد الإبل بعد ضياعها وقد كان ساهراً وحاثاً الجنود بعدم النوم استعداداً لحرب هوازن ثم إنه كان حريصاً على نصرة الإسلام ، ولكن النتيجة

---

(١) طبقات ابن سعد ٢/٢٧٢ ، تاريخ الأدب العربي ١/٢٧٣ . الشعر والشعراء .
(٢) ٢/٧٤٨ ، تلافيت ضياعها: استرجعتها ، الأجرع : الأرض القاسية .
(٣) في رواية وإيقاظ النوم أن يرقدوا .
(٤) العبيد : تصغير عبد وهواسم فرسه .
(٥) الأفائل : الإبل .
(٦) ذا تدرأ : أي ذا عدة وقوة .

أن عيينة بن حصن والأقرع بن حابس قد أخذا حقه ، ثم لا ينسى عباس أن يذكر بسالته وشجاعته وتقدمه بين أقوام العرب ، ثم إنه كان ذا قوة وعدة في قومه في حربه للأعداء وفي هذه الوقعة بين الرسول ﷺ وبين المشركين ولكنه لم يأخذ ما أمله ، ثم إنه لم يكن أقل شأنا من عيينة والأقرع بن حابس . ولكن ما دام الرسول ﷺ قسم بهذه القسمة فإنه يقبلها راضياً .

ومما يحكى عن هذه الحادثة ما يرويه ابن سعد في طبقاته[1] قال : فلما أنشد عباس هذه الأبيات السابقة رفع أبو بكر أبياته إلى النبي ﷺ فقال النبي ﷺ للعباس أرأيت قولك :

أصبحَ نهَبي ونهبُ العُبيدِ بين الأقرعِ وعيينة

فَقال أبو بكر : بأبي وأمي يا رسول الله ليس هكذا . قال فقال : كيف ؟ قال فأنشده أبو بكر كما قال عباس . فقال النبي ﷺ سواء ما يضرك بدأت بالأقرع أو بعيينة ، فقال أبو بكر بأبي أنت ، ما أنت بشاعر ولا راوية ولا ينبغي لك ، فقال رسول الله ﷺ اقطعوا عني لسانه ، ففزع منها أناس وقالوا أمر بعباس يمثل به فأعطاه مائة من الإبل ويقال خمسين من الإبل . ومن رواية أخرى طريفة عن عباس في عتابه للرسول ﷺ ما يقال : أخبرنا عارم بن الفضل قال ، حدثنا حماد بن سلمة عن هشام بن عروة عن عروة أن العباس بن مرداس قال أيام خيبر لما أعطى رسول الله ﷺ أبا سفيان وعيينة والأقرع بن حابس ما أعطى :

أتجعلُ نَهْبي ونَهب العُبيـ ـد بين عيينة والأقرعِ[2]
وقد كنت في القوم ذا ثروةٍ فلم أعط شيئاً ولم أُمنعِ

فقال رسول الله ﷺ : لأقطعن لسانك وقال لبلال : إذا أمرتك أن تقطع

---

(١) طبقات ابن سعد ٤/٢٧٢ .
(٢) الطبقات ٤/٢٧٣ .

لسانه فأعطه حلةً . ثم قال يا بلال اذهب به فاقطع لسانه ، فأخذ بلال بيده ليذهب به فقال : يا رسول الله ﷺ أيقطع لساني ؟ يا معشر المهاجرين أيقطع لساني ؟ يا للمهاجرين أيقطع لساني ؟ وبلال يجره فلما أكثر قال : إنما أمرني أن أكسوك حلة أقطع بها لسانك فذهب به فأعطاه حلة .

وبعد فإن العباس بن مرداس صحابي جليل وفارس مغوار أسلم وحسن إسلامه وحارب مع سيدنا رسول الله ﷺ في بعض المعارك الإسلامية الفاصلة مثل فتح مكة ، وكان العباس سيداً كريماً أبياً ويقال إنه ممن حرم الخمر في الجاهلية ، وحدث عن رسول الله ﷺ وكانت الخنساء الشاعرة أمه فهو شاعر فارس مقدام ومسلم صحابي كريم ، استخدم شجاعته عند إسلامه في نصرة الإسلام في فتح مكة ويوم حنين ـ فرضي الله عنه وأرضاه ـ .

عاشرا ـ أبو محجن الثقفي (١) :

نسبه :

اختلف في اسمه فقيل هو عمرو بن حبيب بن عمرو بن عوف بن عقدة بن عنترة بن عوف بن ثقيف ، وقيل بل إن اسمه كنيته ، وكنيته أبو عبيد وقيل اسمه مالك ، وقيل اسمه عبد الله وأمه كنود بنت عبد الله بن شمس . ويقال إن له صحبة وهو صاحب سعد بن أبي وقاص الذي أتاه وهو سكران وعلى ذلك فإن اسمه يكون مالك ، وساق أحمد الحاكم عن طريق أبي سعد البقال عن أبي محجن قال : أشهد على رسول الله ﷺ أنه قال : (أخاف على أمتي من بعدي ثلاثة : تكذيب بالقدر وتصديق بالنجوم وحيف الأئمة)(٢) .

---

(١) راجع ترجمته في الإصابة ٤/١٧٥ ، الشعر والشعراء ١/٤٢٣ ، أغاني الأغاني ١/٣٥٨ ، تاريخ الأدب العربي ١/٢٩٣ ، فتوح البلدان ٢٦ ، الكامل في التاريخ ٢/٢٣٠ .

(٢) الإصابة ٤/١٧٤ .

ولكن الذي أراه أن اسمه مالك حقيقة ، وذلك ما حدث بـه أبو العبـاس الثقفي قال : حدثنا زياد بن أيوب حدثنا أبو معاوية حدثنا عمرو بن المهاجر عن إبراهيم بن محمد بن سعد عن أبيه قال : لما كان يوم القادسية أتى سعـد بأبي محجن وهو سكران فأمر به فقيد ، وكان بسعد جـراحة فـاستعمل على الخيـل خالد بن عرفطة وصعد سعد فـوق البيت ينظر مـا يصنع الناس وذلك في قصـة سأوردها فيما بعد .

وفاتــه :

يقال إن أبا محجن ذهب للجهاد في بلاد فارس فتوفي بها ودفن بأذربيجان وقيل بجرجـان في عام ٢٨ هـ[١] ، وحـدث بعضهم عن قبر أبي محجن الثقفي فقال : مررت بقبر أبي محجن الثقفي في أذربيجان فرأيت قبره وقد نبتت عليه ثلاثة أصول كرم قد طالت وأثمرت وهي معروشة وعلى قبره مكتوب: هذا قبر أبي محجن الثقفي فوقفت أتعجب مما اتفق حتى صار كأمنية بلغها حيث يقول :

إذا متُ فـادفني إلى جنبِ كـرمـةٍ تـروّي عـظامي بعد مَوْتي عـروقُهـا
ولا تــدفـنّـني بـالـفِـلاة فـإنـني أخـاف إذا مـا متُ أَن لا أذوقُـهـا

منزلته وفروسيته :

أبو محجن الثقفي فارس شجاع ومقدام فتـاك حارب لإعـلاء كلمة الله ، وكان فارساً مشهوراً في الجاهلية وصدر الإسلام ، وهو معدود في أولي البـأس والنجدة والشهامة ، ولكن كان مولعاً بشـرب الخمر ، وشعـر أبي محجن يدور حول الخمر وفنون الشعر المشهورة في المدح والفخر والحماسة .

بلاؤه في القـادسيـة :

شهـد أبو محجن الثقفي فتـح القادسيـة وفي يوم الكتـائب[٢] في حـرب

---

(١) تاريخ الأدب العربي ١/٢٩٤ .

(٢) أغاني الأغاني ١٨/٥٣٨ .

القادسية اقتتل المسلمون والفرس منذ أصبحوا إلى أن انتصف النهار ، فلما غابت الشمس تزاحف الناس فاقتتلوا حتى انتصف اليل ، فتحاجز الناس وبات المسلمون واستلقى سعد لينام ، وكان أبو محجن قد حبسه سعد بكتاب عمر لشربه الخمر وقيده في القصر ، فصعد أبو محجن لما اشتد القتال إلى سعد يستعفيه ويستقبله فزبره ورده .

ثم قال لسلمى زوجة سعد : يا ابنة آل حفصة هل لك إلى خير ؟ قالت : وما ذاك ؟ قال : تخلين عني وتعيرينني البلقاء فلله علي إن سلمني الله أن أرجع إليك حتى أضع رجلي في قيدي فأبت فقال[1] :

كَفَى حزناً أَن ترْتَدي الخيلُ بالقَنَا ... وأَترك مشدوداً علي وثَاقِيَا
إذا قمتُ عناني الحديدُ وأغلقتْ ... مصارع دُوني قد تصمُّ المناديا
وقد كنت ذا مالٍ كثيرٍ وأخوةٍ ... فقد تركوني واحداً لا أَخَا ليا
وقد شف جسمي أنني كلَّ شارقٍ ... أعالج كبلاً مصمتاً قد بَرَانيا
فلله دري يوم أَترك موثَقَا ... وتذهل عني أُسرتي ورِجَاليا
حبيساً عن الحرب العوانِ وقد بدتْ ... وإعمال غيري يومَ ذاك العَواليَا
ولله عهد لا أَخيسُ بعَهده ... لئن فرجت أَنْ لا أزورَ الحَوانيا

فقالت له سلمى : إني قد استخرت الله ورضيت بعهدك . فأطلقته وقالت : أما الفرس فلا أعيرها ورجعت إلى بيتها ، فاقتاد أبو محجن الفرس وأخرجها من باب القصر الذي يلي الخندق فركبها ثم دب عليها حتى إذا كان بحيال الميمنة وأضاء النهار وتصاف الناس ، كبر ثم حمل على ميسرة القوم فلعب برمحه وسلاحه بين الصفين ثم رجع من خلف المسلمين إلى القلب فبدر

---

(١) الكامل في التاريخ ٢/٣٣٠ ، الأغاني ١٨/٥٣٨ ، الشعر والشعراء ١/٤٢٣ فتوح البلدان ٢٦٠ .

أمام الناس فحمل على القوم وكان يقصف العدو ليلتئذ قصفاً منكراً فعجب الناس منه وهم لا يعرفونه ولم يروه بالأمس فقال بعض القوم هذا من أوائل أصحاب هشام بن عتبة أو هشام بنفسه . وقال قوم : إن كان الخضر يشهد الحروب فهو صاحب البلقاء . وقال آخرون : لولا أن الملائكة لا تباشر القتال لقلنا هذا ملك يثبتنا . وجعل سعد يقول : وهو مشرف ينظر إليه : الطعن طعن أبي محجن ، والضبر ضبر البلقاء[1] ، ولولا محبس أبي محجن لقلت هذا أبو محجن وهذه البلقاء ، فلم يزل يقاتل حتى انتصف الليل فتحاجز أهل العسكرين وأقبل أبو محجن حتى دخل القصر ووضع نفسه عن دابته وأعاد رجليه في القيد وأنشأ يقول[2] :

لقد علمتْ ثقيفٌ غيرَ فخرٍ ... بأنا نحن أكرمهُم سُيوفَا
وأكثرُهم دروعاً سابغاتٍ ... وأصبرهم إذا كرهوا الوقوفَا
وأنا وفدهم في كل يومٍ ... فإن عميوا فسل بهم عَريفا
وليلةَ قادسٍ لم يشعروا بي ... ولم أشعر بمخرجي الزُحوفا
فَان أُحبسْ فذلكم بلائي ... وإن أُترك أُذيقهم الحتُوفَا

وقد قالت له[3] سلمى زوجة سعد : يا أبا محجن في أي شيء حبسك هذا الرجل ؟ فقال : أما والله ما حبسني بحرام أكلته ولا شربته ولكنني كنت صاحب شراب في الجاهلية وأنا امرؤ شاعر يدب الشعر على لساني فينفثه أحيانا ، فحبسني لأني قلت :

أذا متُ فادفني إلى أصلِ كرمةٍ ... تروّي عَظامي بعد موتي عُروقُها
ولا تدفنني بالفلاةِ فإنني ... أخاف إذا ما متُ أن لا أذوقُها

---

(١) الضبر : جمع القوائم ثم الوثب .

(٢) الكامل في التاريخ ٢/٣٢١ .

(٣) الكامل في التاريخ ٢/٣٣١ ، أغاني الأغاني ١٨/٥٣٩ .

وكانت سلمى قد رأت في المسلمين جولة وسعد في القصر لعلة كانت به لم يقدر معها على حضور الحرب وكانت قبله عند المثنى بن حارثة الشيباني ، فلما قتل خلف عليها سعد ـ فلما رأت شدة البأس صاحت وامثيناه ، فلطمها سعد فقالت أف لك أجبناً وغيرةً ؟ وكانت مغاضبة لسعد تلك الليلة فأتته وصالحته وأخبرته خبر أبي محجن فدعا به فأطلقه فقال : فما أنا مؤاخذك بشيء تقوله حتى تفعله . قال : لا جرم والله لا أجيب لساني إلى صفة قبيح أبداً[1] .

وهناك رواية تقول إن سعداً قال لأبي محجن بعد أن رأى[2] بلاءه يوم القادسية : لا أجلدك في الخمر أبدا ، فقال أبو محجن : وأنا والله لا أشربها أبدا ، قد كنت آنف أن أدعها من أجل جلدكم فلم يشربها بعد .

وهناك روايات أخرى تذكر أن سجن أبي محجن غير هذه الروايات من ذلك ما يرويه ابن الأعرابي عن أبي دأب[3] أن أبا محجن هوي امرأة من الأنصار يقال لها شموس فحاول النظر إليها فآجر نفسه من بناء يبني بيتاً بجانب منزلها فأشرف عليها من كوة فأنشد :

ولقد نظرتُ إلى الشموس ودونَها ... حرجٌ من الرحمنِ غيرُ قليلِ

فاستعدى زوجها عمر فنفاه ، وبعث رجلاً يقال له أبو جهراء ، كان أبو بكر يستعين به فذكر القصة .

توبة أبي محجن الثقفي عن الخمر :

بعد أن رأينا صدق إيمان أبي محجن الثقفي في الجهاد في سبيل الله ، وكيف أنه كان يخلص في جهاده ، ولم يرد أن يذكر اسمه للمجاهدين في يوم القادسية ، وبعد أن عفا عنه سعد لحسن بلائه وصدق عزيمته أخذ أبو محجن

---

(١) الكامل ٢/٣٣٢ .
(٢) الإصابة ٤/١٧٤ .
(٣) الإصابة ٤/١٧٤ .

الثقفي عهداً على نفسه بترك الخمر ، ويروي عبد الرزاق عن ابن جريح قال[1] بلغني أن عمر بن الخطاب حدّ أبا محجن الثقفي في الخمر سبع مرات، وقيل دخل أبو محجن على عمر فظنه قد شرب فقال استنكهوه فقال أبو محجن : هذا من التجسس الذي نهيت عنه . فتركه . وذكر ابن الأعرابي عن المفضل الضبي قال أبو محجن الثقفي في تركه شرب الخمر[2] :

رأيتُ الخمرَ صالحةً وفيها مناقبُ تُهلك الرجلَ الحَليما[3]
فلا والله أَشربُها حياتي ولا أَشفي بها أبداً سقيما

وهكذا فقد آب أبو محجن عن شرب الخمر ورجع إلى الله بعد أن منّ الله عليه بالهداية عندما شارك جحافل المسلمين في فتح القادسية ، ورأى أن لا فائدة في شربها ، وأخذ على نفسها عهداً بتركها ما دام حياً .

وقد أبدى من آيات البطولة والحماسة والإبداع ما جعله يستشعر هيبة الله تعالى في القتال والثبات عليه والالتجاء إلى الله تعالى في كل قتاله ، وقد أورد الطبري قصة طريفة في مشاركة أبي محجن الثقفي لجموع المسلمين في قتال الفرس يوم القادسية[4] .

حيث تقول رواية الطبري أن سلمى زوجة سعد بن أبي وقاص لم ترض بإعطاء أبي محجن الثقفي فرس سعد ، فأخذها بنفسه بعدما ذهبت سلمى وقد قالت : أما الفرس فلا أعيرها ورجعت إلى بيتها . فاقتادها وأخرجها من باب القصر الذي يلي الخندق فركبها ثم دب عليها .

---

(١) الإصابة ٤/١٧٤ .
(٢) أغاني الأغاني ١٨/٥٣٩ ـ الإصابة ٤/١٧٤ .
(٣) في الأغاني (ولا أسقي أبداً نديماً) بدلاً من (ولا أشفي بها أبداً سقيماً) .
(٤) الكامل ٢/٣٣٠ .

أما في رواية المسعودي فيقول : إن سلمى زوجة سعد أطلقته وقالت : شأنك وما أردت . فاقتاد بلقاء سعد وأخرجها من باب القصر الذي يلي الخندق فركبها ثم دب عليها حتى إذا كان بحيال ميمنة المسلمين كبر ثم حمل على ميسرة القوم يلعب برمحه وسلاحه بين الصفين فأوقف مسيرتهم وقتل رجالاً كثيراً من نساكهم ونكس آخرين ، والفريقان يرمقونه بأبصارهم وقد تنوزع في البلقاء فمنهم من قال : إنه ركبها عرياً ، ومنهم من قال بل ركبها بسرج ، ثم غاص في المسلمين فخرج في ميسرتهم وحمل على ميمنة القلب فأوقفهم يلعب برمحه وسلاحه لا يبدو له فارس إلا هتكه فأوقفهم وهابته الرجال ، ثم رجع فغاص في قلب المسلمين ثم يرز أمامهم وقف بإزاء قلب المشركين ففعل مثل أفعاله في الميمنة والميسرة وأوقف القلب ، حتى لم يبرز منهم فارس إلا اختطفه وحمل على المسلمين الحرب فتعجب الناس منه وقالوا من هذا الفارس الذي لم نره في يومنا . فقال بعضهم : هو ممن قدم علينا من إخواننا من الشام من أصحاب هاشم بن عتبة المرقال . وقال بعضهم: إن كان الخضر عليه السلام شهد الحرب فهذا هو الخضر قد منّ الله به علينا وهو علم نصرنا على عدونا . وقال قائل منهم : لولا أن الملائكة لا تباشر الحروب لقلنا إنه ملك . وأبو محجن برز كالليث الضرغام ، قد هتك فرسان الفرس كالعقاب يجول عليهم ومن حضر من فرسان المسلمين مثل عمرو بن معد يكرب وطليحة بن خويلد والقعقاع بن عمرو التميمي وهاشم بن عتبة المرقال ، وسائر قبائل العرب وأبطالها ينظرون إليه وقد حارت في أمره وأعجبت به إعجاباً فريداً .

طرائف من أشعاره في الحماسة[1] :

دخل ابن لأبي محجن الثقفي يدعى عبيد على عبد الملك بن مروان

---

(١) الإصابة ٤/١٧٥ ـ أغاني الأغاني ١٨/٥٣٩ .

وقيل على معاوية فقال : أبوك الذي يقول :

أذا متُّ فادفني إلى جنبِ كرمةٍ ... تروّي عظَامي بعد مَوتي عروقُها
ولا تدفنني بالفلاةِ فإنني ... أَخافُ إذا ما مَتُّ أَن لا أذوقُها

فقال له : لو شئت لقلت أحسن من هذا من شعره قال وما ذاك قال[1] :

لا تسأل الناسَ عن ماليِ وكثرتِه ... وسائل الناسَ عن حزمِي وعن خُلقي
اليوم أَعلم أني من سَراتِهم ... إذا تطيش يدا الرعديدة الفرقِ
قد أركب الهول مسدولا عساكرهُ ... وأكتم السرَفيه ضربة العنقِ
أُعطى السنانَ غَداةَ الروعِ حصتَه ... وحاملَ الرمحِ أرديه من العلقِ[2]
عف المطالبِ عما لست نائله ... وإن طلبت شديد الحقد والحنقِ
قد يعسر المرء حيناً وهو ذو كرم ... وقد يسوم سوام العاجز الحمقِ
سَيكُثرُ المالُ يوماً بعد قلتِه ... ويكتسي العود بعد اللين بالدرقِ

فقال معاوية : لئن كنا أسأنا القول لنحسنن الفعل وأجزل صلته . وزاد صاحب الأغاني : إذا ولدت النساء فلتلد مثلك .

وهكذا فإن أبا محجن كان فارساً مقداماً مؤمناً دافع بكل قواه عن الإسلام ، وشارك في فتوح الإسلام ، وقد اعتز بشجاعته اعتزازاً كبيراً ، ويقال إنّه لما انصرف بعد انتصار المسلمين في القادسية إلى محبسه رأته امرأة فظنته منهزماً فأنشأت تعيره بفراره[3] :

من فارسٌ كره الطعانَ يُعيرني ... رمحاً إذا انزلوا بمرج الصُفَّرِ

---

(١) الإصابة ٤/١٧٥ ـ أغاني الأغاني ١٨/٥٤٠ .
(٢) العلق : الدم .
(٣) أغاني الأغاني ١٨/٥٣٩ .

فرد عليها بقولها :

إن الكـرامَ على الجيـادِ مبيتُهـم   فَـدعي الرمـاحَ لأهلِهـا وتَعَـطّري

وقد كان أبو محجن فارساً مقدماً في بني ثقيف بالطائف يقول وهـو على الشرك قبل إسلامه عندما حاصر المسلمون الطائف وتولى تضييق الحصار عليها بنو ثمالة وسلمة وفهم ، وهذه القبائل لم تكن ذات شأن في الشهرة والقوة في الجاهلية عندها قال أبو محجن[1] :

هـابـتْ الأعـداءُ جـانـبـنَـا   ثـم تـغـزونـا بـنـو سَـلمَـة

وأتـانـا مـالـك بـهـم   نـاقـضـاً لـلعـهـد والـحُـرْمـة

وأتـونـا فـي مـنـازلـنـا   ولـقـد كـنـا أولـي نِـقْـمَـة

وبعد فقد مضى أبو محجن الثقفي الصحابي الفارس إلى ربه مجاهداً ، رغم ما كان منه في شرب الخمر فقد تاب ورجع إلى ربه صادقاً . ويكفيه أنه نصر الإسلام في أعز معاركه التاريخية في يوم القادسية ولم يكن جباناً بل إنه كان وفياً حيث خلص نفسه من السجن وركب البلقاء فرس سعد بن أبي وقاص وهتك فرسان الفرس وقهرهم ، وخاض غمار الحرب الضروس في تلك الأيام المباركة لنشر راية الإسلام والدعوة إلى عقيدة التوحيد ، فجزاه الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء .

حادي عشر ـ القعقاع بن عمرو التميمي[2] :

نسبه :

هو القعقاع بن عمرو التميمي ، أخو عاصم بن عمرو التميمي ، كان من

---

(١) تاريخ الأدب العربي ١/٢٦٥ .   (٢) الإصابة ٣/٢٣٩ .

الشجعان الفرسان في قبيلة تميم في الجاهلية والإسلام ، ويقال هو القعقاع بن عمرو بن معبد التميمي ، ويقول ابن عساكر كانت له صحبة .

بلاؤه في فتوح الإسلام الكبرى :

القعقاع بن عمرو التميمي فارس نذر نفسه لخدمة الإسلام ، وقد ساهم بكل قواه في حرب أعداء الإسلام وكان له نصيب وافر من الانتصارات على الفرس في أيام القادسية ، وهي يوم أغواث ويوم عمواس ويوم ليلة الهرير . حيث كان أسداً شجاعاً في الكر والفر والحمل على الأعداء ، حتى بلغت حملاته في أحد الأيام خمسين حملة ، وقد كان أبو بكر الصديق شديد الإعجاب به حيث قال عنه : (لصوت القعقاع في الجيش خير من ألف رجل) .

وفي رواية عن سيف عن عمرو بن تمام عن أبيه عن القعقاع بن عمرو[1] قال لي رسول الله ﷺ : ما أعددت للجهاد ؟ قلت طاعة الله ورسوله والخيل ، قال : تلك الغاية .

وأنشد سيف للقعقاع :

ولقد شهدتُ البَرقَ بَرقَ تهامةٍ يُهدي المناقبَ راكباً لعيارِ
في جندِ سيفِ اللهِ سيفِ محمدٍ والسابقين لسنةِ الأحرارِ

ومن الروايات التي تروى عن شجاعته وشهادة كبار القادة العسكريين أن عمر بن الخطاب كتب إلى سعد : أي فارس كان أفرس في القادسية ؟ فكتب إليه إني لم أر مثل القعقاع بن عمرو وحمل في يوم ثلاثين حملة يقتل في كل حملة بطلاً .

وعندما طلب خالد مدداً من أبي بكر أرسل إليه القعقاع وقال لا يهزم

---

(١) الإصابة ٣/٢٣٩ .

جيش فيه مثله . وكان القعقاع قد غنم أدراع كسرى وفيها درع لهرقل ودرع لخاقان ودرع للنعمان ، وغنم كذلك سيف النعمان وسيف كسرى فأرسلهما سعد إلى عمر بن الخطاب . وفي رواية أن القعقاع هو الذي قطع مشفر الفيل الأعظم ومن ثم كانت هزيمة الفرس .

وقد كان القعقاع بن عمرو يداً تبطش بأعداء الله بطشاً عظيماً ، وقد شهد كذلك فتوح دمشق وأكثر فتوح العراق .

نماذج من بطولته :

(١) يوم أغواث من معركة القادسية[1] :

كان القعقاع بن عمرو أحد القادة الذين جاؤ وا من الشام لإمداد أهل العراق في فتوح القادسية بأمر من عمر بن الخطاب ، وكان أمير الجيش القادم من الشام هاشم بن عتبة بن أبي وقاص وعلى مقدمته القعقاع بن عمرو التميمي ، وقد لحق القعقاع فقدم على الناس بالعراق صبيحة هذا اليوم وهو يوم (أغواث) ، وقد عهد إلى أصحابه أن يتقطعوا أعشاراً وهم ألف كلما بلغ عشرة مدى البصر سرحوا في أثارهم عشرة فقدم أصحابه في عشرة فأتى الناس فسلم عليهم وبشرهم بالجنود الأبطال ، وحرضهم على القتال وقال : (أيها الناس إني قد جئتكم في قوم والله إنهم لو كانوا بمكانكم ثم أحسوكم حسدوكم خطوتها وحاولوا أن يطيروا بها دونكم) اصنعوا كما أصنع وطلب البراز فقالوا فيه : يقول أبو بكر : لا يهزم جيش فيهم مثل هذا وسكنوا إليه ، فخرج إليه علج من علوج الفرس يسمى ذا الحاجب ، فعرفه القعقاع ، فنادى يالثارات أبي عبيد وسليط وأصحاب الجسر وتضاربا فقتله القعقاع . وجعلت خيله ترد إلى الليل وتنشط الناس وكأن لم يكن بالأمس مصيبة ، وفرحوا بقتل

---

(١) الكامل ٣٢٨ .

ذي الحاجب وانكسرت الأعاجم بذلك ، وطلب القعقاع البراز فخرج إليه الفيرزان والبنذوان ، وعند ذلك انضم إلى القعقاع الحرث بن ظبيان بن الحرث أحد بني تيم اللات ، فتبارزا فقتل القعقاع الفيرزان وقتل الحرث البنذوان ، ونادى القعقاع : يا معشر المسلمين باشروهم بالسيوف فإنما يحصد الناس بها . فاقتتلوا حتى المساء ، فلم ير أهل فارس في هذا اليوم ما يعجبهم ، وأكثر المسلمون فيهم القتل ولم يقاتل الفرس في هذا اليوم على فيل وذلك لأن توابيتها تكسرت بالأمس فاستأنفوا عملها فلم يفرغوا منها حتى كان الغد .

ومن ضروب بطولة القعقاع في هذا اليوم الأغر أنه جعل يكبر عندما يرى قطعة من أصحابه تطلع ثم يكبر المسلمون بعده ويحمل على الكفار ويحملون . وقد حمل بنو عم القعقاع عشرة عشرة على إبل قد ألبسوها وهي مجللة مبرقة . وأطافت بهم خيولهم تحميهم وأمرهم القعقاع أن يحملوها على خيل الفرس يتشبهون بالفيلة ففعلوا بهم في هذا اليوم وهو يوم أغواث ، كما فعلت فارس يوم أرماث فجعلت خيل الفرس تفر منها وركبتها خيول المسلمين .

فلما رأى الناس ذلك سروا بهم فلقي الفرس يوم أغواث أعظم ما لقي المسلمون من الفيلة يوم أرماث ، وحمل رجل من تميم مما كان يحمى العشرة يقال له سواد على رستم يريد قتله فقتل دونه ، وخرج رجل من فارس يبارز فبرز إليه الأعوف بن الأعلم العقيلي فقتله ، ثم برز إليه آخر فقتله ، وأحاطت به فوارس منهم فصرعوه وأخذوا سلاحه فعفر في وجوههم التراب حتى رجع إلى أصحابه ، وحمل القعقاع بن عمرو يوم أغواث ثلاثين حملة ، كلما طلعت قطعة حمل حملة وأصاب فيها وقتل ، فكان أخرهم بزر جمهر الهمذاني وبارز الأعور بن قطبة شهريار سجستان ، فقتل كل واحد منهما صاحبه وقاتلت الفرسان إلى انتصاف النهار .

فلما اعتدل النهار تزاحف الناس فاقتتلوا حتى انتصف الليل ، فكانت

ليلة أرماث تدعى ليلة الهدأة وليلة أغواث تدعى ليلة السواد ، ولم يزل المسلمون يرون يوم أغواث الظفر وقتلوا فيه عامة أعلاجهم وجالت فيه خيل القلب ، وعندما عادت الخيل أخذ رستم أخذاً ، وبات الناس على مثل ما بات عليه القوم ليلة أرماث ، ولم يزل المسلمون ينتمون ، فلما سمع سعد ذلك قال لبعض من عنده : إن ما تم الناس على الانتماء فلا توقظني فإنهم أقوياء على عدوهم وإن سكتوا ولم ينتم الآخرون فلا توقظني فإنهم على السواء فإن سمعتهم ينتمون فأيقظني فإن انتماءهم من السوء .

وفي هذا اليوم الذي اشتد القتال بين المسلمين وبين الفرس كان أبو محجن الثقفي في القيد ، وطلب من سلمى زوجة سعد أن تحل قيده وتعطيه البلقاء ليحارب في صفوف المسلمين ، وقد مرت هذه القصة معنا في ترجمة أبي محجن الثقفي .

وعندما قتل القعقاع بزر جمهر الهمذاني قال شعراً :

حَبوتهُ جياشةً بالنَّفسِ هدارةً مثلَ شُعَاعِ الشَّمسِ
في يومِ أغواثٍ فليل الفرسِ أنحس بالقومِ أشدَّ النحسِ
حتى تفيضَ مَعشري ونفسي

وهكذا فقد كان هذا البطل المؤمن الذي امتلأت جوانحه بحب الإسلام ونصره كان قدوة لجنوده في الاستبسال والثبات في الميدان حتى حقق الله النصر لهم على أعدائهم .

(٢) بطولة القعقاع يوم عمواس[1] :

كان عدد القتلى من المسلمين يوم أغواث ألفين بين جريح وميت ومن المشركين عشرة آلاف ، وقد اشترك صبيان المسلمين والنساء في حفر

---

(١) الكامل في التاريخ ٢/٣٣١ .

القبور ، وكان على الشهداء حاجب بن زيد ، وأما قتلى المشركين فكانـوا بين الصفين لم ينقلوا ، وكـان ذلك مما قـوى المسلمين ، وبـات البـطل المسلم الشجاع القعقاع تلك الليلة يسرب أصحابـه إلى المكان الـذي فارقهم فيـه من الأمس وقال لهم إذا طلعت الشمس ، فأقبلوا بعدها مائة مـائة ، وقـال إذا جاء هاشم فذاك وإلا جندتم للناس ففعلوا ما أمرهم به القعقاع ولا يشعر به أحـد ، وأصبـح الناس على مـواقفهم فلما ذر قـرن الشمس أقبل أصحـاب القعقـاع ، فحين رآهم كبر وكبر المسلمون وقالوا جاء المدد ، وقد كـان عاصم بن عمـرو أمـر أن يصنع مثلهـا فجاؤ وا من قبـل خفان[1] ، وتقـدموا وتكتبت الكتـائب ، واختلفوا الضرب والطعن والمدد متتابع ، فما جاء آخر أصحاب القعقـاع حتى انتهى إليهم هاشم ، فأخبر ما صنع القعقاع ، فعبى أصحـابه سبعين سبعين ، وكـان فيهم قيس بن هبيرة المعـروف بقيس بن المكشوح المـرادي ، ولم يكن من أهل الأيام إنما كان باليرموك فانتدب معه هـاشم حتى إذا خالط القلب كبـر وكبـر المسلمون وقـد أخـذوا مصـافهم وقـال هـاشم : أول قتـال المـطاردة ثم المـرامـاة ثم حمـل على المشـركين يقـاتلهم حتى خراق صفهم إلى العتيق ثم عاد .

وكان المشركون قد بـاتوا يعملون تـوابيتهم حتى أعادوهـا وأصبحوا على مواقفهم ، وأقبلت الرجالة ، مع الفيلة يحمونها أن تقطع وضنهـا ومع الـرجالـة فرسان يحمونهم إذا أرادوا كتيبة دلفوا لها بفيل واتباعه لينفروا بهم خيلهم ، فلم تنفر منهم كما كانت بالأمس ، لأن الفيل إذا كان وحده كان أوحش ، وإذا أطافوا به كان آنس ، وكان يوم عمواس من أوله إلى آخره شديداً ، المسلمون والعجم فيه سواء ، ولا تكون بينهم نقطة إلا أبلغوها يزد جرد بالأصوات فيبعث إليهم أهل النجدات وقد ألهم الله القعقاع أن يفعل ما فعله في اليومين ، وأتاح لهم بهاشم وكـان ذلك سبباً من أسباب النصـر ، وقد استبسـل المسلمون في هـذا اليـوم

---

(١) خفان : موضع قرب الكوفة ـ معجم البلدان ٢/٣٧٩ .

استبسالاً منقطع النظير ، وقاتل قيس بن مكشوح ، وكان قد قاتل مع هاشم قتالاً شديدا وحرض أصحابه ، وقال عمر بن معد يكرب : إني حامل على الفيل ومن حوله لفيل بإزائهم فلا تدعوني أكثر من جزر جزور فإن تأخرتم عني فقد تم أبا ثور (يعني نفسه) ، وأين لكم مثل أبي ثور ؟ فإن أدركتموني وجدتموني وفي يدي السيف . فحمل وضرب فيهم حتى ستره الغبار ، وحمل أصحابه فأفرج المشركون عنه بعدما ضرعوه وإن سيفه لفريده يصارعهم ، وقد طعن فرسه فأخذ برجل فرس أعجمي فلم يطق الجري فنزل عنه صاحبه إلى أصحابه ، وركبه عمرو وبرز فارس فبرز له شبر بن علقمة ، وكان قصيراً فترجل الفارس إليه فاحتمله وجلس على صدره ، ثم أخذ سيفه ليذبحه ومقود فرسه مشدود في منطقته ، فلما سل سيفه نفر الفرس فجذبه المقود فقلبه عنه ، وتبعه المسلم فقتله وأخذ سلبه فباعه باثني عشر ألفاً ، فلما رأى سعد الفيول قد فرقت بين الكتائب وعادت لفعلها يوم أرماث أرسل إلى القعقاع وعاصم ابني عمرو اكفياني الأبيض وكانت كلها آلفة وكان بإزائهم ، وقال لحمال والزبيل : اكفياني الأجرب وكان بإزائهما فأخذ القعقاع وعاصم رمحين أصمين لينين وتقدما في خيل ورجل ، وفعل حمال والزبيل بمثل فعلهما فلما خلطوهما اكتنفوهما فنظر كل واحد منهما يمينه ويسرة وهما يريدان أن يتخبطا فحمل القعقاع وعاصم والفيل متشاغل بمن حوله فوضعا رمحيهما في عيني الفيل الأبيض فنفض رأسه فطرح ساسته ولى مشفره فضربه القعقاع فرمى به ووقع لجنبه وقتلوا من كان عليه وحمل حمال والزبيل الأسديان على الفيل الآخر وهو متشاغل بملاحظة من اكتنفه فطعنه حمال في عينه فأقعى ثم استوى ، وضربه الزبيل فأباء مشفره ، وبصر به سائسه فبقر أنفه وجبينه بالطبرزين فأفلت الزبيل جريحاً ، فبقي الفيل متحيراً بين الصفين كلما جاء صف المسلمين وخزوه وإذا أتى صف المشركين نخسوه، وولى الفيل وكان يدعى الأجرب .

وقد عور حمال عينيه فألقى نفسه في العتيق فاتبعته الفيلة . فخرقت صف الأعاجم فعبرت في أثره فأتت المدائن في توابيتها وهلك من فيها . فلما ذهبت

الفيلة وخلص المسلمون والفرس ومال الظل وتزاحف المسلمون فاجتلدوا حتى أمسوا على السواء ، فلما أمسى الناس اشتد القتال صبر الفريقان فخرجا على السواء . وعندما فعل القعقاع بالفيلة ما فعل من تعطيلها عن مهاجمة المسلمين قال شعراً[1] :

حضضَ قومي مضرحي بنُ يَعمرِ	فلله قومي حينَ هَزوا العَواليا
وما خَام عنها يومَ سارتْ جموعُنا	لأهل قديسٍ يمنعونَ المَواليَا
فإن كنتَ قاتلتَ العدو فللته	فإني لألقى في الحروبِ الدَواهيا
فيولاً أَراها كالليوثِ مغيرةً	أسملُ أَعياناً لها ومآقِيا

وهكذا فقد كان القعقاع عقلاً مدبراً وفارساً مجرباً في هذه المعركة ، حيث استخدم ذكاءه في إهلاك الفيلة التي استخدمها الفرس في حرب المسلمين ، وكان عاصم أخوه كذلك بطلاً فارساً سمل عيون الفيلة كأخيه ، وقد استنجد سعد بن أبي وقاص في هذا الموقف الحرج بمهارة القعقاع في تخليص المسلمين من أذى هذه الفيلة ، التي لم يعهد العرب في جاهليتهم مثلها حتى وفق الله القعقاع لهذه الحيلة في القضاء عليها .

(٣) بطولة القعقاع في ليلة الهرير وقتل رستم[2] :

سميت ليلة الهرير بذلك لترك الكلام فيها وإنما كانوا يهرون هريراً وقد أرسل سعد طليحة الأسدي وعمرو بن معد يكرب إلى مخاضة أسفل العسكر ليقوما عليها خشية أن يأتيه القوم منها ، ثم قال لهما : إن وجدتما القوم قد سبقوكما إليها فانزلا بحيالهم ، وإن لم تجداهم علموا بها فأقيما حتى يأتيكما أمري .

فلما أتياها قال طليحة : لو خضنا وأتينا الأعاجم من خلفهم فقال عمرو :

---

(١) الكامل في التاريخ ٢/٣٣٣ .

(٢) الكامل في التاريخ ٢/٣٣٤ .

بل نعبر أسفل فافترقا ، وأخذ طليحة وراء العسكر وكبر ثلاث تكبيرات ، ثم ذهب وقد ارتاع أهل فارس ، وتعجب المسلمون وطلبه الأعاجم فلم يدركوه ، وأما عمرو فإنه أغار أسفل المخاضة ورجع ، وخرج مسعود بن مالك الأسدي ، وعاصم بن عمرو التميمي وابن ذي البردين الهلالي ، وابن ذي السهمين ، وقيس بن هبيرة الأسدي وأشباههم ، فطاردوا القوم فإذا هم لا يشعرون ولا يريدون غير الزحف ، فقدموا صفوفهم وزاحفهم الناس بغير إذن سعد ، فأصيب ليلتئذ خالد بن يعمر التميمي ثم العمري .

وكان أول من زاحفهم القعقاع ـ وقال سعد عندئذ : اللهم اغفرها له وانصره فقد أذنت له إذا لم يستأذني . ثم قال : أرى الأمر ما فيه فإذا كبرت ثلاثاً فاحملوا ، وكبر واحدة فلحقهم سعد فقال اللهم اغفرها لهم وانصرهم ، ثم حملت النخع فقال : اللهم اغفرها لهم وانصرهم ، ثم حملت بجيلةفقال: اللهم اغفرها لهم وانصرهم ، ثم حملت كندة فقال : اللهم اغفرها لهم وانصرهم ، ثم زحف الرؤساء ورحى الحرب تدور على البطل المسلم القعقاع .

وتقدم حنظلة بن الربيع وأمراء الأعشار وطليحة وغالب ، وحمال وأهل النجدات ، ولما كبر الثالثة لحق الناس بعضهم بعضاً وخالطوا القوم واستقبلوا الليل استقبالاً بعدما صلوا العشاء ، وكان صليل الحديد فيها كصوت القيون[1] ، ومكثوا ليلتهم إلى الصباح ، وأفرغ الله الصبر عليهم إفراغا ، وبات سعد بليلة لم يبت بمثلها ، ورأى العرب والعجم ليلة لم يروا مثلها قط ، وانقطعت الأصوات والأخبار عن سعد ورستم ، وأقبل سعد على الدعاء ، فلما كان عند الصبح انتمى الناس فاستدل بذلك على أنهم الأعلون ، وكان أول شيء سمعه نصف الليل الباقي صوت القعقاع بن عمرو وهو يقول :

نحن قَتَلْنَا مَعشرا وزَائِداً أَربعةً وخمسةً وواحدا

(١) القيون : جمع قين وهو الحداد .

نحسبُ فوقَ البلدِ الأساور   حتى إذا ماتوا دعوتُ جاهدا
الله رَبي واحترزت عَامِرَا

نتائج القتال :

بعد أن اشتد القتال بين المسلمين والفرس وطلب سعد من الله النصر ، وهو الذي كان مستجاب الدعوة ، قتل المسلمون رؤساء عديدين من الفرس ، فقد قتلت كندة تركاً الطبري وكان مقدماً في الفرس ، وأصبح الناس ليلة الهرير وتسمى ليلة القادسية من بين تلك الليالي وهم حسرى لم يغمضوا ليلتهم كلها فسار القعقاع في الناس : إن الدائرة بعد ساعة لمن بدأ القوم فاصبروا ساعة واحملوا فإن النصر مع الصبر ، وآثروا الصبر على الجزع فاجتمع إليه جماعة من الرؤساء وصمدوا لرستم حتى خالطوا الذين دونه مع الصبح ، فلما رأت ذلك القبائل قام فيها رؤساؤهم وقالوا ، لا يكونن هؤلاء أجد من أمر ار منكم ، ولا هؤلاء (الفرس) أجرأ على الموت منكم ولا أسخى أنفا على الدنيا تنافسوها ، فحملوا فيما يليهم ، وخالطوا من بإزائهم فاقتتلوا حتى قام قائم الظهيرة ، فكان أول مزال الفيرزان والهرمزان فتأخروا وثبتا حتى انتهيا ، وانفرج القلب وركد عليهم النقع وهبت ريح عاصف فقلعت طيارة رستم عن سريره فهوت في العتيق وهي دبور ، ومال الغبار عليهم ، وانتهى القعقاع ومن معه إلى السرير فعثروا به ، وقد قام رستم عنه حين أطارت الريح الطيارة إلى بغال قد قدمت عليه بمال يومئذ ، فهي واقفة فاستظل في ظل بغل فحمله ، وضرب هلال بن علقمة الحمل الذي تحته رستم فقطع حباله ووقع عليه أحد العدلين ولا يراه هلال ولا يشعر به ، فأزال عن ظهره فقارا ، وضربه هلال ضربة فنفخت مسكا ، ومضى رستم نحو العتيق فرمى بنفسه فيه واقتحمه هلال عليه ، فتناوله وقد عام وهلال قائم وأخذ برجليه ثم خرج به فضرب جبينه بالسيف حتى قتله ثم ألقاه بين أرجل البغال ، ثم صعد السرير وقال : قتلت رستم ورب الكعبة إلي إلي فأطافوا به ولا يحسونه السرير ولا يرونه فنفله سعد سلبه ، وكان قد أصابه الماء ولم يظفر بقلنسوته ولو ظفر بها لكانت قيمتها مائة ألف ، وقيل إن هلالاً لما قصد رستم

رماه رستم بنشابة أثبت قدمه بالركاب فحمل عليه هلال فضربه فقتله ، ثم احتز رأسه وعلقه ونادى قتلت رستم ، فانهزم قلب المشركين ، وقام الجالينوس ونادى الفرس إلى العبور ، وأما المقترنون فإنهم جشعوا[1] فتهافتوا في العتيق فوخزهم المسلمون برماحهم فما أفلت منهم مخبر ، وهم ثلاثون ألفاً وأخذ ضرار بن الخطاب درفش كابيان وهو العلم الأكبر الذي كان للفرس فعوض منه ثلاثين ألفاً وكانت قيمته ألف ألف ومائتي ألف .

وكان من نتائج هذه المعركة الحاسمة في تاريخ الإسلام أن قتل المسلمون عشرة آلاف من الفرس سوى من قتلوا في الأيام قبله ، وقتل من المسلمين قبل ليلة الهرير ألفان وخمسمائة وقتل ليلة الهرير ويوم القادسية من المسلمين ستة آلاف فدفنوا في الخندق حيال مشرق ، ودفن من كان قبل ليلة الهرير على مشرق .

وجمعت الأسلاب والأموال فجمع منها شيء لم يجمع قبله ولا بعده مثله ، وأرسل سعد إلى هلال فسأله عن رستم فأحضره فقال : جرده إلا ما شئت فأخذ سلبه فلم يدع عليه شيئاً ، وأمر سعد القعقاع وشرحبيل باتباعهم حتى بلغا مقدار الخرارة من القادسية ، وخرج زهرة بن الحوية التميمي في آثارهم في ثلاثمائة فارس ، ثم أدركه الناس فلحق المنهزمين والجالينوس يجمعهم فقتله زهرة وأخذ سلبه ، وقتلوا ما بين الخرارة الى اليلمين إلى النجف وعادوا من أثر المنهزمين ومعهم الأسرى .

وقد شوهد شاب من النخيع وهو يسوق ثمانين رجلاً أسرى من الفرس ، واستكثر سعد سلب الجالينوس فكتب فيه إلى عمر بن الخطاب فكتب عمر إلى سعد تعمد إلى مثل زهرة ، وقد صلى بمثل ما صلى به وقد بقي عليك من حربك ما بقي تكسر قرنه وتفسد قلبه أمضِ له سلبه وفضله على أصحابه عند عطائه بخمسمائة .

---

(١) جشعوا : جبنوا وحرصوا على الحياة .

ولما اتبع المسلمون الفرس كان الرجل يشير إلى الفارسي فيأتيه فيقتله ، وربما أخذ سلاحه فقتله به ، وربما أمر رجلين فيقتل أحدهما صاحبه ، ولحق سلمان بن ربيعة الباهلي وعبد الرحمن بن ربيعة بطائفة منهم قد نصبوا راية ، وقالوا لا نبرح حتى نموت ، فقتلهم سلمان ومن معه ، وكان قد ثبت بعد الهزيمة بضعة وثلاثون كتيبة استحيوا من الفرار وقصدهم بضعة وثلاثون من رؤساء المسلمين ، لكل كتيبة منها رئيس . وكان قتال أهل الكتائب من الفرس على وجهين : منهم من هرب ومنهم من ثبت حتى قتل .

وكان ممن هرب من أمراء الكتائب الهرمزان وكان بإزاء عطارد ، ومنهم أهود وكان بإزاء حنظلة بن الربيع وهو كاتب النبي ﷺ ، ومنهم زاد بن بهيش ، وكان بإزاء عاصم بن عمرو ، ومنهم قارن وكان بإزاء القعقاع ، وكان ممن ثبت وقتل شهريار بن كنارا ، وكان بإزاء سلمان بن ربيعة ، وابن الهزبذ وكان بإزاء عبد الرحمن بن ربيعة ، والفرخان الأهوازي وكان بإزاء بسر بن أبي رهم الجهني ، ومنهم خشد سوم الهمذاني ، وكان بإزاء ابن الهذيل الكاهلي ، وتراجع الناس من طلب المنهزمين وقد قتل مؤذنهم فتنازع المسلمون في الأذان حتى كادوا يقتتلون ، وأقرع سعد بينهم فخرج سهم رجل فأذن ، وفضل أهل البلاء من أهل القادسية عند العطاء بخمسمائة وهم خمسة وعشرون رجلاً منهم زهرة وعصمة الضبي والكلج ، وأما أهل الأيام قبلها ، فإنهم فرض لهم على ثلاثة آلاف فضلوا على أهل القادسية ، فقيل لعمر بن الخطاب لو ألحقت بهم أهل القادسية فقال : لم أكن لألحق بهم من لم يدركهم ، وقيل لو فضلت شجن العدو وما سويت بينهم حتى استبطأتهم وهل فعل المهاجرون بالأنصار إذ قاتلوا بغنائم مثل هذا ؟

وكانت العرب تتوقع وقعة العرب مع الفرس . وأهل فارس بالقادسية فيما بين العذيب إلى عدن أبين وفيما بين الأبلة وأيله يرون أن ثبات ملكهم وزواله بها . وكانت في كل بلد مصيخة إليها تنظر ما يكون من أمرها حتى إن كان الرجل ليريد الأمر فيقول : لا أنظر فيه حتى أنظر ما يكون من أمر القادسية ،

فلما كانت وقعة القادسية سارت بها الجن فأتت بها أناساً من الإنس فسبقت أخبار الإنس إليهم وكتب سعد بن أبي وقاص بالفتح إلى عمر بن الخطاب وبعدة من قتلوا وبعدة من أصيب من المسلمين وسمى من يعرف مع سعد بن عميلة الفزاري .

وكان من شغف عمر بن الخطاب يسأل الركبان حين يصبح إلى انتصاف النهار عن أهل القادسية ، ثم يرجع إلى أهله ومنزله فلما لقي البشير سأله من أين ؟ فأخبره ، قال : يا عبد الله هزم الله المشركين ؟ وعمر يخب معه يسأله والآخر يسير على ناقته لا يعرفه حتى دخل المدينة . وإذا الناس يسلمون عليه بإمرة أمير المؤمنين . قال البشير : هلا أخبرتني رحمك الله أنك أمير المؤمنين : فقال عمر : لا بأس عليك يا أخي .

وأقام المسلمون بالقادسية في انتظار قدوم البشير ، وأمر عمر الناس أن يقوموا على أقباضهم ويصلح أحوالهم ويتابع إليهم أهل الشام ممن شهد اليرموك ودمشق .

وجاء أولهم يوم أغواث وآخرهم بعد الغد يوم الفتح ، فكتبوا فيهم إلى عمر يسألونه عما ينبغي أن يشار فيه مع نذير بن عمرو. وقيل كانت وقعة القادسية سنة ست عشرة ولكن بعض أهل الكوفة يقولون إنها كانت سنة خمس عشرة وقد ذكرت سابقاً أنها كانت سنة أربع عشرة .

وهكذا فقد كان القعقاع أسداً هصوراً وبطلاً مقداماً في جهاده لإعلاء كلمة الله ، وقد كان له نصيب وافر في حرب الفرس في أيام القادسية كما ذكرت سابقاً كيوم أرماث ويوم أغواث ويوم عمواس ، وما أحوج مسلمي اليوم أن يرجعوا إلى الله رجوعاً صادقاً ، ويتمسكوا بكتاب الله شريعة ونظاماً للحياة ، ثم يسترجعوا مقدساتهم في كافة أقطار العالم الإسلامي .

فجزى الله القعقاع بن عمرو التميمي عن الإسلام خير الجزاء وأجزل له المثوبة والمغفرة .

الثاني عشر : المثنى بن حارثة الشيباني[1] :

نسبـــه :

هو المثنى بن حارثةبن سلمةبن ضمضمةبن سعد بن مرة بن ذهل بن سنان الربعي الشيباني من قبيلة بكر بن ربيعة ذات الأنفة والعزة ، وهذه القبيلة العربية كان لها تاريخ في الجاهلية حيث كسـرت شوكـة الفرس في الجـاهلية في يـوم ذي قار ، وقد أطلق العرب على هذه القبيلة لقب ربيعـة الأسد وربيعـة الفرس نظراً لما تحلت به من الشجاعة والإقدام .

وبنو شيبان فخذ من ربيعة بـل هم في الذروة العليـا ، فجميع قـادة بني ربيعة كانوا من شيبان في معركة يوم ذي قار التي أسلفنا ذكرها في أيام العرب في الجاهلية ، وكان يضرب بهم المثـل في البأس والشـدة ، وقيل (كـاثر بشيبـان وحارب بشيبان) .

وعلى هذا فإن المثنى بن حارثة الشيباني هو أحد أبطال بني شيبان وربيعة الذين أيد الله بهم الإسلام وحمى بهم الأوطان ، وقد كان المثنى بن حارثة أول بطل عربي حارب الفرس في الجاهلية وهاجم الإمبراطورية الفارسية ثم كان أول فـارس إسلامي جمـع جموع العـرب المسلمين في الجزيـرة العـربيـة لحـرب الفرس .

إسلامــه :

كـان المثنى بن حارثـة يقيم مع قـومه على شـواطىء الفـرات ، وكـانت الأخبار تصل إليه عن الرسول والدعوة الإسلامية ، وقد تأكد من انتشار الإسلام

---

(١) انظر ترجمته في طبقات ابن سعد ٧/٢٣٩ ، الإصابة ٣/٣٦١ ، فتوح البلدان ٢٤٢ ـ الكامل في التاريخ ٢/٢٩٧ .

(٢) البطولة الحقة ٣٨٩ .

في جزيرة الإسلام ودخول الناس في دين الله أفواجاً ، وبعد أن تقصى الأخبار حضر مع وفد من بني شيبان إلى المدينة ليسلموا ، وفعلاً قابلوا الرسول ﷺ وأسلموا سنة تسع من الهجرة[1] .

وقال ابن حبان للمثنى صحبة[2] وقال عمرو بن شبة كان المثنى بن الحارثة يغير على السواد[3] ، فبلغ أبا بكر خبره فقال : من هذا الذي تأتينا وقائعه قبل معرفة نسبه ؟ فقال له قيس بن عاصم المنقري : هذا رجل غير خامل الذكر ولا مجهول النسب ولا ذليل العماد ، هذا المثنى بن حارثة الشيباني .

بداية فتوح المثنى بن حارثة[4] :

قدم المثنى على أبي بكر الصديق رضي الله عنه فقال له : يا خليفة رسول الله ابعثني على قومي فإن فيهم إسلاماً أقاتل بهم أهل فارس وأقتل أهل ناحيتي من العدو . فكتب له أبو بكر بذلك عهداً ، فقدم المثنى العراق ونزل خفان ، ودعا قومه إلى الإسلام فأسلموا ، ثم بدأ القتال وأغار على أهل السواد وفارس ، وبعث أخاه مسعوداً إلى أبي بكر يسأله المدد ، فأمده بخالد بن الوليد فكان ذلك ابتداء فتوح العراق .

بطولته الخارقة :

كان للمثنى بطولة خارقة في قهر أعداء الله من الفرس وله أخبار ووقائع مشهورة . وقد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يسمي المثنى مؤمر نفسه . وقال أبو عمر كان إسلامه وقدومه على النبي ﷺ سنة تسع وقيل سنة عشر ويقول

---

(١) الاستيعاب ٤/١٤٥٦ .

(٢) الإصابة ٢/٣٦١ .

(٣) فتوح البلدان .

(٤) الإصابة ٢/٣٦١ ـ فتوح البلدان ٢٤٢ ـ البطولة الحقة ٣٨٩ .

عنه ابن عبد البر[1] (كان المثنى شجاعاً شهماً بطلاً ميمون النقيبة حسن الرأي والإمارة ، أبلى في حروب العراق بلاء لم يبله أحد) .

وفاتـــه :

ذكر السراج أن المثنى مات سنة أربع عشرة قبل القادسية ، فلما مات تزوجت زوجته سلمى بنت جعفر سعد بن أبي وقاص .

بلاؤه في معارك الإسلام :

أولاً ـ فتوح العراق :

ذكرت من قبل كيف أن المثنى أخذ عهداً من أبي بكر الصديق بأن يوليه على قومه ثم يتجه إلى حرب الفرس على شواطىء الفرات ، وفعلاً فقد أمد أبو بكر المثنى بسيف الله المسلول خالد بن الوليد ، وأمره أن يسير إلى العراق ، ويقال بل وجهه من المدينة[2] . وكتب أبو بكر إلى المثنى يأمره بالسمع والطاعة لخالد بن الوليد ، وكان مذعور بن عدي العجلي قد كتب إلى أبي بكر يعلمه حاله وحال قومه ويسأله توليته قتال الفرس . فكتب إليه أبو بكر يأمره أن ينضم إلى خالد فيقيم معه ، فلما نزل خالد أنباج لقيه المثنى بن حارثة بها . وكان أبو بكر قد أوصى عمر بن الخطاب[3] بالمبادرة بإرسال الجيوش إلى العراق لنجدة المثنى بن حارثة .

فلما أصبح عمر من الليلة التي مات فيها أبو بكر كان أول عمل أن ندب الناس مع المثنى بن حارثة الشيباني إلى أهل فارس قبل صلاة الفجر ، ثم بايع

---

(١) انظر الاستيعاب ٤/١٤٥٦ ، الإصابة ٣/٣٦٢ .

(٢) فتوح البلدان ٢٤٢ .

(٣) الكامل في التاريخ ٢/٢٩٧ .

الناس ثم ندب الناس وهو يبايعهم ثلاثاً ولا ينتدب أحد إلى فارس ، وكانوا أثقل الوجوه على المسلمين وأكرهها إليهم لشدة سلطانهم وشوكتهم وقهرهم الأمم ، فلما كان اليوم الرابع ندب الناس إلى العراق ، فكان أول منتدب أبو عبيد بن مسعود الثقفي وهو والد المختار وسعد بن عبيدة الأنصاري ، وسليط بن قيس وهو ممن شهد بدراً ، وتتابع الناس .

وتكلم المثنى بن حارثة فقال : أيها الناس ، لا يعظمن عليكم هذا الوجه ، فإنا قد فتحنا ريف فارس وغلبناهم على خير شقي السواد وشاطرناهم ونلنا منهم واجترأنا عليهم .

ولنا إن شاء الله ما بعدها . فاجتمع الناس ، فقيل لعمر[1] : لو تأمر عليهم رجلاً من السابقين من المهاجرين أو الأنصار ؟ قال : لا والله لا أفعل إنما رفعهم الله بسبقهم ومسارعتهم إلى العدو فإذا فعل فعلته قوم وتثاقلوا هم كان الذين ينفرون خفافاً وثقالاً ويسبقون إلى الدفع أولى بالرياسة منهم ، والله لا أؤمر عليهم إلا أولهم انتداباً . ثم دعا أبا عبيد وسعداً وسليطاً وقال لهما ، لو سبقتماه لوليتكما ولأدركتما بها إلى مالكما من السابقة . فأمر أبا عبيد على الجيش وقال له : اسمع من أصحاب رسول الله ﷺ وأشركهم في الأمر ، ولا تجتهد صرعاً حتى تتبين ولم يمنعني سليطاً إلا سرعته في الحرب وفي التسرع إلى الحرب ضياع الأعراب فإنه لا يصلحها إلا الرجل المكيث ، وأوصاه بجنده ، فكان بعث أبي عبيد أول جيش سيره عمر ، ثم بعده سير يعلى بن منبه إلى اليمن وأمره بإجلاء يهود نجران بوصية رسول الله ﷺ وأن لا يجتمع بجزيرة العرب دينان[2] .

وقد قال ابن جرير الطبري في تاريخه[3] كان أول بعث بعثه عمر بعث أبي عبيد ثم يعلى بن أمية إلى اليمن وأمره بإجلاء يهود نجران لوصية رسول الله ﷺ

---

(١) الكامل في التاريخ ٢/٣٠٠ .
(٢) الكامل في التاريخ ٢/٢٩٨ .
(٣) تاريخ الطبري ٣/٢٠٠ .

في مرضه بذلك ، ولوصية أبي بكر رحمه الله بذلك في مرضه وقال: ائتهم ولا تفتنهم عن دينهم ، ثم أجلهم من قام منهم على دينه ، واقرر المسلم وامسح أرض كل من تجلى منهم ، ثم خيرهم البلدان وأعلمهم أنا نجليهم بأمر الله ورسوله أن لا يترك بجزيرة العرب دينان ، فليخرجوا من أقام على دينه منهم ، ثم نعطيهم أرضاً كأرضهم إقراراً لهم بالحق عن أنفسنا ، ووفاء بذمتهم فيما أمر الله من ذلك . بدلاً بينهم وبين جيرانهم من أهل اليمن فيما صار لجيرانهم بالسريف .

ثانياً ـ ذكر خبر النمارق[1] :

سار أبو عبيد الثقفي وسعد بن عبيد وسليط بن قيس والمثنى من المدينة ، وقد أمر عمر المثنى بالتقدم إلى أن يأتيه أصحابه ، وأمر هؤلاء القادة باستنفار من حسن إسلامه من أهل الردة ففعلوا ، وسار المثنى فقدم الحيرة ، وكانت الفرس قد تشاغلت عن المسلمين بموت شهربراز حتى اصطلحوا على سابور بن شهريار بن أردشير فثارت به آزر ميدخت فقتلته وقتلت الفرخزاد وملكت بوران ، وكانت عدلاً بين الناس حتى يصطلحوا .

فأرسلت إلى رستم بن الفرخزاد بالخبر وحثته على السير ، وكان على فرج خراسان فأقبل لا يلقى جيشاً لآزرميدخت إلا هزمه حتى دخل المدائن فاقتتلوا ، وهم سياوخش وحصده وآزرميدخت بالمدائن ثم افتتحها رستم وقتل سياوخش وفقأ عين آزر ميدخت ونصب بوران ودعته إلى القيام بأمر أهل فارس وشكت إليه تضعضعهم وإدبار أمرهم على أن تملكه عشر سنين ثم يكون الملك في آل كسرى إن وجدوا من غلمانهم أحداً وإلا ففي نسائهم . فقال رستم : أما أنا فسامع مطيع غير طالب عوضاً ولا ثواباً فقالت بوران : اغد علي . فغدا عليها ، ودعت مرازبة فارس وأمرتهم أن يسمعوا له ويطيعوا وتوجته فدانت له فارس قبل قدوم أبي عبيد ، وكان منجماً حسن المعرفة به وبالحوادث ، فقال له بعضهم ما

---

(١) انظر الكامل في التاريخ ٢/٢٩٨ .

حولك على هذا الأمر وأنت ترى ما ترى ؟ قال : حب الشرف والطمع . ثم قدم المثنى الحيرة في عشرة أيام وقدم أبو عبيد بعده بشهر فكتب رستم بالدهاقين أن يثوروا بالمسلمين وبعث في كل رستاق رجلاً يثور بأهله فبعث جابان إلى فرات بادقلي وبعث نرسي إلى كسكر ووعدهم يوماً وبعث جند المصادمة المثنى ، وبلغ المثنى الخبر فضم إليه مسالحه فحذر ، وعجل جابان ونزل النمارق وثاروا وتوالوا على الخروج وخرج أهل الرساتيق من أعلى الفرات إلى أسفله .

وخرج المثنى من الحيرة فنزل خفان لئلا تؤتى من خلفه بشيء يكرهه وأقام حتى قدم عليه أبو عبيد ، ويقول المثنى في يوم النمارق شعراً بعد أن أخذ استعداده .

غَلبنا على خُفَّان بيداً مشيحةً ... إلى النخلاتِ السمرِ فوقَ النمارقِ[1]

وإنا لنرجو أَن تجول خيولُنا ... بشاطي الفراتِ بالسيوفِ البوارقِ

وقد أقام المثنى حتى قدم عليه أبو عبيد ، فلما قدم لبث أياماً يستريح هو وأصحابه . واجتمع إلى جابان بشر كثير فنزل النمارق وسار إليه أبو عبيد فجعل المثنى على الخيل ، وكان على مجنبتي جابان جشنس ماه ومردانشاه ، فاقتتلوا بالنمارق قتالاً شديداً فهزم الله أهل الفرس ، وأُسر جابان أسره مطر بن فضة التيمي ، وأُسر مردانشاه أسره أكتل بن شماخ العكلي فقتله ، وأما جابان فإنه خدع مطراً وقال له : هل أن تؤمني وأعطيك غلامين أمردين خفيفين في عملك وكذا وكذا ؟ ففعل ، فخلا عنه ، فأخذه المسلمون وأتوا به أبا عبيد وأخبروه أنه جابان وأشاروا عليه بقتله ، فقال : إني أخاف الله أن أقتله وقد أمنه رجل مسلم ، والمسلمون في التودد والتناصر كالجسد الواحد . فقالوا : إنه الملك قال : وإن كان لا أغدر . فتركه .

(١) الكامل في التاريخ ٢٩٩/٢ .

ثالثاً ـ وقعة السقاطية بكسكر[1] :

بعد انهزام الفرس في النمارق لحق المنهزمون منهم نحو كسكر ، وبها نرسي وهو ابن خالة الملك ، وكان له النرسيان وهو نوع من التمر يحميه لا يأكله إلا ملك الفرس أو من أكرموه بشيء منه ولا يغرسه غيرهم ، واجتمع إلى النرس الفالة وهو في عسكره ، فسار أبو عبيد إليهم من النمارق فنزل على نرسي بكسكر ، وكان المثنى بن حارثة ما زال في تعبيته التي قاتل فيها بالنمارق ، وكان على مجنبتي نرسي بندويه وتيرويه ابنا بسطام خال الملك ومعه أهل باروسما والزوابي ، ولما بلغ الخبر بوران ورستم بهزيمة جابان بعثا الجالينوس إلى نرسه ، فلحقه قبل الحرب ، فعاجلهم أبو عبيد فالتقوا أسفل كسكر بمكان يدعى السقاطية ، فاقتتلوا في صحارى ملس قتالاً شديداً ، وثم انهزمت فارس وهرب نرسي ، وغلب المسلمون على عسكره وأرضه وجمعوا الغنائم . فرأى أبو عبيد من الأطعمة شيئاً كثيراً فنفله من حوله من العرب ، وأخذوا النرسيان فأطعموه الفلاحين ، وبعثوا تحجسه إلى عمر وكتبوا إليه إن الله أطعمنا مطاعم كانت الأكاسرة تحميها وأحببنا أن تروها لتشكروا إنعام الله وإفضاله .

وأقام أبو عبيد وبعث المثنى إلى باروسما ، وبعث والقاً إلى الزوابي ، وعاصماً إلى نهرجور ، فهزموا من كان تجمع وأضربوا وسبوراً أهل زندورد وغيرها وبذل لهم فروخ وفراونداذ عن أهل باروسما والزوابي وكسكر الجزاء معجلاً ، فأجابوا إلى ذلك وصاروا صلحاً ، وجاء فروخ وفراونداذ إلى أبي عبيد بأنواع الطعام والأخبصة وغيرها . . فقال : هل أكرمتم الجند بمثلها ؟ فقالوا : لم يتيسر ونحن فاعلون . وكانوا يتربصون قدوم الجالينوس . فقال أبو عبيد لا حاجة لنا فيه ، بئس المرء أبو عبيد إن صحب قوماً من بلادهم استأثر عليهم بشيء ، ولا والله لا آكل ما أتيتم به ولا مما أفاء الله إلا مثل مايأكل أوسطهم ،

---

(١) الكامل في التاريخ ٢/٣٠٠ .

فلما هزم الجالينوس أتوه بالأطعمة أيضاً فقال : ما آكل هذا دون المسلمين فقالوا له : ليس من أصحابك أحد إلا وقد أتي بمثل هذا . فأكل حينئذ .

رابعاً ـ وقعة الجالينوس :

لما بعث رستم الجالينوس أمره أن يبدأ بنرسي ، ثم يقاتل أبا عبيد ، فبادره أبو عبيد إلى نرسي فهزمه ، وجاء الجالينوس فنزل بباتسياثا باروسما ، فسار إليه أبو عبيد وهو على تعبيته والتقوا بها فهزمهم المسلمون ، وهرب الجالينوس وغلب أبو عبيد على تلك البلاد ، ثم ارتحل حتى نزل الحيرة .

وكان عمر قد قال له إنك تقدم على أرض المكر والخديعة والخيانة والجبرية ، تقدم على قوم تجرؤ وا على الشر فعلموه ، وتناسوا الخير فجهلوه ، فانظر كيف تكون واحرز لسانك ولا تفشين سرك[1] ، فإن صاحب السر ما يضبطه متحصن لا يؤتى من وجه يكرهه ، وإذا ضيعه كان بمضيعة . وكان المثنى في هذه المعركة كالأسد الهصور الذي يفتك بأعدائه من الفرس وجنوده معه أشد ما يكونون شجاعة وفتوة واستبسالاً في الجهاد .

خامساً ـ وقعة الجسر وبطولة المثنى فيها واستشهاد أبي عبيد[2] :

عندما رجع الجالينوس إلى رستم منهزماً ومعه جنده قال رستم لرجاله :أي العجم أشد على العرب فيما ترون قالوا بهمن جاذويه المعروف بذي الحاجب ، وإنما قيل له ذا الحاجب لأنه كان يعصب حاجبيه بعصابة ليرفعهما كبرا ، فوجهه رستم مع فيلة وردّ الجالينوس معه ، وقال رستم لبهمن إذا انهزم جالينوس ثانية فاضرب عنقه .

فأقبل بهمن جاذويه ومعه درفش كابيان[3] (راية كسرى) ، وكانت

---

(١) الكامل في التاريخ ٢/٣٠١ ، تاريخ الرسل والملوك للطبري ٢/٤٥٤ .

(٢) الكامل في التاريخ ٢/٣٠١ .

(٣) درفش : الراية فارسية معربة .

مصنوعة من جلود النمر بعرض ثمانية أذرع وطول اثنتي عشرة ذراعاً ، فنزل بقس الناطف ، وأقبل أبو عبيد فنزل بالمروحة فرأت دومة امرأته أم المختار الثقفي ابنه أن رجلاً نزل من السماء بإناء فيه شراب فشرب أبو عبيد ومعه نفر فأخبرت بها أبا عبيد فقال : لهذه إن شاء الله الشهادة . وعهد إلى الناس فقال : إن قتلت فعلى الناس فلان فإن قتل فعليهم فلان حتى أمر الذين شربوا من الإناء على الولاء من كلامه ، ثم قال فإن قتل فعلى الناس المثنى بن حارثة الشيباني .

وبعث إليه بهمن جاذويه : إما أن تعبروا إلينا وندعكم والعبور ؛ وإما أن تدعونا نعبر إليكم . فنهاه الناس عن العبور ونهاه سليط أيضاً ، فلج وترك الرأي وقال : لا يمكن أن يكونوا أجرأ على الموت منا . فعبر إليهم على جسر عقده ابن صلوبا للفريقين . وضاقت الأرض بأهلها واقتتلوا ، فلما نظرت الخيول إلى الفيلة والخيل عليها التجافيف رأت شيئاً منكراً لم تكن رأت مثله ، فجعل المسلمون إذا حملوا على الفرس لم تقدم خيولهم . وإذا حملت الفرس على المسلمين بالفيلة والجلاجل فرقت خيولهم وكراديسهم ورموهم بالنشاب واشتد الأمر بالمسلمين ، فترجل أبو عبيد والناس ومشوا إليهم ثم صافحوهم بالسيوف فجعلت الفيلة لا تحمل على جماعة إلا دفعتهم فنادى أبو عبيد : احتوشوا الفيلة واقطعوا بطانها ، واقلبوا عنها أهلها . ووثب هو على الفيل الأبيض فقطع بطانه ووقع الذين عليه،وفعل القوم مثل ذلك فما تركوا فيلاً إلا حطوا رحله وقتلوا أصحابه ، وأهوى الفيل لأبي عبيد فضربه أبو عبيد بالسيف وخبطه الفيل بيده فوقع فوطئه الفيل وقام عليه ، فلما بصر به الناس تحت الفيل خشعت أنفس بعضهم ثم أخذ اللواء الذي أمره بعده ، فقاتل الفيل حتى تنحى عن أبي عبيد فأخذه المسلمون فأحرزوه ، ثم قتل الفيل الأمير الذي بعد أبي عبيد ، وتتابع سبعة أنفس من ثقيف كلهم يأخذ اللواء ويقاتل حتى الموت .

ثم أخذ اللواء المثنى فهرب عنه الناس ، فلما رأى عبد الله بن مرثد الثقفي ما لقي أبو عبيد وخلفاؤه وما يصنع الناس بادرهم إلى الجسر فقطعه وقال : يا أيها الناس موتوا على ما مات عليه أمراؤكم وتظفروا ، وجاز

المشركون المسلمين إلى الجسر فتواثب بعضهم إلى الفرات فغرق من لم يصبر وأسرعوا فيمن صبر وحمى المثنى وفرسان من المسلمين الناس وقال أنا دونكم فاعبروا على هيئتكم ولا تدهشوا فإنا لن نزايل حتى نراكم من ذلك الجانب ولا تغرقوا نفوسكم . فعبروا الجسر وفي هذه الموقعة قاتل عروة بن زيد الخيل وأبو محجن الثقفي قتالاً شديداً ، وقاتل أبو زيد الطائي وكان نصرانياً حمية للعربية ، وذلك أنه قدم الحيرة لبعض أمره ونادى المثنى من عبر نجا فجاء علوج الفرس فعقدوا الجسر وعبر الناس ، وكان آخر من قتل عند الجسر سليط بن قيس وعبر المثنى وحمى جانبه فلما عبر ارفض عنه أهل المدينة حتى لحقوا بالمدينة وتركها بعضهم ونزلوا البوادي وبقي المثنى في قلة .

وكان قد جرح وأثبت فيه حلق من درعه ، وأخبر عمر عمن سار في البلاد من الهزيمة استحياء ، فاشتد عليه ذلك وترحم عليهم وقال : اللهم إن كل مسلم في حل مني أنا فئة كل مسلم يرحم الله أبا عبيد لو كان انحاز إلي لكنت له فئة . وهلك من المسلمين يومئذ أربعة آلاف بين قتيل وغريق وهرب ألفان وبقي ثلاثة وقتل من الفرس يومئذ ستة آلاف .

وأراد بهمن العبور خلف المسلمين فأتاه الخبر باختلاف الفرس وأنهم قد ثاروا برستم ونقضوا الذي بينهم وبينه وصاروا فريقين : الفهتلوج على رستم ، وأهل فارس على الفيرزان . فرجع إلى المدائن وكانت هذه الواقعة في شعبان . وكان فيمن قتل بالجسر عقبة وعبد الله ابنا قبطي بن قيس وكانا قد شهدا أحداً ، وقتل معهما أخوهما عباد ولم يشهد معهما أحداً ، وقتل أيضاً قيس بن السلكة بن قيس أبو زيد الأنصاري وهو بدري لا عقب له ، وقتل يزيد بن أبي قيس بن الخطيم الأنصاري وقد شهد أحداً ، وفيها قتل أبو آمنة الفزاري وله صحبه ، والحكم بن مسعود أخو أبي عبيد وابنه جبر بن الحكم بن مسعود .

وفي هذا اليوم يقول الأعور العبدي الشني[1] :

---

(١) الكامل ٢/٣٠٥ .

١ ـ هَـاجَت لأَعور دارُ الحي أحـزاناً　　واستبـدلتْ بعد عبـد القيسِ خُفَـانَـا
٢ ـ أزمانَ سارَ المُثنى بـالخيولِ لهم　　فقتَّـل الـزحفَ من فـرسٍ وجِيـلانـاَ

سادساً ـ ذكر وقعة أليس الصغرى وبطولة المثنى بن حارثة[١] :

لما عاد ذو الحاجب لم يشعر جابان ومردانشاه بما جاء من الخبر فخرجا حتى أخذا بالطريق، وبلغ المثنى فعلهما فاستخلف على الجيش عاصم بن عمرو التميمي وخرج في جريدة خيل يريدهما فظنا أنه هـارب فاعتـرضاه فـأخذهمـا أسيرين ، وخرج أهل أليس على أصحابهما فأتوه بهم أسرى وعقد لهم بها ذمة وقتلهمـا وقتـل الأسـرى وهـرب أبـو محجن الثقفي من أليس ولم يـرجـع مـع المثنى بن حـارثة . وقـد كان المثنى في هـذا الوقت أميـراً شجاعـاً يلم شعث المسلمين الذين تفرقوا بعد هزيمتهم في الجسر .

سابعاً ـ ذكر وقعة البويب[٢] :

لما بلغ عمر خبر وقعة أبي عبيد بالجسر ندب الناس إلى المثنى ، وكان فيمن ندب بجيلة وأمرهم إلى جرير بن عبد الله لأنه كان قد جمعهم من القبائل وكانوا متفرقين فيها ، فسأل النبي ﷺ أن يجمعهم فوعده ذلك ، فلمـا ولي أبو بكر تقاضاه بما وعده النبي ﷺ فلم يفعل فلما ولي عمر طلب ذلك دعاه بالبينة فأقامها له فكتب إلى عماله أنـه ممن كان ينسب إلى بجيلة في الجـاهلية وثبت عليه في الإسلام فأخرجوه إلى جرير ففعلوا ذلك .

فلما اجتمعوا أمرهم عمر بالعراق وأبوا إلا الشام ، فعزم عمر على العراق وينفلهم ربع الخمس فأجابوا وسيرهم إلى المثنى بن حارثة ، وبعث عصمة بن عبد الله الضبي فيمن تبعه إلى المثنى وكتب إلى أهل الردة فلم يأته أحد إلا رمى

---

(١) الكامل ٢/٣٠٣ وتاريخ الطبري .
(٢) الكامل في التاريخ ٢/٣٠٣ ، فتوح البلدان ٢١٨ .

به المثنى ، وبعث المثنى الرسل فيمن يليه من العرب فتوافدوا إليه في جمع عظيم ، وكان فيمن جاءه أنس بن هلال النمري من النمر نصارى وقالوا نقاتل مع قومنا .

وبلغ الخبر رستم والفيرزان فبعثا مهران الهمذاني إلى الحيرة فسمع المثنى ذلك وهو بين القادسية وخفان فاستبطن فرات بادقلي وكتب إلى جرير وعصمة وكل من أتاه ممداً له يعلمهم الخبر ويأمرهم بقصد البويب فهو الموعد ، فانتهوا إلى المثنى وهو بالبويب ومهران بإزائه من وراء الفرات ، فاجتمع المسلمون بالبويب (مما يلي الكوفة اليوم) وأرسل مهران إلى المثنى يقول إما أن تعبروا إلينا وإما أن نعبر اليك . فقال المثنى : اعبروا . فعبر مهران ونزل شاطىء الفرات وعبى المثنى أصحابه وكان في رمضان ،فأمرهم بالإفطار ليقووا على عدوهم فأفطروا ، وكان على مجنبتي المثنى بشير بن الخصاصية وبسر بن أبي رهم وعلى مجردته أخوه المعنى وعلى الرجل أخوه مسعود وعلى الرد مذعور .

وكان على مجنبتي مهران بن الأزاذبة مرزبان الحيرة ومردانشاه وأقبل الفرس في ثلاثة صفوف مع كل صف فيل ورجلهم أمام فيلهم ولهم زجل .

فقال المثنى للمسلمين إن الذي تسمعون فشل فالزموا الصمت وائتمروا همساً ، ودنوا من المسلمين ، وطاف المثنى في صفوفه يعهد إليهم وهو على فرسه الشموس وإنما سمي بذلك للينه وكان لا يركبه إلا إذا قاتل فوقف على الرايات راية راية يحرضهم ويأمرهم بأمره ويهزهم بأحسن ما فيهم ويشجعهم .

يقول : إني لأرجو أن لا يؤتى الناس من قبلكم اليوم ، والله ما يسرني اليوم لنفسي شيء إلا وهو يسرني لعامتكم فيجيبونه بمثل ذلك .

وأنصفهم من نفسه في القول والفعل ، وخلط الناس في المحبوب والمكروه ، فلم يقدر أحد أن يعيب له قولاً أو فعلاً ، وقال : إني مكبر ثلاثاً فتهيؤوا ثم احملوا في الرابعة .

فلما كبر أول تكبيرة أعجلتهم فارس وخالطوهم مع أول تكبيرة ، وركدت خيلهم وحربهم ملياً ، فرأى المثنى خللاً في بني عجل فجعل يمد لحيته لما يرى منهم وأرسل اليهم يقول :

(يقول الأمير ـ يقرأ عليكم السلام ويقول ـ لا تفضحوا المسلمين اليوم فقالوا : نعم ، واعتدلوا) فضحكوا فرحاً .

فلما طال القتال واشتد قال المثنى لأنس بن هلال النمري : إنك امرؤ عربي وإن لم تكن على ديننا ؛ فإذا رأيتني قد حملت على مهران فاحمل معي . فأجابه ؛ فحمل المثنى على مهران فأزاله حتى دخل في ميمنته ، ثم خالطوهم واجتمع القلبان وارتفع الغبار والمجنبات تقتل لا يستطيعون أن يفرغوا لنصر أميرهم لا المسلمون ولا المشركون ، وارتث مسعود أخو المثنى يومئذ وجماعة من أعيان المسلمين ، فلما أصيب مسعود تضعضع من معه فقال :

(يا معشر بكر . . . ارفعوا رايتكم رفعكم الله ولا يهولنكم مصرعي) .

وكان المثنى قال لهم : إذا رأيتمونا أصبنا فلا تدعوا ما أنتم فيه فإن الجيش ينكشف ثم ينصرف ، الزموا حصافكم واغنوا عمن يليكم ، وأوجع قلب المسلمين في قلب المشركين ، وقتل غلام نصراني من تغلب مهران واستولى على فرسه ثم انتمى : أنا الغلام التغلبي ، انا قتلت المزربان ، فجعل المثنى سلبه لصاحب خيله .

وكان التغلبي قد جلب خيلاً هو وجماعة من تغلب فلما رأوا القتال قاتلوا مع العرب .

وقيل . . إن المثنى البطل الهمام أفنى قلب المشركين والمجنبات بعضها يقاتل بعضا ، فلما رأوه قد أزال القلب وأفنى أهله وثب مجنبات المسلمين على مجنبات المشركين وجعلوا يروق الأعاجم على أدبارهم وجعل المثنى والمسلمون في القلب يدعون لهم بالنصر ويرسل إليهم من يذمرهم ويقول لهم : عاداتكم في أمثالهم انصروا الله ينصركم . حتى هزموا الفرس .

وسبقهم المثنى إلى الجسر وأخذ طريق الأعاجم فافترقوا (بشاطىء الفرات) مصعدين ومنحدرين وأخذتهم خيول المسلمين حتى قتلوهم وجعلوهم جثثاً .

وفي هذا النصر المؤزر يقول الأعور العبدي الشني[1] :

هاجت لأعورَ دارُ الحي أحزاناً ... واستبدلتْ بعَد عبدِ القيسِ خَفَانَا
وقد أرانَا بها والشملُ مجتمعٌ ... إذ بالنخيلةِ قَتلى جندُ مُهَرانا
أزمانَ سار المثنى بالخيولِ لَهم ... فقتَّلَ الزَحْفَ من فرسٍ وجَيلانَا
سَما لمهرانَ والجيشُ الذي معه ... حتى أبادَهم مَثنىً وَوحدَانَا

نتائج المعركة :

بعد أن نصر الله عباده المسلمين في هذه المعركة الخالدة معركة البويب ما كان بين المسلمين والفرس وقعة أبقى رمة منها ، فقد بقيت عظام القتلى دهراً طويلاً وكانوا يقدرون القتلى مائة ألف من الفرس . وسمي ذلك اليوم الأعشار . . أحصي مائة رجل قتل كل رجل منهم عشرة .

وكان عروة بن زيد الخير من أصحاب التسعة وغالب الكناني وعرفجة الأزدي من أصحاب التسعة ، وقتل المشركون فيما بين السكون وضفة الفرات وتبعهم المسلمون إلى الليل ومن الغد إلى الليل وندم المثنى على أخذه بالجسر وقال : عجزت عجزة وقى الله شرها بمسابقتي إياهم إلى الجسر وقطعه حتى أحرجتهم فلا تعودوا ولا تقتدوا بي أيها الناس إلى مثلها .

فإنها كانت زلة فلا ينبغي إحراج من لا يقوى على إقناع . ومات الناس من الجرحى من أعلام المسلمين فهم مسعود أخو المثنى وخالد بن هلال فصلى عليهم المثنى وقدمهم علي الاسنان والقرآن وقال والله إنه ليهون علي وجدي أن

---

(١) الكامل ٢/٣٠٥ .

صبروا وشهدوا البويب ولم يجزعوا ولم ينكلوا وإن كان في الشهادة كفارة لتجوز الذنوب .

وكان قد أصاب المسلمون غنماً ودقيقاً وبقراً فبعثوا بها إلى عيال من قدم من المدينة وهم بالقوادس ، وأرسل المثنى الخيل في طلب العجم فبلغوا السيب[1] ، وغنموا من البقر والسبي وسائر الغنائم شيئاً كثيراً ، فقسمه فيهم ونفل أهل البلاء من جميع القبائل ، وأعطى بجيلة ربع الخمس .

وأرسل الذين تبعوا المنهزمين من الفرس إلى المثنى يعرفونه سلامتهم وأنه لا مانع دون القوم ويستأذنونه في الإقدام فأذن لهم فأغروا حتى بلغوا ساباط وتحصن أهله منهم واستباحوا القرى ثم مخروا السواد فيما بينهم وبين دجلة لا يخافون كيداً ولا يلقون مانعاً ورجعت مسالم العجم إليهم وسرهم أن يتركوا ما وراء دجلة .

قصة خبر الخنافس وسوق بغداد وبطولة المثنى[2] :

بعد أن انتهى المثنى من وقعة البويب السابقة خلف المثنى بالحيرة بشير بن الخصاصية وصار يمخر السواد وأرسل إلى ميسان ودست ميسان وأذكى المسالح ونزل أليس (قرية من قرى الأنبار) . وهذه الغزوة تدعى غزوة الأنبار الآخرة وغزوة أليس الآخر . وجاء إلى المثنى رجلان أحدهما أنباري فدله على سوق الخنافس ، والثاني حيري دله على بغداد ، فقال المثنى : أيتهما قبل صاحبتها ؟ فقالا : بينهما مسيرة أيام . قال : أيهما أعجل ؟ قال : سوق الخنافس يجتمع بها تجار مدائن كسرى والسواد وربيعة وقضاعة يخفرونهم ، فركب المثنى وأغار على الخنافس يوم سوقها وبها خيلان من ربيعة وقضاعة ، وعلى قضاعة رومانس بن وبرة ، وعلى ربيعة السليل بن قيس وهم الخفراء .

---

(١) مكان قريب من الكوفة .

(٢) الكامل في التاريخ ٢/٣٠٦ .

فانتهب السوق وما فيها وسلب الخفراء ، ثم رجع فأتى الأنبار فتحصن أهلها منه فلما عرفوه نزلوا إليه وأتوه بالأعلاف والزاد ، وأخذ منهم الأدلاء على سوق أهلها بغداد ، وأظهر لدهقان الأنبار أنه يريد المدائن وسار منها إلى بغداد ليلاً وعبر إليهم وصبحهم في أسواقهم ، فوضع السيف فيهم وأخذ ما شاء ، وقال المثنى : لا تأخذوا إلا الذهب والفضة والحر من كل شيء . ثم عاد راجعاً حتى نزل بنهر السيلحين بالأنبار فسمع أصحابه يقولون : ما أسرع القوم في طلبنا ؟ فخطبهم وقال : احمدوا الله ، وسلوه العافية وتناجوا بالبر والتقوى ولا تتناجوا بالإثم والعدوان ، انظروا في الأمور وقدروها . ثم تكلموا أنه لم يبلغ النذير مدينتهم بعد ولو بلغهم لحال الرعب بينهم وبين طلبكم إن للغارات روعات تضعف القلوب يوماً إلى الليل ولو طلبكم المحامون من رأي العين ما أدركوكم وأنتم على الفرات حتى تنتهوا إلى عسكركم ، ولو أدركوكم لقاتلتهم لاثنتين التماس الأجر . ورجاء الانتصار ، فثقوا بالله وأحسنوا به الظن . فقد نصركم في مواطن كثيرة وهم أعدّ منكم) [1] .

ثم سار بهم الأنبار وكان من خلفه من المسلمين يمخرون السواد ويشنون الغارات ما بين أسفل كسكر وأسفل الفرات ، وجسوا مثقباً إلى عين التمر ، وفي أرض الفلاليج ، والمثنى بالأنبار .

ولما رجع المثنى من بغداد إلى الأنبار بعث المضارب العجلي في جمع إلى الكباث ، وعليه فارس العناب التغلبي ، ثم لحقهم المثنى فسار معهم فوجدوا الكباث قد سار من كان به عنه ، ومعهم فارس العناب فسار المسلمون خلفه فلحقوه ، وقد رحل من الكباث فقتلوا في أخريات أصحابه وأكثروا القتل ، فلما رجعوا إلى الأنبار سرح فرات بن حيان التغلبي ، وعتيبة بن النهاس ، وأمرهما بالغارة على أحياء من تغلب بصفين . ثم اتبعهما المثنى واستخلف على الناس عمرو بن أبي سلمى الهجيمي ، فلما دنوا من صفين فر

(١) الكامل في التاريخ ٢/٣٠٦ .

من بها وعبروا الفرات إلى الجزيرة ، وفني الزاد الذي مع المثنى وأصحابه فأكلوا رواحلهم إلا ما لا بد منه حتى جلودها ثم أدركوا عيراً من أهل دبا وحوران فقتلوا من بها وأخذوا ثلاثة نفر من تغلب كانوا خفراء وأخذوا العير ، فقالوا لهم : دلونا فقال أحدهم : أمنوني على أهلي ومالي وأدلكم على حي من تغلب (غدوت من عندهم اليوم) . فأمنه المثنى وسار معه يومه . فهجم العشي على القوم والنعم صادرة عن الماء وأصحابها جلوس بأفنية البيوت (فبث غارته) فقتل المقاتلة وسبى الذرية واستاق الأموال ، وكان التغلبيون بني ذي الرويحلة فاشترى من كان مع المثنى من ربيعة السبايا بنصيبه من الفيء وأعتقوهم ، وكانت ربيعة لا تسابي إذا العرب يتسابون في جاهليتهم . وأخبر المثنى أن جمهور من سلك البلاد قد انتجع شاطىء دجلة . فخرج المثنى وعلى مجنبتيه النعمان بن عوف ومطر الشيبانيان . وعلى مقدمتهم حذيفة بن محصن الغطفاني فساروا في طلبهم فأدركوهم بتكريت . فأصابوا ما شاؤوا من النعم ، وعاد إلى الأنبار . ومضى عتيبة وفرات ومن معهما حتى أغاروا على صفين وبها النمر وتغلب متساندين فأغاروا عليهم حتى رموا طائفة منهم في الماء فجعلوا ينادونهم الغرق الغرق ، وجعل عتيبة وفرات يذران الناس ويناديانهم تغريق بتحريق يذكرانهم يوماً من أيام الجاهلية أحرقوا فيه قوماً من بكر بن وائل في غيضة من الغياض ، ثم رجعوا إلى المثنى . وقد غرقوهم وقد بلغ الخبر عمر فبعث إلى عتيبة وفرات فاستدعاهما فسألهما عن قولهما فأخبراه أنهما لم يفعلا ذلك على وجه طلب ذحل إنما هو مثل فاستحلفهما وردهما إلى المثنى .

ذكر الخبر عن الذي هيج أمر القادسية ، وملك يزدجرد :

لما رأى أهل فارس ما يفعل المسلمون بالسواد قالوا لرستم ، والفيرزان[1] وهما على أهل فارس : (أين يذهب بكم)؟ لم يبرح بكما الاختلاف حتى

(١) الكامل في التاريخ ٢/٣٠٨ .

وهنتما أهل فارس وأطمعتما فيهم عدوهم ، ولم يبلغ من أمركما أن نقركما على هذا الرأي ، وأن تعرضاها للهلكة ما بعد بغداد وساباط وتكريت إلا المدائن ، والله لتجتمعان أو لنبدأن بكما (قبل أن يشمت بنا شامت) ثم نهلك وقد اشفينا منكما : فقال الفيرزان ورستم لبوران ابنة كسرى اكتبي لنساء كسرى وسراريه ونساء آل كسرى وسراريهم ففعلت (ثم أخرجت ذلك إليهم في كتاب) فأحضروهن جميعهن وأخذوهن بالعذاب يستدلونهن على ذكر من أبناء كسرى . فلم يوجد عند واحدة منهن أحد ، وقال بعضهن : لم يبق إلا غلام يدعى يزدجرد من ولد شهريار بن كسرى وأمه من أهل بادوريا فأرسلوا إليها وطلبوه منها وكانت قد أنزلته أيام شيري حين جمعهن (في القصر الأبيض) فقتل الذكور وأرسلته إلى أخواله . فلما سألوها عنه دلتهم فجاؤوا به ، فملكوه وهو ابن إحدى وعشرين سنة واجتمعوا عليه فاطمأنت فارس واستوثقوا ، وتبارى المرازبة في طاعته ومعونته ، فسمى الجنود لكل مسلحة وثغر ، فسمى جند الحيرة والابلة والأنبار وغير ذلك ، وبلغ ذلك من أمرهم (واجتماعهم على يزدجرد) المثنى والمسلمين فكتبوا إلى عمر بن الخطاب بما ينتظرون من أهل السواد . فلم يصل الكتاب إلى عمر حتى كفر أهل السواد من كان له عهد ومن لم يكن له عهد ، فخرج المثنى (على حاميته) حتى نزل بذي قار ونزل الناس بالطف في عسكر واحد ، ولما وصل كتاب المثنى إلى عمر . قال : والله لأضربن ملوك العجم بملوك العرب . فلم يدع رئيساً ولا ذا رأي وذا شرف وبسطة ولا خطيباً ولا شاعراً إلا رماهم به ، فرماهم بوجوه الناس وغررهم ، وكتب عمر إلى المثنى ومن معه يأمرهم بالخروج من بين العجم والتفرق في المياه التي تلي العجم (على حدود أرضكم وأرضهم) ، وأن لا يدعوا في ربيعة ومضر وحلفائهم أحدا من أهل النجدات ولا فارساً إلا أحضروه إما طوعاً أو كرهاً (احملوا العرب على الجد إذ جد العجم فلتلقوا جدهم بحدكم » ، ونزل الناس بالجل ، وشراف إلى غضى ، وهو حيال البصرة ، وبسلمان بعضهم ينظر إلى بعض ويغيث بعضهم بعضاً . وذلك في ذي القعدة سنة ثلاث عشرة ، وأرسل عمر في ذي الحجة من

السنة مخرجه إلى الحج إلى عماله على العرب أن لا يدعوا من له نجدة ، أو فرس ، أو سلاح أو رأي إلا وجهوه إليه ، فأما ما من كان على النصف ما بين المدينة والعراق فجاء إليه بالمدينة لما عاد من الحج . وأما من كان أقرب إلى العراق فانضم إلى المثنى بن حارثة وجاءت أمداد العرب إلى عمر . وحج في هذه السنة عمر بن الخطاب بالناس وحج سنيه كلها ، وكان عامل عمر على مكة هذه السنة عتاب بن أسيد فيما قال بعضهم ، وعلى الطائف عثمان بن أبي العاص ، وعلى اليمن يعلى بن منبه ، وعلى عمان واليمامة حذيفة بن محصن ، وعلى البحرين العلاء بن الحضرمي وعلى الشام أبو عبيدة بن الجراح ، وعلى فرج الكوفة وما فتح من أرضها المثنى بن حارثة ، وكان على القضاء فيما ذكر علي بن أبي طالب ، وفي هذه السنة مات أبو كبشة مولى رسول الله ﷺ وقيل : بعد ذلك ، وفي خلافة أبي بكر مات سهل بن عمرو أخو سهيل . وهو من مسلمة الفتح ، وفي خلافته مات الصعب ابن جثامة الليثي ، وفي أول خلافته مات ابنه عبد الله بن أبي بكر ، وكان قد جرح في حصار الطائف ثم انتقض عليه جرحه فمات . وفي هذه السنة توفي الأرقم بن أبي الأرقم يوم مات أبو بكر ، وهو الذي كان رسول الله ﷺ مستخفياً بداره بمكة أول ما أرسل .

وبعـــد :

فقد درسنا المثنى البطل الإسلامي المغوار والفارس المؤمن الذي كان مثالاً حياً للإيمان في سبيل نشر كلمة التوحيد ، فقد كان هذا الفارس الذي سماه عمر بن الخطاب (مؤمر نفسه) ويقول عنه اللواء الركن محمود شيت خطاب[1] .

(ما أشبه مزايا قيادة المثنى بمزايا قيادة خالد بن الوليد ، تلك المزايا التي

---

(١) فتح العراق ص ٤٤ .

جعلت هذين القائدين العظيمين لا يخسران معركة في كل حياتهما العسكرية بل كان النصر حليفهما في مختلف المعارك والحروب) .

وقد كانت نهاية حياته أن استشهد في معركة الشرف والبطولة ومن أجل رفع راية الإسلام ثم جاء سعد بن أبي وقاص ليكمل المسيرة المؤمنة في فتوح العراق وقهر أكاسرة الفرس . فجزى الله المثنى عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء وأسبغ له الرحمة الواسعة ولكل شهداء الإسلام في كل عصر ومصر .



المـــراجع

المرجع	المؤلف	دار النشر
(١) تفسير الكشاف	الزمخشري	دار الفكر
(٢) تفسير ابن كثير	ابن كثير	دار القرآن الكريم بيروت
(٣) صفوة التفاسير	محمد علي الصابوني	دار القرآن الكريم بيروت
(٤) المعجم المفرس لألفاظ القرآن	محمد عبد الباقي	دار إحياء التراث
(٥) صحيح البخاري	البخاري	المكتبة الإسلامية بتركيا
(٦) فتح القدير	محمد الشوكاني	دار المعرفة ببيروت
(٧) فتح الباري	ابن حجر	إدارة البحوث بالرياض
(٨) رياض الصالحين	النووي	دار المأمون للتراث
(٩) السيرة النبوية	ابن هشام	دار الجيل بيروت
(١٠) الطبقات الكبرى	ابن سعد	دار بيروت للطباعة والنشر
(١١) الجامع الصغير	الألباني	المكتبة الإسلامية دمشق
(١٢) تاريخ الأدب العربي	د . علي الجندي	مكتبة الجامعة العربية ط٢
(١٣) شعر الحرب في العصر الجاهلي	د . علي الجندي	مكتبة الجامعة العربية ط٣
(١٤) ديوان الحماسة	أبو تمام	القاهرة ١٩١٣ م
(١٥) حماسة البحتري	البحتري	دار الكتاب العربي بيروت
(١٦) أيام العرب في الجاهلية	محمد جاد المولى والبجاوي	القاهرة ١٩٤٢ م

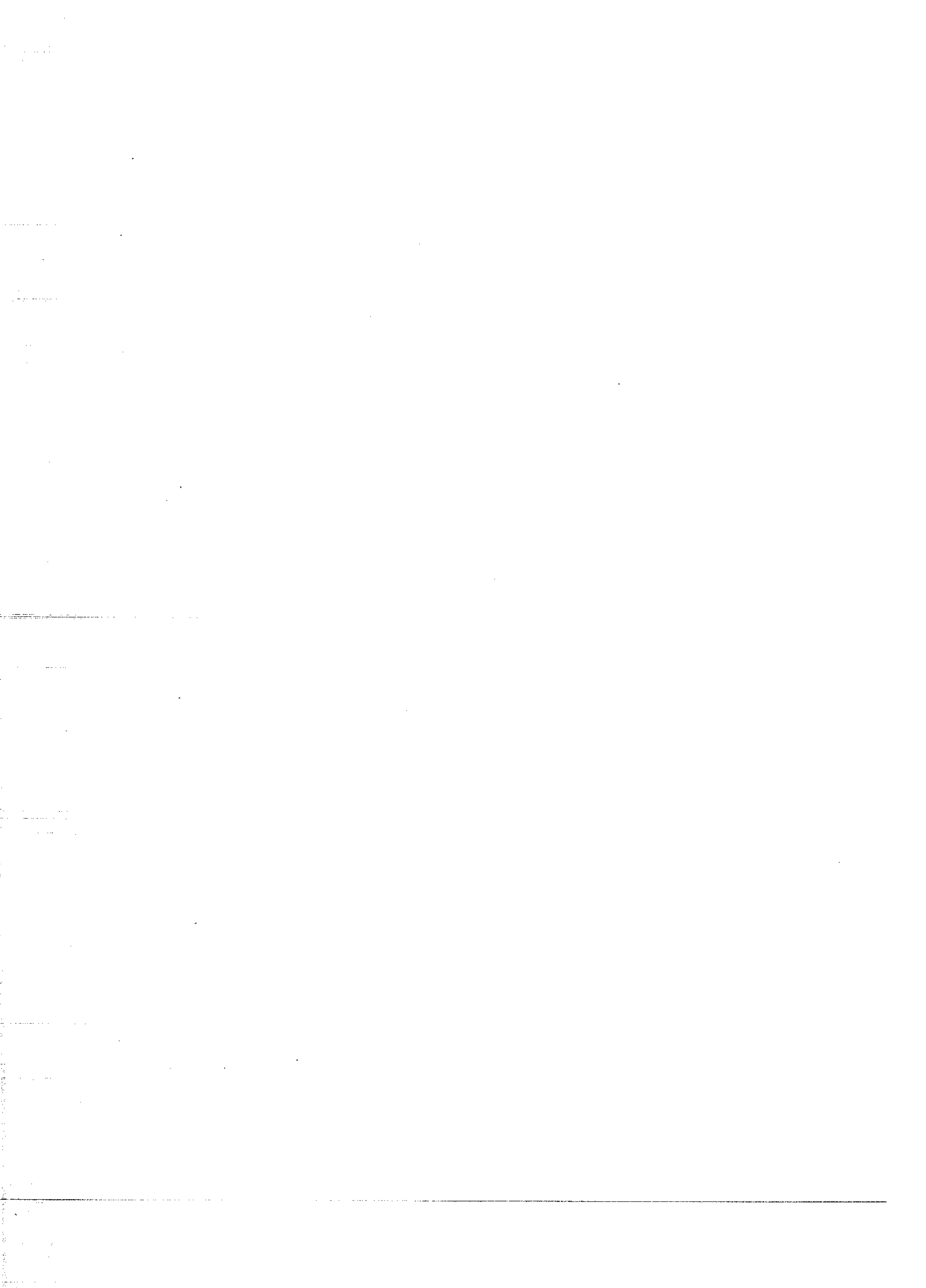
المــرجع	المؤلــف	دار النشــر
(١٧) شرح المعلقات السبع	الزوزني	دار صادر بيروت
(١٨) شرح المعلقات العشر	التبريزي	دار صادر بيروت
(١٩)أشعارالشعراءالستة الجاهليين	الأعلم الشنتمري	دار الآفاق بيروت
(٢٠) محاضرات الأدباء	الراغب الأصبهاني	بيروت
(٢١) لسان العرب	ابن منظور المصري	دار صادر بيروت
(٢٢) القاموس المحيط	الفيروز آبادي	دار الفكر بيروت
(٢٣) عيون الأخبار	ابن قتيبة	دار الكتاب العربي ـ بيروت
(٢٤) تاريخ الأدب العربي.	د . عمر فروخ	دار العلم للملايين
(٢٥) الكامل في الأدب	المبرد	مكتبة المعارف ـ بيروت
(٢٦) الأمالي	لأبي علي القالي	الهيئة المصرية العامة للكتب
(٢٧) خزانة الأدب	البغدادي	دار الكتاب العربي للطباعة والنشر
(٢٨) الطبيعة في الشعر الجاهلي	د . نوري قيس	دار الإرشاد ـ بيروت
(٢٩) الخيل	الأصمعي	فيينا ١٨٩٥ م
(٣٠) جمهرة أشعار العرب	لأبي خطاب القرشي	القاهرة ١٨٩٠ م
(٣١) ديوان امرىء القيس	امرؤ القيس	القاهرة ١٨٩٠ م
(٣٢) ديوان طفيل الغنوي	طفيل الغنوي	لندن ١٩٢٧ م
(٣٣) ديوان عامر بن الطفيل	عامر بن الطفيل	لندن ١٩١٣ م
(٣٤) ديوان عنترة بن شداد	عنترة بن شداد	القاهرة ١٩١١ م
(٣٥) شعراء النصرانية	لويس شيخو	بيروت ١٨٩٠ م
(٣٦) المفضليات	المفضل الضبي	أكسفورد ١٩١٨ م
(٣٧) العقد الفريد	ابن عبد ربه	بولاق ١٢٩٣ هـ
(٣٨) شرح النقائض	معمر بن المتنبي	ليدن ١٩٠٥ م
(٣٩) أغاني الأغاني	أبو الفرج الأصفهاني	مؤسسة بدران للطباعة والنشر
(٤٠) مجمع الأمثال	الميداني	القاهرة ١٨٩٣ م
(٤١) الشعر والشعراء	ابن قتيبة	دار المعارف ١٩٦٦ م
(٤٢) المجتمعات الإسلامية	د . شكري فيصل	دار العلم للملايين
(٤٣) الفروسية	ابن القيم	دار الكتب العلمية

المرجع	المؤلف	دار النشر
(٤٤) الحرب في شعر المتنبي	د . أبو ناجي	دار الشروق ـ بيروت
(٤٥) شرح قصيدة كعب بن زهير	د . أبو ناجي	مؤسسة علوم القرآن ـ بيروت
(٤٦) فتوح البلدان	أبو الحسن البلاذري	دار الكتب العلمية بيروت عام ١٩٧٨ م
(٤٧) الإصابة في تمييز الصحابة	ابن حجر العسقلاني	دار المثنى ١٣٢٨ هـ
(٤٨) الكامل في التاريخ	ابن الأثير	دار الفكر ـ بيروت ١٩٧٨ م
(٤٩) البطولة الحق	ابن خليفة عليوي	مكتبة الغزالي ١٩٨٠ م
(٥٠) الأصمعيات	الأصمعي ـ تحقيق شاكر وهارون	دار المعارف ١٩٥٥ م
(٥١) تاريخ الرسل والملوك	الطبري	ط ـ مصر
(٥٢) فتح العراق	محمود شيت خطاب	المثنى ١٩٦٠ م
(٥٣) الحلل السندسية	الأمير شكيب أرسلان	دار مكتبة الحياة
(٥٤) نفح الطيب	المقري التلمساني	دار صادر بيروت
(٥٥) شرح نهج البلاغة	ابن أبي الحديد	دار مكتبة الحياة
(٥٦) فجر الإسلام	أحمد أمين	دار الكتاب العربي
(٥٧) ضحى الإسلام	أحمد أمين	دار الكتاب العربي
(٥٨) ظهر الإسلام	أحمد أمين	دار الكتاب العربي
(٥٩) النهاية في غريب الحديث والأثر	ابن الأثير ـ تحقيق الزاوي والطناحي	دار الفكر
(٦٠) الأعلام	خير الدين الزركلي	دار العلم للملايين ط٣
(٦١) معجم المؤلفين	عمر رضا كحالة	مكتبة المثنى ودار إحياء التراث العربي ١٩٥٧ م
(٦٢) المغازي	الواقدي	عالم الكتب ـ بيروت
(٦٣) العصر الجاهلي	د . شوقي ضيف	دار المعارف بمصر ١٩٦٠م
(٦٤) السيرة النبوية	ابن هشام	دار الجيل ـ بيروت
(٦٥) مقاتل الطالبين	أبو الفرج الأصفهاني	دار المعرفة
(٦٦) الغيث المسجم في شرح لامية العجم	الصفدي	دار الكتب العلمية بيروت

المرجع	المؤلف	دار النشر
(٦٧) الفروسية في الشعر الجاهلي	د . نوري قيس	منشورات مكتبة النهضة بغداد ١٩٦٤ م
(٦٨) معجم البلدان	ياقوت الحموي	دار صادر ـ دار بيروت ١٩٥٧ م
(٦٩) وصف الخيل في الشعر	د . كامل الدقس	دار الكتب الثقافية بالكويت ١٩٧٥ م
(٧٠) الطبيعة في الشعر	د . نوري قيس	دار الإرشاد ـ بيروت
(٧١) وفيات الأعيان	ابن خلكان / تحقيق إحسان عباس	دار الصادر ـ دار الكتاب
(٧٢) العقد الفريد	ابن عبد ربه الأندلسي	دار الكتاب العربي ـ بيروت
(٧٣) الجهاد	د . أحمد الحوفي	المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بالقاهرة ١٩٧٠م
(٧٤) ديوان الخنساء	الخنساء	دار صادر ـ بيروت
(٧٥) ديوان زيد الخير	عبد العزيز الرفاعي	دار تهامة ١٩٨٢ م
(٧٦) الشنفري شاعر الصحراء	د . محمود أبو ناجي	مؤسسة علوم القرآن ١٩٨٣ م
(٧٧) الشعراء الصعاليك	د . يوسف خليف	دار المعارف بمصر ١٩٦٣م
(٧٨) تاريخ الأدب العربي	كارل بروكلمان ترجمة د . عبد الحليم النجار	دار المعارف بمصر ط٣
(٧٩) مصادر الشعر الجاهلي	د . ناصر الدين الأسد	دار المعارف بمصر ط ٤ ـ ١٩٥٦ م
(٨٠) نزهة الألباء في طبقات الأدباء	ابن الأنباري	نشر علي يوسف بالقاهرة
(٨١) تاريخ العرب قبل الإسلام	د . جواد علي	منشورات المجمع العلمي العراقي
(٨٢) ديوان حسان بن ثابت	حسان بن ثابت	ط النيل ١٩٠٤ م
(٨٣) جمهرة أشعار العرب	أبو زيد القرشي	بـولاق

المرجع	المؤلف	دار النشر
(٨٤) كتاب المعمرين من العرب	السجستاني	مطبعة الخانجي ١٩٠٥
(٨٥) طبقات فحول الشعراء	ابن سلام الجمحي تحقيق محمود شاكر	دار المعارف
(٨٦) فتوح ومصر وأخبارها	ابن عبد الحكم	مطبعة بريل ١٩٢٠ م
(٨٧) كتاب الخيل	ابو عبيدة معمر ابن المثنى	الهند ١٣٥٨
(٨٨) مختارات شعراء العرب	ابن الشجري	المطبعة العامرة بمصر١٣٠٦هـ





الفهـــرس

الفصل الثاني :

الفصل الثالث :